أفضل رواية إيطالية للعام 2021 - جائزة روبنسون

جوزِبِّه كاتوتسيلا

الطليانية

ترجمها عن الإيطالية: معاوية عبد المجيد

مكتبة 1302

المتوسط

الطليانية

مكتبة | 1302

حقوق الترجمة العربية ونسخها © 2022 منشورات المتوسط - إيطاليا.

17 8 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

Italiana *by* **"Giuseppe Catozzella"**
© 2021 **Mondadori Libri**
Arabic translation © 2022 **Almutawassit Books**
This edition published in agreement with the Proprietor through MalaTesta Literary Agency, Milan

المؤلف: جوزِبّه كاتوتسيلا / المترجم: معاوية عبد المجيد
عنوان الكتاب: الطليانية / الطبعة الأولى: 2022
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-74-5

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

جوزِبِّه كاتوتسيلا

الطليانية

ترجمها عن الإيطالية: **معاوية عبد المجيد**

مكتبة | 1302

المتوسط

تنويه من المترجم

نودّ تسليط الضوء على بعض المفاهيم التي اكتسبت مع مرور الوقت معنىً مختلفاً عمّا كانت عليه إبّان الفترة التاريخيّة التي دارت فيها أحداث الرواية. ففي حين كانت مدينة تورينو في الشمال، في منطقة پيمونته، عاصمة لمملكة سردينيا ويحكمها آل ساڤويا، كانت مدينة نابولي في الجنوب، في منطقة كامبانيا، عاصمة لمملكة الصقليّتين، ويحكمها آل البوربون. انقسم الإقطاعيّون والصناعيّون ما بين محافظين موالين للملك البوربونيّ، وتحرّريّين لبراليّين يؤيّدون وحدة إيطاليا تحت حكم آل ساڤويا. وقد أرسل ڤيتّوريو إيمانويلي دي ساڤويا قائد جيشه الجنرال جوزيبّي غاريبالدي في حملةٍ عسكريّة قوامها ألف مقاتل فقط يرتدون القمصان الحمر، واستطاعوا إسقاط مملكة البوربون وضمّ الجنوب. فأصبح إيمانويلي أوّل ملك لإيطاليا الموحَّدة، وذاع صيت الجنرال وحصل على عدّة ألقاب، مثل بطل العالمين لأنّه شارك في حروبٍ في أمريكا اللاتينيّة، والدكتاتور لبطولاته في القيادة وشحذ الهمم.

إلى كيارا، دوماً.

إلى جوليا.

كم من الشجاعة نحتاج للتمثيل إلى الأبد، مثلما تُمثِّل الوديان، مثلما يُمثِّل النهر.

بوريس باسترناك

من الضروريّ أن نمنح شيئاً لمَنْ هم في الأسفل، للحُفاة، للذين يكسبون قُوْت يومهم بالكدِّ والشقاء، للبؤساء. لذا فلنقدِّم لهم الأساطير، والخرافات، والروح، والخلود، والفردوس والنجوم.

فكتور هوغو، البؤساء

إنّ قصَّةَ هذه الرواية المبنيّة على الوثائق قد وقعت فعلاً. والأحداث والشخصيّات كلُّها فيها حقيقيّةٌ وليست ثمرة مخيِّلة الكاتب.

الوقائع واللحظات التاريخيّة المفصليّة كلُّها موثَّقةٌ في أكثر من مصدر. والوثائق المنقولة هنا (برقيّات، أحكام قضائيّة، منشورات، خُطَب، رسائل) كلُّها حقيقيّة.

كما أنّ الوقائعَ التاريخيّة والخاصَّة في حياة ماريّا أوليڤيريو، وبييترو موناكو، موثَّقةٌ في سجلَّات المحاكمات ومُودَعةٌ في أرشيف الدولة المركزيّ في روما، وفي أرشيف أركان الجيش في روما، وأرشيف الدولة في كوزينترا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحكمة العسكريّة الخاصّة في كاتانزارو

16 فبراير 1864

«يُشارُ إلى أنّها مَثُلتْ هنا بثيابٍ رجاليّة مرتديةً صدريّة من قماشٍ ملوَّن، وسترةً وبنطلوناً من قماشٍ أسود، ورأسها ملفَّعٌ بمنديل».

«أنا ماريّا أوليڤيريو، ابنة المتوفَّى بياجّو، عمري اثنان وعشرون عاماً. مولودة ومقيمة في كازولي، كوزينتزا، ليس لديَّ أبناء، من بييترو موناكو. نسَّاجة، كاثوليكيّة، أُمِّيَّة».

لستُ أُمِّيَّةً في الحقيقة، تعلَّمتُ القراءة والكتابة من خلال أربع سنوات في المدرسة، ومن الكُتُب التي كنتُ أسرقها من زوجي بييترو خُلْسَةً. ولكنْ، في القانون، إذا كنتِ نسَّاجةً فمن الأفضل أن تتظاهري بالغباء.

انتهى بي المطاف أمام القاضي العسكريّ كما لو كنتُ في كرنفال: شَعْري قصيرٌ كالرجال، وجهي قذرٌ، ويغصُّ بالكدمات التي تلقَّيتُها في أثناء عامَيْن كاملَيْن أمضيتُهما في الجبال، وأظفاري مخدوشة. عثروا عليَّ مختبئةً في إحدى المغارات، في غاب كاكوري، في قلب جبال سيلا؛ كان الوادي تحتي مشمساً وسحيقاً، وقُبَالَتي جبل كارلومانيو وجبل سكورو. كنتُ منغلقةً هناك طوال أسابيع، كالدّبّ.

كان جوف المغارة عميقاً ورطباً، مأوى لديدان الخرطون وجرذان الزباب. لا تتجاوز فتحةُ المغارةِ الثغرةَ، لكنّها وسيعةٌ من الداخل، وعلى الرغم من أنّ الضوء يتسرَّب إليها بالكاد، لم أكن بحالٍ سيِّئةٍ فيها عندما أوقد النار. كان قد تبقَّى لديَّ علبةٌ من أعواد الثقاب الجيِّدة، وكنتُ في أثناء النهار أفرش الحطب، ليجفَّ تحت الشمس، وفي الليل أجعل منه لهباً وديعاً. وكنتُ قد صنعتُ مرقداً من جمع إبر الصنوبر وغصيناته، ومذبحاً حجريّاً صغيراً مزوَّداً بصليبٍ مشغولٍ كيفما اتَّفق لمجرَّد أن يؤانسني. لقد بدأتُ البحث عن الله في الغاب، ففي السابق لم يكن لديَّ ما أتوجَّه به إليه سوى أدعيةٍ منفعيّة تُعينني على إقصاء الخوف عنِّي كلَّما راودني. وكانت جذوع الأرزيّة في الخارج تُخفِض من قرقرة طائر الحِدَأة، وغَقْغَقَة الشاهين الجوَّال، وصَرْصَرَة العُقاب الذي يحلِّق عموديّاً. ما مرَّ يومٌ أو ليلةٌ من تلك الليالي الطويلة إلَّا وعادت أفكاري إلى أُمِّي وأبي، إلى إخوتي ڤنشنزا وسالڤو وأنجلو ورافّايلي، وإلى ذلك الشيطان زوجي بييترو، الذي تركناه في الأعلى، ميتاً، محترقاً، في عشِّ النسر اليائس.

كنتُ أخرج قبل الغروب لأُجابِهَ الجبال بحثاً عن غذاء. لم يكن في وسعي استخدام البندقيّة مزدوجة السبطانة، بسبب دويها الفاضح، لكنّي تعلَّمتُ اصطياد الحيوانات الصغيرة باليدَيْن العاريتَيْن أو بالمقلاع – طيور صغيرة وزغبات – أو شبُّوط النهر بالسِّنَّارة. ثمَّ أشويها على حجرة سوداء مسطَّحة، وأُضيف إليها الكستناء وفُطْر الغوشنة والزغاليل، وأنتظر الظلام لطمس الدخان وآكُل مثل وحشٍ لا يجد فريسةً منذ أيَّام. كنتُ أجمع مياه المطر، وأترك للزمن أن يُكمِلَ دورته.

وفي أثناء الظهيرة، أو الليل، أهبط إلى مجرى السيول، تحت ضوء

القمر، وأغمر رأسي حتَّى كَتِفَيَّ في مائه البارد، وأروي عطشي، وأنا قابعة، مثل باكّا، الذئبة التي بقيت بصحبتنا إلى أن شمَّتْ رائحة الخيانة. وكنتُ في النهار أتعرَّى وأنزل في الماء، وأعوم على ظهري يقتادني التيَّار، وأسرح بمتابعة الغيوم في السماء، فيتوقَّف كلُّ شيء في تلك اللحظات، ويعود الماضي والمستقبل زاخرَيْن بالحياة. ثمَّ أبقى مختبئةً تحت أغصان الشجر، لأستدفِئَ بأشعَّة الشمس. وأعود إلى ملاذي مبلَّلةً وسعيدة. كان ذلك في شهر فبراير، ومياه نهر نيتو باردةٌ حتَّى التجمُّد، لا شيء كان يثير مخاوفي.

وعند العودة، كنتُ أُغلق الفتحة على نفسي جيِّداً، بتكديس الحجارة، لكنّي أترك حيِّزاً صغيراً، لأُراقب الأشياء في الخارج: حيث أحلم أنّني أبلغ القِمَمَ، وأشجارَ الشوح البيضاء وكستناءَ السماء، أحلم أنّني أُقلِّد الباز إذ يكمن بين تلك الأغصان قبل أن يهمَّ بالطيران لاصطياد صغير أرنبٍ برِّيٍّ لفراخه.

إلَّا أنّها كانت مسألة وقت. فلقد غُدِرَ بنا أساساً، ومن المؤكَّد أنّهم يبحثون عنِّي في أرجاء سلسلة سيلا كلّها. ولو تعلَّقَ الأمر بالجنود الشَّماليِّيْن حصراً لكنتُ مطمئنَّةً، حتَّى وإن كان بينهم صيَّادو الألب، أبناءُ جبال الشَّمَال الذين حرَّروا أراضيهم، وجاؤوا الآن لملاحقة مَنْ يبتغي الحُرِّيَّة من أجل الجنوب. ليس في مقدورهم الوصول إلى أماكن معيَّنة، داخل غاباتنا وجبالنا، ليسوا على معرفةٍ تامَّة بالدروب التي مهَّدها أجدادُنا، والطُّرُق التي فتحها أسلافُنا. غير أنَّهم أصبحوا يسترشدون برعاة البقر والفحَّامين والحطَّابين، وهذا ما كان يقضُّ مضجعي. بتُّ أشعر أنّني مُطارَدة.

وما إن حان الربيع حتَّى حسمتُ أمري: كنتُ سأهرب إلى الوادي،

باتِّجاه البحر. وكنتُ سأسرق قارباً يُبحِر بي نحو الشَّمَال. كنتُ سأقطع نهر أرجنتينو عكسيّاً قبل سكاليا حتَّى أصل إلى ضفَّة أورسومارسو، ومن هناك سأتسلَّق جبال سيلا ثانيةً. كنتُ سأوحِّد كثيراً من الرجال في أثناء الرحلة، وأجعل منهم جماعةً كبيرة، لنقطع جبل كورتشو ونهاجمهم من الخلف: وستكون تلك المعركة النهائيّة.

ولكنْ، حان ذلك اليوم.

حَاصرَوني. وقبل أن أتمكَّن من النظر في عينَي يهوذا، الخائن الذي فتح لهم الطريق، أمروه بالذهاب بعيداً. ثمَّ بدؤوا يُطلقون الرصاص، بكثافة، خلال الليل، فأجبتُ عليهم بالنار كالمجنونة. صمدتُ يوماً كاملاً، وماذا بعد؟ لم يكن بإمكاني الخروج للاصطياد، وقد نفدت مؤونة الماء، وكانوا كُثُراً. لم يعد أمامي خيار.

قبض عليَّ ملازمٌ ثانٍ يُدعى جاكومو فيرّاريس، وقد رأى في شَعْري المقصوص وثيابي الداكنة رجلاً. استغرق أولئك الرماة الحمقى بعض الوقت، ليُدركوا أنّني امرأة، المرأة الوحيدة التي قادت عصابة قطّاع الطُّرُق في وطننا إيطاليا هذا الذي بُنِيَ بالدماء للتوِّ. بتُّ مكبَّلة اليدَيْن، ووجهي مَهروسٌ بالتراب. هزَّني أحدهم بعنفٍ ليقلبني، وشقَّ القميص بسبطانة بندقيَّته.

«لديه ثديان!» كان يقهقه مع الآخرين، بلُكْنَتِهِم البيمونتيّة المضحكة. «لديه ثديان!»

لم يكفَّ رفاقه عن النظر إليَّ، يحنون رؤوسهم ويتفرَّسون في وجهي، ومَنْ يدري ما الذي ظنُّوا أنّهم وجدوا فيه، أو ربمّا لم يرَوا ثديَيْن من قبل. ثمَّ أدركوا الأمر، وراحوا يقفزون فرحاً، هنَّأ بعضهم بعضاً، وتعانقوا، ورقصوا

كالأغبياء: لقد قبضوا على شيشيلاّ، شيشيلاّ الشهيرة، شيشيلاّ الرهيبة. كان الملازم الثاني هو الوحيد الذي ينظر إليَّ ولا يتكلَّم، بدا أنّه فَزِعٌ من مجرَّد الاقتراب منِّي، في حين كان الآخرون يضربونني برؤوس جزماتهم، وبمقابض بنادقهم. إلى أن أمرهم فيرّاريس بالتوقُّف عمَّا يفعلون.

هذه أنا طبعاً. لستُ رجلاً، وما وددتُ يوماً أن أكون رجلاً تحت أيِّ ذريعة. فمنذ عامَيْن وأنا أُشابِهُ الذئبةَ أكثر ممَّا أشابِهُ الرجل، وما أكبَرَ الفرق بين الذئبة والرجل!

ولكنْ، لا بدَّ لي من توضيح أمرٍ معيَّن: إن كنتُ قد استعملتُ السكِّين لقصِّ شَعْرِي وارتديتُ ثياباً رجاليّة، فليس لأنيّ أردتُ أن أكون مثل واحدٍ منهم. لولا فعلتي هذه لما تحرَّرتُ أبداً. لولا ذلك لكنتُ سأبقى ماريّا.

الجزء الأوَّل
في البلدة

1

عندما كنتُ صغيرةً، عزمتُ على الذهاب للبحث عن شقيقتي الكبرى التي لم تُساكِنَّا البيت على الإطلاق. كنَّا ستَّة إخوة، لكنّ الأثر الوحيد لشقيقتنا تيريزا هو خمسة أحرف منخفضة «eresa» بجانب T مخطَّطة بالقلم الرصاص على جدار المدفأة، حيث كان والدي في كلِّ عام، وفي عيد ميلاد أيٍّ منَّا، يقيس طول قاماتنا.

كان الحديث عنها في البيت محظوراً، ولا يذكر أبي وأُمِّي اسمها إلَّا نادراً، في يوم الأحد أو في الأعياد الدينيّة، عندما تعمر المائدة ببعض النبيذ أو عندما يُقطِّر أحدهم الخمر في البلدة، ويعطي لوالدي ربع لترٍ منه.

رافّايلي، شقيقي الأكبر، لم يكن يصدِّق أنّ لها وجوداً، على خلاف سالڤو، شقيقي الأوسط. كان والدي يشير إليها نشوانَ وحالماً، في المساء، على ضوء قنديل الزيت الخافت، ثمَّ يُنكر كلامه إذ تقول له والدتي: «اصمتْ، اصمتْ». كانت عيناها تترقرقان بالدمع، الأمر الذي لم يكن يحدث قطُّ، ثمَّ تحملق بالسقف، ومن دون انتباهٍ منها تسرح أنظارها إلى أطراف الجبال عبْر النافذة، وتبتسم، بمفردها. «اصمتْ، لا تقلْ شيئاً، فالأولاد يتكلَّمون، وقد نغدو في عيون أهل البلدة متواكلين ومتكبِّرين»، كانت تُسكِتُ والدي.

إذا كان لتلك الشقيقة وجودٌ حقَّاً فإنّ هذا لا يعرفه أحدٌ سواي. أطلعتْني والدتي على ذلك في مساء يوم أحد أمطرت فيه السماء بغزارة، وقد أخذتْني على انفراد وقبَّلت رأسي، وحلَّفتْني ألَّا أبوح بكلامها لأيِّ شخص، حتَّى لإخوتي. «سترحلين عنَّا قريباً، يا ماري» قالت بمقلتَيْن دامعتَيْن «ستحصلين أنتِ أيضاً على كلِّ ما لديها».

أربكتْني تلك الجملة. وبتُّ أعيش في عالمَيْن منفصلَيْن منذئذ. فمن جانبٍ هناك حياةٌ جديدة، غامضة ومرعبة، أتصوَّرها حافلةً بمظاهر الثراء، بجانب شقيقتي المجهولة؛ ومن الجانب الآخر هناك عائلتي والبلدة والبيت الذي عشتُ فيه حتَّى تلك اللحظة. لكنّي كنتُ أتصرَّف كأنّ هذا غير صحيح، وأنّ كلمات والدتي محض خيال، وأنّ الأشياء ستبقى على حالها.

وكانت ڤنشنزينا، التي تصغرني بثلاثة أعوام، تأتي بعد كلِّ عطلة لتهجع في سريري، بجانب سريرها، في الغرفة نفسها، حيث نأكل ونطبخ. تتغلغل رائحة الحساء في الثياب، وداخل الوسائد، وما بين خُصْلات الشَّعْر. والماء الذي يتبخَّر من القِدْر الموضوعة على الموقدة يلطِّخ السقف، فيتساقط قطراتٍ، ويتبارى راڤايلي وسالڤو على ابتلاع القطرة وهي تهوي. وكانت أسِرَّةُ إخوتي في الجهة الأخرى بجانب المدفأة. أمَّا أنجولينو، الذي لم يتجاوز السنة حينها، ينام في غرفة النوم مع أُمِّي وأبي.

كنَّا نعيش في بيت ڤيكو الأوَّل دي بروزي، في كازولي، على تلَّة بريزيلا، عند سفوح الجبال. بيتٌ مَبنيٌّ حول مدفأة، بحجارةٍ ركنيّةٍ كبيرة لتحمينَا. هو بيت والد جَدِّنا، بابه على شكل قوس، وكان يبدو لي أجمل بيتٍ في العالم. كان، في البدء، غرفة واحدة، وخلفها زريبةٌ

للحيوانات. ثمَّ جاء جَدِّي بياجّو، الذي ورث والدي اسمه، وقضى على الأبقار والماعز القليلة بعد أن أصابها المرض جميعاً، وحوَّلَ الزريبة إلى غرفةٍ للنوم بمعونة أبنائه الذكور. ومنذ ذلك الحين انغمست العائلة في الأرض، وباشرت العمل لمصلحة آل موريلّي.

وهكذا أصبحنا عمَّال مياومة، خاضعين لنزوات ذوي «القبَّعات»، ما يعني أنّ انعدام المجال الرحب كان آخِرَ همومنا. أمَّا إذا حانت نهاية الشهر وانعدم ما يؤكل، اتَّضحت أفكار الجوع، لا سيَّما عند رافّايلي، الأخ الأكبر. لكنّنا لم نكن نفكّر في الجوع، لا أحد منَّا يفكِّر فيه، لئلَّا نصاب بالجنون. لم نكن نفكِّر أنّنا نكدُّ ونشقى ليلاً نهاراً، لم نكن نفكِّر أنّ «القبَّعات» يُسوِّرون كلَّ شيء بالسلك الشائك - أراضٍ، وغاباتٍ ومراعٍ عامَّة - ويرصدون كلاب حراسة في منتهى الشراسة، ليمنعونا نحن المزارعين من تأمين بعض الحطب، وجمع السنابل بعد الحصاد، والتقاط حَفْنَة من الفُطْر الزعفرانيّ وحبوب الكستناء، واصطياد السُّمَّان في أحد الأحراش، أو سمكة الزمر من أحد الأنهار. لم نكن نفكِّر في هذا. بل كنَّا نهضم جوعنا لنستيقظ في الصباح نُذكِّر أنفسنا بأنّ الكرامة - «الكرامة!» - يردِّد والدي، الكرامة هي التي لا يجوز أن نسمح لأحدٍ أن ينتزعها منَّا.

كانت قنشنزا تقفز على فراشي الصوفيّ الرديء، تضطجع على أحد جانبَيْها، وتضع وجهها على وجهي، تحبُّ اللهو بلعبة الرموش المتلامسة.

«ماري، هل تعتقدين أنّ لدينا أختاً كبرى؟»

«أجل» كنتُ أجيبها.

«وأنا أيضاً أعتقد ذلك. ولكنْ، هل هي ثريّة جدَّاً؟»

«باذخة الثراء».

«ولماذا رحلت عنَّا؟»

«لأنَّها ثريَّة جدَّاً، وهذا البيت يثير اشمئزازها».

«ولماذا يثير اشمئزازها؟»

كنتُ أبتدع إجابة مختلفة في كلِّ مرَّة. «لديها مرحاض، ونحن ما زلنا نستعمل الدلو»، وأشير إلى الدلو المعدنيّ المجانب لباب غرفة النوم. لكنّ قنشنزا لا تستخدمه، كان عمرها أربع سنوات وتتبوَّل في ثيابها بين الحين والآخر، وقد تبلِّلُ السريرَ ما لم تضع قماشة الحفَّاض القطنيّة وتعقدها بدبُّوس المشبك. «تيريزا تحبُّ أن تسند فخذَيْها عندما تتبوَّل، كي لا يراها زوجها!» كنتُ أهمس في أُذُنها. فلقد سمعنا أُمَّنا تقول إنّ شابَّاً فاحش الثراء طلب يدها للزواج، وأخذنا نشطح بالخيالات منذ ذلك اليوم. فكانت قنشنزا الصغيرة تضحك بشدَّة، وتسدُّ فمها بيدَيْها، ونكفُّ عن الحديث عنها، فأغفو وأنفاسُها تختلط بأنفاسي.

وذات صباح من شهر مارس، وصلت برقيّة.

كلماتٌ يسيرة، حتَّى إنّ أُمِّي بمفردها استطاعت قراءتها. وعندما عدتُ من المدرسة بعد الظهر، أخذتْني على انفراد، وراحت تهمس في أُذُني وهي تشير إلى الكلمات بإصبعها المرتجفة.

«جهِّزوا الطفلة. سنُبرق إليكم لنتَّفق على أن ترسلوها إلى نابولي بالمركبة العموميّة. سننطلق الآن إلى نابولي، نحن مستعدُّون للتبنِّي.

الكونت تومّازو وزوجته».

لمع ضوءٌ مسحور في عينَي أُمِّي ونظرت إليَّ. «سيكون لديكِ أبوان جديدان. ثريَّان» قالت «وستعيشين مع أختكِ».

انتبهت ڤنشنزا إلى أنّ شيئاً غريباً كان يحدث، فاختبأت في زاويةٍ معتمة، وراحت تراقبنا. كان في نظرتها خشيةٌ من البقاء وحيدة. عطست فجأةً، بسبب برودة الجدران. فانتزعتُ نفسي من أُمِّي وركضتُ لأعانقها. كانت ترتعش. لم أكن لأتركها، أبداً، مقابل أيِّ شيء في هذه الدنيا. «سأبقى معكِ دوماً» وعدتُها، وضممتُها «أنا وأنتِ، دوماً».

كانت تنظر إليَّ من الأسفل بعينَيْها النجلاوَيْن والمنتفختَيْن. «حسناً» تقول وهي تهزُّ برأسها موافِقةً وتشهق بأنفها.

لكنّ كلمات البرقيّة ما فتئت تطنُّ في أُذُنيَّ خلال الأيَّام اللاحقة. تَبَنٍّ. أبوان جديدان. سأصبح ثريّة. سأتعرَّف على شقيقتي الغامضة. سأزور نابولي، العاصمة. كنتُ أرغب في تلك الأشياء كلِّها، إلَّا أنّها أشياء تُفزعني في الوقت ذاته.

كنَّا في مطلع العام 1848، وما يثير العجب أنّ الثلج لم يتساقط البتَّة حينها، لا نُدْفَةً حتَّى. وهكذا، استكمالاً للأعجوبة نفسها، بدا أنّ الأشياء آيلةٌ للتغيُّر: فمن ميلانو إلى نابولي وباليرمو، هبَّت رياحُ ثوراتٍ كانت ستُحرِّرنا جميعاً، بدءاً بي تماماً.

حتَّى والدي، الذي كان في كلِّ مساء يعود مَهدودَ الظَهر ويهزُّ رأسه قُبالَةَ حساء القُنَّبِيْط والهِنْدِبَاء، ويقول: «العملُ جذرُ الموت»، حتَّى هو قد تغيَّرَ مزاجُهُ وصار متفائلاً للمرَّة الأولى. كان يرنو إلى نقيشة النَّذْر، حيث أيقونة القدِّيسة مارينا الراهبة، المحاطة بالبخور، فيبدو أنّه موقنٌ بحياةٍ لا يشوبها خَبَب البغال، أو خُوَار البهائم، أو النفايات، أو الضجيج المزعج والرتيب الناجم عن احتكاك السلاسل بالسرج. أو كان على الأقلِّ موقناً بحياةٍ يصبح فيها كلُّ ما سبق مُلكَهُ.

نظرتُ إلى خارج النافذة.

الجبل في البعيد، وما وراءه غابُ كولّا ديلّا ڤاكّا. كنتُ سأهرب إلى هناك، ما من نجاةٍ إلّا هناك. فإذا تواريتُ عن الأنظار بعض الوقت، صَعُبَ عليهم أن يمنحوني لآباء جدد.

وهكذا دُفِعتُ بالحماس، فخرجتُ من البيت لأغامر في ذلك الطريق العشبيّ الذي يتسلّق إلى أعلى الجبل. كانت تجذبني تلك الأطلال المتبقِّية في الغاب، وتبدو لي أنّها بجدرانها الحجريّة التي ما تزال ناهضةً، والنوافذ والسقوف المحطَّمة، لا يُعلى عليها بتجلّي مفهوم الأمان الذي تمخَّض عنها. وبعد ساعاتٍ من المسير، وصلتُ إلى بيتٍ مهدوم. كنتُ قد رأيتُ ذلك الطَّلَل ثلاث مرَّات بالمجمل، وكنّا نمرُّ فيه خلال المشاوير الطويلة على السُّبُل والدروب التي تنهجها البغال، والتي تشتدُّ وعورةً أكثر فأكثر، حيث كانت أُمّي تصحبني لزيارة الجَدَّة تينوتسا في ضيعة الحطّابين والصيّادين التي وُلِدتْ فيها، ما فوق لوريكا، على جبل بوتّي دوناتو. وكان الشقاء هناك أشدَّ وطأةً ممَّا هو عليه في بلدتنا.

«ولكنْ، لا يوجد أسياد!» تنعق الجَدَّة، الضامرة والمكشِّرة كشرنقة الفراشة. كانت على حقٍّ: لا يصل الأسياد إلى الجبال، ومع هذا يهيمن الفقر بسهولة.

اقترب الغروب. سقطت زخَّاتٌ من المطر بعد قليل، ثمَّ انهمر مطرٌ غزير، وكان البرق يمزِّق السماء، في حين أنّ الظلمات تتقدَّم.

فاجتاحني رعبٌ لم أجرِّبه من قبل. لقد هربتُ إلى شيءٍ أكبر منّي كثيراً، أمسى الغاب حينئذٍ وحشاً عملاقاً يلفُّني بعباءته السوداء من كلِّ جانب. أخطأتُ الوجهة، واحترتُ بما ينبغي لي فعله. كم من الوقت

سأصمد وأنا وحيدة، بلا أُمِّي وأبي؟ إلى أين ظننتُ أنيّ ذاهبة؟ كان الخوف يشلُّ ساقَيّ.

«النجدة!» صرختُ إلى فسحة الحرش. فما أجابني أحدٌ سوى حِدَأة رفرف بجناحَيْه، وانتقل إلى غصنٍ قريب من هناك «النجدة، يا أبتِ!»

لكنّ أبي ما كان ليسمعني.

ثمَّة فرنٌ حجريّ ظلَّ على حاله خارج البيت القديم. تشجَّعتُ، تسلَّقتُ، واندسستُ فيه، ونالني النعاس بعد قليل.

وفي الصباح، فجراً، كان الغاب يتألَّق بضوءٍ فضِّيٍّ حيويٍّ، كأنّه ثعبانٌ معدنيٌّ كبير. كنتُ جائعة، وعطشى. نظرتُ حولي، ذهبتُ للبحث عمَّا يؤكَل، لم أجد شيئاً. لا أعرف ما العمل، فالسماء سوداء وتتوعَّد بهطل المطر. لو بقيتُ في الغاب مُتُّ لا محالة. ليس لي سوى أن أمشي على الدرب الذي أتيتُ منه، وأن أقِرَّ بأنّني أخطأتُ.

وعندما وصلتُ إلى البيت، قبل ساعة الغداء، أخذ والدي يصيح.

«أين كنتِ، ها؟ تغيَّبتُ عن أصبوحةِ عملٍ بحالها، وبحثنا عنكِ في أرجاء الوادي. إن طردني ربُّ العمل، فهذا بسببكِ».

«كنتُ في الغاب».

«في الغاب؟» نظر إليَّ كما يُنظَرُ إلى مجنون. «إنّ هذه البنت وُلِدَت حرَّة» قال دون أن يتوجَّه إلى أحدٍ على التعيين «عنيدة». ثمَّ التفت إلى أُمِّي. «لقد ورثتْ هذا الطبع منكِ، هذه البنت غريبة الأطوار».

كلَّما تلفَّظَ بتلك الكلمات نظر إلى نقيشة النَّذْر، حيث أيقونة شفيعة كازولي، القدِّيسة مارينا عذراء بيثينة، الراهبة التي قصَّت شَعْرها،

وعاشت طوال حياتها في دَيْرٍ للذكور، متظاهرةً بأنّها رجل، إلى أن ماتت، وقد اتُّهِمت بجريمةٍ لم ترتكبها. يرى أهالي كازولي أنّ الراهبة مارينا تجسِّد صورة التضحية التي يتوجَّب على النساء أداؤها إزاء أزواجهنَّ. وبالنسبة إلى والدي، يتعيَّن على أُمِّي أن تكون كالقدِّيسة مارينا. وأنا على غرارها. لكنّني لم أكن أنوي التضحية بنفسي من أجل أحدٍ، وفي سبيل أيِّ شيء، والحقيقة هي أنّني لستُ حُرَّةً حتَّى في تقرير مصيري، ما دمتُ في ذلك البيت، لأنّي فقيرة. مثل أهلي تماماً.

«لم أرثْهُ من أُمِّي» أجبتُ «إنّما من الجَدَّة تينوتسا».

ضربني أبي. لا وجود للحُرِّيَّة في بيتنا، فهي أمرٌ يناسب الأسياد، أو المجانين. لكنّني صلَّبتُ مؤخِّرتي، وعطستُ عمداً، لأُرِيَهُ أنّ البرودة آلمتْني أكثر من ضرباته، وتظاهرتُ كأنّ شيئاً لم يكن. نادتْني أُمِّي حينذاك بشبه ابتسامة، ثمَّ نظرت إلى لباسي الملطَّخ بالتراب.

«تعالي معي لكي نغسله» قالت.

كان أبي وأُمِّي متعارضَيْن في هذه الأشياء.

وُلِدَ أبي لكي يعتني بالأرض، يداه غليظتان وخشنتان وعضلات ساقَيْه تصلح للسهول، ووجهه مُسمَرٌّ بفعل ثلاثين عاماً من العمل تحت الشمس الحارقة، ومجعّدٌ مثل صلصال الغابة. «حذار من الغنيّ إذا فَقِرَ، ومن الفقير إذا اغتنى» كان يقول دوماً. كان يرى أنّ الأمور كلَّها يجب أن تبقى على الحال التي هي عليه، حتَّى لو كانت الحال مزرية. كان عاملاً جبَّاراً، وقد تحمَّلَ خلال تلك الأعوام أشهراً غير مدفوعة الأجر، وتحمَّلَ الضرب والتهديد، ثلاثين عاماً من العمل حسب الطلب «شهريّاً»، وفي نهاية كلِّ شهر يؤدِّي الصلوات الاعتياديّة، وتنزل به الحُمَّى الاعتياديّة، ويتشاجر مع أُمِّي اعتياديّاً، ناهيكَ بالمآسي الاعتياديّة. لكنّه

كان يتجاوز كلَّ شيء، ويعود ليعمل أكثر من ذي قبل، يومَيْن أو ثلاثة أيَّام متواصلة بلا انقطاع أبداً. كان ربُّ عمله، السيِّدُ ذو «القبَّعة»، دوناتو موريلّي، يسمِّيه البغل.

أُمِّي على العكس تماماً، خُلقَت من أجل الغاب وجبل سيلا، حيث عاشت حتَّى زواجها. «مَنْ أراد أن يظلَّ غنمةً أكلتْهُ الذئاب» كانت تقول، مع أنّني ما تعلَّمتُ الهربَ إلَّا بالنظر إلى عينَيْها الوديعتَيْن وهي تنسج تنانير الكرينولين وقماش الموسول الهنديّ لربَّة عملها، الكونتيسة غولّو. كانت ترى العالم والنظام مجرَّد أشياء لا يعترف بها الغاب، فالكلُّ له قلبٌ غامضٌ يذبل كعنب الكشمش. كانت صموتة، وتؤمن بأنّ اللهَ انتقامٌ للطيِّبين، بعد الممات. وعندما كنَّا نلعب لعبة الأشجار المفضَّلة، كانت تختار الشوح الأبيض دوماً، تلك الشجرة التي لا ترى الضوء طوال حياتها، ذات اللحاء الطريّ والرطب الذي لا يصلح للتدفئة في الشتاء.

أمَّا أبي، فكان يفضِّل الصنوبرة الأرزيّة المتينة التي تُصنَع من أخشابها البيوتُ والأغراضُ التي يصعب على الزمن إتلافها، مثل عزبة آل موريلّي. وكان يرى أنّ الكلمات لا بدَّ أن تكون كثيرة، فهذا هو الشيء الوحيد الذي تبقَّى لديه من حياة الثراء التي يحسد الأسيادَ عليها. «الفولاذ» كان يقول، ويتذوَّق رنين الكلمة في فمه. كنتُ أنظر إليه خُلْسَةً، وأحاول أن أفهم سرَّ تلك الكلمة التي تُزيغ عينَيْه من النشوة. كان يحلم برؤية الطريق الحديديّ ممتدَّاً بين نابولي وبورتيتشي، الذي يسمُّونه «السكَّة الحديد»، وكان يحلف بأنّها ستصل يوماً ما حتَّى ريجّو كالابريا، ومصانع نابولي، ومعامل الحرير، ومنشآت التعدين في مونجانا وفيرديناندِيا. فهذه الأشياء تستر تخلُّفَ المملكة. «الفولاذ». وهكذا، في كلِّ مساء، كان والدي يغفو حالماً بثرواتٍ لم يحصل عليها إطلاقاً.

2

كانت والدتي تنغلق على نفسها الوقت كلّه في البيت لتنسج، فيما كنتُ أقضي أيَّام ذلك الربيع وأنا آمل عدم وصول برقيَّات من نابولي من أجل التبنِّي، وأراقب أصابعها الرفيعة كيف تنقبض وهي تغزل التطريزات لمصنع منسوجات غولّو. كانت تُبقي ذراعَيْها ثابتَتَيْن، بينما تحرِّك يدَيْها، وتدوِّر معصمَيْها، بسرعةٍ مَهُولَة.

وكانت منسوجات غولّو مشهورةً في المملكة، ليس في كالابريا فحسب، إنّما في بيوت أثرياء نابولي أيضاً، ويقال إنّ ماريّا تيريزا شخصيّاً – تيتلّا، هكذا كنّا نُلقِّب تلك الملكة النمساويّة الطيِّبة، في حين كنّا نحقد على الزوجة السافويّة الأولى للملك – تحتفظ في بلاط كازيرتا بأبهى منسوجاتها، دون حتّى أن تتخيَّل احديداب الظهور، وتشنُّج الأصابع، وإعماء العيون في حياكتها. كنتُ أتصوَّر أُمِّي المستقبليّة – طويلةً وشقراء، في منتهى الجمال – ترتدي تلك الأقمشة الزاهية التي تكدُّ والدتي في العمل عليها.

«تعالي إلى هنا، وتعلَّمي» تقول «بدلاً من الوقوف متحجِّرةً هناك».

لكنّي كنتُ أهرب. كنتُ أحبُّها عندما تصحبني للمشي في الجبل، أُحبُّها عندما تتحوَّل في الضيعة مسقط رأسها، حيث تمازح الحطّابين والرعاة؛ لكنّي لا أُحبُّها عندما تنغلق على نفسها في البيت، صموتةً

منحنيةَ الظهر، حيث تعبس عيناها، وتصبحان شرِّيرتَيْن بسبب شحِّ الضوء، فتُحدِّقان إليَّ بلا رونقٍ وتبثّان فيَّ الرعب.

كانت التصاميم التي تنسجها تصل مصفوفةً ومَطويَّةً في علبٍ كرتونيّة خفيضةٍ رمليّةِ اللون، وعليها شعار غولّو بخطٍّ منمَّقٍ ونافر، وكنتُ وأختي ڤنشنزا نستخدمها فيما بعد لنُخبِّئ فيها أسرارنا وكنوزنا: أزرارٌ متفرِّقة، حصى مكوَّرة نلعب بها النرد، أشرطةٌ ملوَّنة. وكان شقيقنا رافّايلي، كلَّما أنجزت أُمُّنا عملاً، جمع تلك الكراتين وصنع منها مناطيدَ. كان يمزِّق القطعة الكبرى المفتوحة، ويتتبَّعُ انحناءاتها حتَّى يستخرج منها كثيراً من القطع المربَّعة، ثمَّ يضع أصابعه في يدَيْه ويُصفِّر.

«والآن سنُطيِّرها» يصيح، ويجمعنا كلّنا.

«دعني أحاول» يقول سالڤو في كلِّ مرَّة، ولكنْ، لا مناص، فاللعبة من اختصاص رافّايلي.

كان يشكِّل بتلك القِطَع الخفيفة قروناً، رؤوسها إلى الأعلى، ويكوي قواعدها بجمرةٍ يلتقطها من المدفأة. وبينما تشيط القطعة بالنار، وترتفع تلك التصاميم معاً نحو السقف، نهيم اندهاشاً، ونحلم أنّنا بتنا جسيماتٍ صغيرة، نطير معها، فتحملنا وتأخذنا إلى مكانٍ آخر، أينما كان، بعيداً عن كازولي.

وكانت أُمُّنا تلتزم الصمت وتنظر إلينا.

ثمَّ تفتح النافذة، وتُطلُّ برأسها لتبحث عن رائحة الثلج الآتية من جبل بوتيّ دوناتو، مثل كلب الصيد، أو مثلما يبحث الزرياب عن الماء. لا تفوح تلك الرائحة إلَّا في الشتاء، عندما يكسو الثلجُ القممَ، فكنتُ كذلك أستنشق بقوَّةٍ ذلك الهواءَ الباردَ الذي يلفح الأنف ويملأ الرئتَيْن.

لكنّ والدتي تبقى هناك، ترنو إلى الخارج. ليس اشتياقاً، مع أنّني فهمتُها بعد أعوامٍ طويلة، عندما قصدتُ إلى الجبال أنا أيضاً: إنّما هو نداءٌ من حياةٍ أخرى.

في شهر مارس يُذبَح الخنزير، وكنّا من عوائل العمّال القليلة التي تحظى بواحدٍ منه، مَكرُمَةً من السيِّد الذي يعمل والدي لمصلحته. وفي أواخر موسم البرد القارس، تُصَدِّر الأريافُ صيحات الفزع المروِّع التي تُطلقها تلك الحيوانات المسكينة، فأسدُّ أُذُنيَّ لئلّا أسمعها. وفي اليوم الذي يُذبَحُ فيه خنزيرنا كانت والدتي أيضاً تذهب إلى عزبة الكونت دوناتو موريلّي، لكي تقف على التقطيع، ويوصيها والدي بأن ترتدي الملابس الجديدة. فتتأفَّف، وتتظاهر بأنّ الأمر لا يهمُّها، غير أنّه من الواضح في ذلك اليوم على الأقلّ بأنّها تودُّ التأنُّق مثل سيِّدة.

«أريد أن آتيَ أنا أيضاً» أبكي عالياً. كنتُ أرغب في سماع تلك الصرخات، على الرغم من أنّها تُرعبني.

«المشهد مخيف» تجيبني «من الأفضل أن تُلازمي البيت عنه. ستأتين في العام القادم، إذ ستصبحين أكبر» كانت تردِّد في كلِّ عام.

وكالعادة أحيينا حفلةً كبيرة، وتناولنا الدماغ المقليَّ بالبطاطس والفليفلة اليابسة. وكان أهالي البلدة يمرُّون أمام بابنا ويتحسَّرون: «منحوسٌ مَنْ لا يذبح خنزيراً ولا يتذوَّق النقانق»، فتنتزع أُمِّي من عوارض السقف فخذاً مقدَّداً علَّقتْهُ هناك لتعتيقه، أو تجتزئ شريحةً من سجق الإندوجا وتهديه للسائل. لكنّها في ظهيرة يومٍ من أواخر مارس 1848 قالت إنّها ستنتهز الجولة الشهريّة التي تجريها سيِّدتُها الكونتيسة غولّو على بيوت نسَّاجاتها، لتتحدَّث إليها. غدت والدتي قبل ذلك بأيَّامٍ

غريبةَ الطبع، متوتِّرة، من الواضح أنّها تخفي خطباً جَلَلاً، فعندما تصبح هكذا تكفُّ حتَّى عن تناول الطعام.

اعتادت الكونتيسة غولّو المجيء بما يميِّز السيِّدات المتنفِّذات، متبوعةً بحاشيةٍ من الخَدَم، لكنّها يومئذ جاءت بمفردها، ملفَّعةَ الرأس، شاحبةً كالشمع، والقلق منقوشٌ على وجهها. إلّا أنّ الكونتيسة كانت طيِّبة القلب في الحقيقة، على الرغم من تلك الهيئة المنفِّرة: فهي لبراليّةٌ بالفعل، وهذا ما يجعلها السيِّدة الوحيدة التي تجرؤ على الذهاب إلى بيوت نسَّاجاتها، والتعامل معنا بلطف. أمَّا في نظر «القبَّعات» البوربون، فنحن لسنا سوى أغبياء، يُلقِّبوننا أفظاظاً، ويتكبَّرون علينا لمجرَّد أنّهم يتقدَّموننا ببضعة أعوامٍ في المدرسة. لكنّهم يعلمون أنّ لنا رؤوساً تفكِّر وكيف لا، سوى أنّه ينبغي لنا إبقاء ألسنتنا في أفواهنا، لكي يصدِّقوا بأنّهم أذكى منَّا. وهكذا يمرُّ ذوو القبّعات، ولا يتصدَّقون علينا حتَّى بنظرة ويعودون إلى قصورهم سعداء. بخلاف اللبراليِّيْن الذين سرعان ما تتعرَّف إليهم: هم الأثرياء الذين يحيّونكَ بتلويحة، ويبتسمون في وجهكَ ويُشعِرُونكَ بأنّكَ مثلهم أو تكاد.

غير أنّ الكونتيسة غولّو بدت مذعورةً يومها. دخلت وهي ترتجف كُلِّيّاً، فأجلستْها أُمِّي على الأريكة، وحملت إليها فنجاناً من الحليب الساخن والعسل، كما لو أنّها إحدى قريباتها. والحقُّ أنّ الإعدامات كانت قد بدأت منذ أسابيع. نُفِّذَت ثلاثةٌ منها، في الميدان، في روليانو، البلدة القريبة من كازولي. صُدِمنا جميعاً بذلك، أمَّا اللبراليّون الأثرياء، فقد انتابهم الفزع: للمرَّة الأولى، خاف هؤلاء أيضاً من الموت. أقبل عناصر الحرس الوطنيّ، ألقوا القبض على ثلاثة لبراليِّيْن متَّهمين بتدبير مؤامرة ضدَّ الملك، وأعدموهم رمياً بالرصاص، على مَرأى الجميع، بلا قضيَّة، بلا

محاكمة. سقط هؤلاء وتدحرجت قبَّعاتهم الأُسطوانيَّة على الأرض، وسط هلع المتجمهرين وصراخهم. ولم يكتفِ الحرس بالقتل، بل مشَّطوا البيوت بيتاً تلو بيت، بحثاً عن ثوريِّيْن لتسجيل أسمائهم في قائمة «المرصودين»، المراقَبين الذين يفقدون حقوقهم المدنيّة وتلك السياسيّة. فإذا سُجِّلَ اسم أحد الأشراف قُضِيَ على أمره، وبات منبوذاً، كأنّه ميّت. وإذا حاول أن يتمرَّد، أو ارتكب فعلةً ما، عاد الحرس وزجُّوه بالسجن. أو أعدموه. شاعت الحكاياتُ عن لافوسّا، السجن في حصن سانتا كاترينا، في جزيرة فاڤنيانا، في صِقلِّيَة. ذلك المكان المرعب. قيل إنّ «الداخل إلى سجن سانتا كاترينا بلسانه يخرج منه أبكمَ»، أو ميّتاً. وهكذا اضطرَّ كثيرٌ من القبَّعات، في تلك الأيَّام، إلى حزم أمتعتهم خُلْسَةً ومغادرة المملكة. من أجل الهجرة، ربمَّا نحو البلد العدوّ دفعةً واحدة: پيمونته.

رمقت أُمِّي الكونتيسة وراودها الذعر: «و... أنتم أيضاً ...» قالت بارتباك. فقد تخسر عملها إذا أُرغِمَ آل غولّو على الفِرَار. لكنّ الكونتيسة هزَّت رأسها نافيةً.

«لا، لا» قالت، ولوَّحت بيدها المرتجفة «لن نرحل. لن نرمي مئةَ عامٍ من الإنتاج في مهبِّ الريح. إنّما ينبغي أن نُبقيَ أعيننا متيقِّظة. اليوم أكثر من أيِّ وقتٍ مضى».

ثمَّ نظرت حولها، كما لو أنّ في البيت مَنْ يسمعها غيرنا. «علينا أن نُطلق شرارة الثورة هنا» تابعت، بصوتٍ خفيض، مشيرةً إلينا، إلى الحيطان الرطبة والأثاث القليل «أنتم العمَّال ونحن الأسياد. يداً واحدة. علينا أن نطرد الملك فرديناندو لنبنيَ بلداً جديداً، إيطاليا موحَّدة وعادلة، لا مكان فيها لبغي البوربون، نبنيها مع ملكٍ جديد». كانت تقصد الملك الذي يتحدَّث الفرنسيّة رغم كونه إيطاليّاً، ملك الشَّمَال،

كارلو ألبرتو دي سافويا. لكنّنا لم نكن نُحبُّ ذلك الملك أكثر من الملك الذي عندنا، لأنّه علاوةً على لامبالاته بالعمّال كان عدوّاً للمملكة، ما يعني أنّه عدوٌّ لنا أيضاً.

ابتسمت أُمّي واطمأنّت. وبعد أن هدأ روع الكونتيسة قليلاً، نهضت أُمّي وأخرجتْنا.

«اذهبوا للتنزُّه في الساحة» أمرتْنا. أرادت انتهاز وجود الكونتيسة، وهكذا كانت ستفعل، بإعداماتٍ أم بغير إعدامات، هبَّت رياح التغيير أم لم تهبّ.

وسرعان ما أدركتُ بأنّ شيئاً ليس على ما يرام، وراودتْ ذهني تلك البرقيَّةُ التي لم تصل بعد، فشبكتُ ذراعَيَّ. نظر سالفو إليَّ وفعل مثلي. لن نستسلم لها بسهولة، قد نحصل على حصَّتنا بفضل ذلك الموقف على الأقلّ.

«ملاعين!» صاحت أُمّي. ذهبت خلف الستارة، وفتحت أحد الأدراج المحظورة وخرجت بنقود تورنيسيّة. لم نكن نرى النقود قطُّ، ما جعلنا لا نصدِّق ما نرى.

«خذوا، اذهبوا لدى طونيو لشراء السكاكر» قالت.

طونيو جارنا وصاحب الدكّانة كذلك. له ابنةٌ تُدعى كارميلينا، من عمر سالفو ومصابة بشلل الأطفال منذ أن كانت في ربيعها الثاني، حيث «ذُلَّت ساقها» مثلما كانت تقول بمقلَتَيْن دامعَتَيْن، إذ اعوجَّت قدمها فجأة ذات ليلة؛ لكنّها بعد انقضاء الألم ورغم كلِّ شيء ما انفكّت تتردَّد إلينا للعب بالورقة والمقصِّ وتلوين حصى الساقية رُفْقة شقيقها جوفانّي. وكنتُ في البدء أحاول تجاهل تلك القَدَم الغريبة جدّاً، ثمَّ

ما عدتُ أعير لها بالاً. لكنّها بعد عدَّة أعوام، حينما تدبَّر والدها نقوداً لمعالجتها في نابولي، عادت بساقٍ أقصر من الأخرى، ولم تعد تأتي إلى منزلنا، لأنّها تخجل من تلك الساق التي لم تعد تعتبرها خاصَّتها.

ألقيتُ نظرة إلى النافذة قبل أن نخرج والنقود في جيوبنا. كانت نصف مفتوحة لحسن الحظّ.

استدرنا حول المنزل.

كنَّا سنتَّجه إلى طونيو لشراء السكاكر مرَّةً أخرى. ولم نكن لنُفوِّت على أنفسنا تلك المحادثة مقابل أيِّ شيء في الدنيا.

تسلَّقتُ حتَّى رفّ النافذة، وأصختُ السمع، بينما ساعدني سالڤو على إسناد قدَمَيَّ على طوبَيْن نافرَيْن، وكانت القدِّيسة مارينا الراهبة تنظر إليَّ بحزم. اتّجَهت أُمِّي إلى الدُّرج، وأخرجت أوراقاً من مظروف. رسالة. وسرعان ما ذُعِرتُ وفكَّرتُ بالكونت تومّازو، النابوليّ، والتبنِّي، وتلك القصَّة كلّها التي أسعى لنسيانها دوماً.

شدَّ سالڤو وڤنشنزا تنُّورتي من الأسفل مراراً.

كانت والدتي تجيد قراءة بضع كلمات، بشقِّ الأنفس، لكنّ قراءةَ رسالة بأكملها أمرٌ يفوق إمكانيَّاتها. كما أنّ عينَيْها من كثرة الخياطة كانتا «تتآكلان» على حَدِّ وصفها، ما يزيد الأمر مشقَّةً عليها.

«عمَّ يتحدَّثان؟» ما زالت ڤنشنزا تسأل.

«ششش».

«ماري؟ عمَّ يتحدَّثان؟» شدَّني سالڤو.

«اصمتا!»

كنتُ مأخوذةً كُلِّيّاً بالإصغاء إلى صوت السيِّدة وهي تقرأ تلك الأوراق.

«ماريّا».

بقيتُ ثابتةً طويلاً، بينما كان وجه الكونتيسة غولّو يزداد وجوماً. ثمَّ تجمَّدت دمائي.

«ماريّا!»

وحينها التفتُّ إلى الأسفل.

«يتحدَّثان عن ت ... تيريزا» تأتأتُ. لكنّهما تحدَّثتا بشأني أيضاً، وما كان بإمكاني إخبار شقيقيَّ بذلك.

«تيريزا مَنْ؟» سألني سالقو مع أنّه كان يعرف الإجابة.

«تيريزا أختنا» قلتُ.

لجأنا إلى القصر البلديِّ عوضاً عن الذهاب إلى طونيو. في الخارج تنتظر عرباتٌ أنيقةٌ مربوطةٌ بخيولٍ كالابريّة ضخمة، على أعينها غماماتٌ مثل راكبيها الذين يتجوَّلون بالجُبَّة المذيَّلة والصدرة لاستعراض قبَّعاتهم الأُسطوانيّة الجديدة. على أنّ هناك سياجَيْن كبيرَيْن من أجمات الدودونيا نعرفهما جيِّداً، حيث فتح أحدهم فيهما منفذاً في الماضي. بإمكاننا الزحف إلى الداخل، فالجوف واسع، ويمكن استخدامه مأوىً.

ثلاثة عشر عاماً مضت، قبل أن تُتمَّ شقيقتي عامها السادس، تبنَّاها الأقارب الكامبانيّون لأسياد الأراضي التي يعمل فيها والدي، هم فرعٌ من آل موريلّي، نبلاءٌ ومُلَّاكٌ كبارٌ بحوزتهم كلّ شيء، لكنّهم عاجزون عن الإنجاب. ولم يخيِّروا والدي، إنّما ابتزُّوه: إن أراد الاستمرار في العمل لدى

الدون دوناتو فلا بدَّ له من منح ابنته لقريبه تومّازو، وإلَّا خسر العمل، ومن دون العمل لن يستطيع إعالة أسرته. كان سينجب ثلاثة أبناء لاحقاً، أمَّا العمل، فكان سيخسره حتماً.

وهكذا منح أبي وأُمِّي له تلك الابنة. وبالمقابل، تعهَّدَ الأبوان المتبنِّيان أنّ يتكفَّلا بتدريسها والاعتناء بها ريثما تتزوَّج. وكانوا يرسلون لنا خنزيراً في كلِّ عام، دلالةً على امتنانهم.

«لحسن الحظِّ» كان سالڤو يقول «وإلَّا تردَّى وضعنا حتَّى الموت جوعاً».

بيد أنّ الكونت تومّازو موريلّي هذا – تابعت الكونتيسة غولّو وهي تقرأ الرسالة المكتوبة بخطِّ أحد النبلاء المقرَّبين من آل موريلّي – كان بوربونيّاً حتَّى النخاع، «محافِظٌ، أي أنّه يريد للأشياء أن تظلَّ على حالها، وأن يلقى الفقراء حتفهم في العمل، وأن يبقوا بلا حقوق، تحت وطأة الظلم، والأجور التي يحدِّدونها لهم والساعات التي يفرضونها عليهم» أضافت سيِّدة والدتي من عندها. يا له من مكانٍ، ذاك الذي يريد والداي إرسالي إليه، فكَّرتُ في سرِّي.

أمَّا آل غولّو، اللبراليّون، فكانوا على النقيض: يعلمون أنّ رياح التغيير هبَّت من الشَّمَال إلى الجنوب، رياح الحُرِّيَّة؛ يعلمون بأنّ المملكة سنَّت الدستور، وافتتحت البرلمان، وأنّ الملك يفقد صلاحيّاته وأنّ الشعب يكسبها، وأنّ هذا ما سبَّبَ حملات المداهمة والإعدامات الميدانيّة والزجّ بالمعتقلات. كانت الكونتيسة غولّو تعلم أنّ صِقلِّيَة أعلنت استقلالها، وأنّ ميلانو عاشت خمسة أيَّام مهيبةٍ حتَّى النساءُ امتشقنَ فيها السلاحَ لدحر النمساويِّينْ، والهتاف بأعلى صوت، مثلما حدث في فرنسا، «الحُرِّيَّة للشعب!»، وقد اعتمر خلالها الرجالُ السدارةَ المدبَّبة، مثل سدارتنا، ليُثبِتوا للغزاة النمساويِّينْ أنّ إيطاليا كلَّها تقف إلى جانب

ثورتهم. بل حتَّى في نابولي، قالت الكونتيسة بمزيجٍ من الفرح والقلق، عانق الشبَّانُ البنادقَ في وجه الملك البوربونيّ.

«هذا صحيح بالأحوال كلّها» قال سالڤو «أنا كذلك قرأتُ الخبر، عند الحلاّق توسكا».

«ما الصحيح؟» سألتُهُ.

«ألصق جوفانّينو توسكا داخل إحدى الخزانات قصاصةً من جريدة تسمَّى «قنديل الزيت»، إن وقعت بين أيدي الحرس الوطنيّ اغتالوه. لكنّ الجميع يعلم بوجودها، ويقفون بالطابور لقراءة تلك الصفحة».

«وما المكتوب في تلك الصفحة؟» سألتْهُ ڤنشنزينا.

«دوَّت الكلمة. الكلمة التي ستعتق الأمَّة أسمعَتْ صوتَها! الدستور» ردَّد سالڤو كالببغاء، من دون حتَّى أن يفهم جيِّداً ما الذي تعنيه تلك الكلمة «لكنّ رافّايلي يقول إنّها صارت بالية، ولم تعد تصلح، وإنّ الملك ابتلعها مثلما كان قد لفظها».

وكان الكونت تومّازو والكونتيسة روزانّا، اللذان تبنَّيا تيريزا، قد اتَّجها بالفعل من بونتلاندولفو، حيث يعيشان إلى نابولي في مارس المنصرم، حالما وصلهما نبأ افتتاح البرلمان، للاجتماع بالملك فرديناندو، صديق الكونت إبَّان الطفولة، على عدَّة لقاءات. كانا يريدان تعزيز مصالحهما قبل إنفاذ الدستور، ما دام أنّ اللبراليِّيْن كانوا يُدبِّرون لتجريد البوربونيِّيْن من امتيازاتهم التي لطالما تمتَّعوا بها. أكثر من ذلك - تقول الرسالة - أكَّدا أنّهما سيكونان مسرورَيْن لو تبنَّياني أنا أيضاً، شقيقة تيريزا الصغرى، وكانا ينتظران موعداً مناسباً للإتيان بي إلى نابولي، ومِن ثمَّ اصطحابي إلى قصرهما في بونتلاندولفو. رمت الكونتيسة غولّو

والدتي إذ ذاك بنظرةٍ استجوابيّة. «أهذا صحيح؟» سألتْها. أومأت أُمِّي، وانفجر شيءٌ مّا في صدري.

ولكنْ، في الخامس عشر من مارس، عندما توجَّبَ على البرلمان الجديد افتتاح جلساته، رفض الملك التوقيع على الدستور. مجرَّد تمثيليّة، علَّقت سيِّدة أُمِّي، لم يكن لدى الملك أيُّ نيَّة لافتتاح البرلمان والتنازل عن سلطاته. وهكذا، بعد سويعات، تدفَّق شبَّان نابولي إلى الطُّرُقات واندلعت المواجهات التي تواصلت طوال الليل. وعند الفجر، إذ أطلَّ تومّازو وروزانّا موريلّي من إحدى النوافذ، أدركا ما الذي وقع: المدينة تحترق. وما كان لديهما من خيار، لا بدَّ من العودة إلى البلاط في أقرب وقت ممكن، لا بدَّ أن يعرفا ما الذي سيحلُّ بهما وبالبوربون. إلَّا أنّ الوضع في طُرُقات نابولي كان أسوأ ممَّا تخيَّلا. وجدا أنفسهما محاصَرَيْن بين متاريس شارع طليطلة والمتاريس الأعلى منها في شارع سانتا بريجيدا، كما أنّ الطُّرُقات الجانبيّة مغلقة. وبعد ثمان ساعات من تراشق الرصاص، جُنَّت الطلقةُ الحاسمة. أحسَّ الكونت تومّازو بشرخٍ مباغتٍ في عنقه، ثمَّ على ساقه: رصاص. انحنت زوجته عليه وهو يسقط، فأُصيبت بظهرها، وخاصرتها ورأسها.

لقي متبنِّياي مصرعهما، فكَّرتُ. اجتاحني حزنٌ عميم، ما عاد باستطاعة أحدٍ أن يحملني بعيداً عن كازولي. ظلَّت الجثَّتان يوماً كاملاً في شارع نابولي ذاك، صريعتَيْن برصاص الشباب المتمرِّدين. أضرمت «الفوضى الضارية» النارَ في قلوب المضطهدين النابوليِّيْن مثلما يقذف بركانُ الفيزوف الحممَ، قالت الكونتيسة غولّو. وبسبب تلك الفوضى الضارية فقدت تيريزا آنذاك أبوَيْها، وما عاد يحقُّ لها البقاء في بونتلاندولفو، عليها أن تتخلَّى عن الثراء الباذخ، عليها أن تنسى الشابَّ الذي كان لها أن تتزوَّجه. عادت فقيرةً في غمضة عين مثلما كانت من قبل، ابنة لا أحد مثلنا، ولم يعد يبتغي الاقتران بها.

«تركوها على قارعة الطريق» قالت الكونتيسة غولّو وهي تهزُّ رأسها «هؤلاء البوربون الملاعين. وأنتم، كنتُم تريدون إعطاءهم ابنتكم الأخرى أيضاً؟ «مقابل أعطية شهريّة محدودة ...»» قرأت بينما اصفرَّ وجه أُمِّي «كفى. أملاكهم كلُّها، الآن وقد رحلوا إلى العالم الآخر، صارت من نصيب أقاربهم من آل موريلّي. وابنتكم تيريزا، تماماً مثلما أعطيتُمُوها لهم، ستسترجعونها الآن».

كنَّا في جوف السياج مغمورين برائحة الدودونيا. لم أكن سأذهب إلى شقيقتي، إنّما هي التي ستعود إلينا. شعرتُ أنّي تعرَّضتُ للغدر والهجران، رغم أنّ أحداً لن يأخذني معه أبداً. كان إخوتي معي، سالڤو يلاعب دعسوقة حينها.

«هذا يعني أنّها هي ... التي ستأتي؟» سأل بعد قليل، وهو يرفع الحشرة الصغيرة على كفِّه ويُنزِّلها كما لو أنّ المسألة لا تخصُّه.

«أجل».

«وكم عُمُرها؟»

«تسعة عشر».

كان عُمُري سبعة أعوام، وهو عشرة.

ڤنتشنزا أربعة. «هلَّا ذهبنا إلى طونيو لشراء السكاكر؟» سألت بصوتها الناعم.

«كلَّا» أجبنا بصوت واحد، أنا وسالڤو. مَنْ يدري كيف أدركنا أنّ حيواتنا، بوجود تلك الأخت المجهولة، لن تبقى على حالها أبداً؟

3

بعد أسابيع، وصلت تيريزا إلى كازولي، يرافقها رجلان، على متن المركبة العموميّة المحمَّلة بالحقائب، آتيةً من كوزينتزا.

وكان والدي، الذي لا يعرف الراحة، قد طلب من الكونت موريلّي إجازةً صباحيّة، وانتهى من فلق الحطب المتكدِّس خارجاً، تحت السقيفة حيث كان يضعه لتجفيفه بالشمس. لم تكن السعادة تبدو عليه إلَّا حين يعمل على الحطب: كان يُخرِج الفأس من رفٍّ خفيٍّ داخل الخِوان، ويترك فيه دفتراً صغيراً من بضع صفحات، يحمله معه دوماً، وينزع سترته، ويطلب من رافّايلي وسالڤو أن يساعداه على نقل جذع الأرزيّة من خلف الستارة إلى الخارج، ومِن ثمَّ يخرج. كان يحتفظ في الخِوان بصرَّةٍ مليئة بالتراب الذي جمعه ذات يوم من أراضي آل موريلّي. حَفْنَةٌ من تربة خصبةٍ وداكنة. «لن أملك في حياتي إلَّا هذا المقدار» يقول، وفي كلِّ مرَّةٍ يتهيَّأ لفلق الحطب، يتحقَّق من أنّ الصرَّة ما تزال في مكانها.

عندما عرفنا أنا وڤنشنزا بوصول المركبة، ركضنا لملاقاتها. حتَّى كارميلينا التي لا تفارق عتبة بيتها لحقت بنا وهي تجرجر قدمها المعطوبة.

نزلت تيريزا مثل الأميرة، أو مثل الكونتيسة التي اعتادت أن تكون

عليها، ففغرنا أفواهنا من الدهشة. تبادلنا النظرات أنا وڤنشنزا: كانت ترتدي تنُّورةً فيروزيّة متموِّجة، مبطَّنةً بهيكل الكرينولين ومطرَّزةً بقماشة التُّلِّ، وصدريّةً من الساتان المزركش، وقبَّعةً كبيرة مزدانة بالريش. لم نتصوَّرها بهذا المستوى من الأناقة، في أعتى شطحات خيالنا. كان مرافقاها المهيبان يفرِّغان أمتعتها من العربة، بينما تسمَّرَ الجميع ينظر إليها. لم تشهد كازولي في تاريخها هذه الحقائب كلَّها، وهذا الثراء كلَّه، ولم يرَ أيٌّ من أهاليها في حياته تلك الطريقة الراقية في المشي.

وما لبث أن تشكَّلَ موكبٌ خلال الطريق من الساحة إلى البيت، يسير خلف تلك الأجنبيّة التي جاءت من المدينة. والناس يغمغمون: «لقد عادت السيِّدة ...»، «صحيحٌ إذاً أنّ ابنة الطيِّب أوليڤيريو هذه موجودة ...!»، «ما هذا الذي أرى ...؟»، «ألم تمت ...؟»، «يا لها من منعَّمة ...!»، «هذا هو المال!».

«تيريزا!» ناديتُها من بعيد. كانت امرأةً ناضجة حقّاً لا صبيَّةً مثلما تخيَّلتُها، ولا حتَّى شبحاً مثلما حلمتُ بها أحياناً، مع أنّ وجهها يغصُّ بالمساحيق، والخمار يغطِّي عينَيْها. «نحن ماريّا وڤنشنزا».

لكنّ شقيقتنا لم تلتفت.

«تيريزا، نحن هنا. نحن ماريّا وڤنشنزا!» قلتُ بقوَّة، محاوِلةً رفع صوتي فوق الهمهمة. لكنّ تلك المرأة الآتية من المدينة ما زالت تنظر إلى الأمام، كما لو أنّها صمَّاء. فشققْنا طريقنا بين المحتشدين، واقتربنا منها.

«تيريزا، نحن أختاكِ» قلتُ، على بُعد خطوَتَيْن منها.

فانتبهتْ لوجودنا حينذاك، لكنّها لم تلتفتْ إلَّا قليلاً. شزرتْ إلينا بطرف العين، كأنّها لا ترغب في رؤيتنا.

«أنا ابنةٌ وحيدة» قالت فجأة، باللُّكْنَة الكامبانيّة. وسرعان ما علت الضجَّة مجدَّداً: «أرأيتَ ما يفعله المال؟»، «لا تشبه إخوتها حتَّى ...»، «هاتان ليستا أختَيْها، إنّما خادمتاها ...»، «مَن يدري ما الذي جاءت لتفعله هنا؟». ثمَّ استأنفت تلك المرأة المشي، كأنّ شيئاً لم يكن، ولم تحد أنظارها عن الأرض وهي تتبع بعض أهل البلدة الذين سيرافقونها نحو البيت.

كانت والدتي بانتظارها واقفةً أمام الباب وأنجلو الصغير بين ذراعَيْها، ورافّايلي وسالڤو يتحلّقان حولها.

وعندما وصلت شقيقتي، أبعدت أُمِّي الفضوليِّيْن، وأدخلتْها بالنبرة نفسها التي تستخدمها مع الكونتيسة غولّو.

«تفضَّلوا، تفضَّلوا» تقول بنبرةٍ أحلى من السُّكَّر، وتخاطب ابنتها بصيغة التعظيم.

همست تيريزا بكلمتَيْن لمرافقَيْها اللذَيْن أدخلا الحقائب إلى البيت بعُجَالة. ثمَّ أومأ كلٌّ منهما برأسه، ومن دون أن ينطقا بكلمةٍ عادا إلى العربة التي سترجع بهما من حيث قَدِما.

نزعت أُمِّي لوازم الخياطة مِن على الأريكة، ورتَّبت على الطاولة القوارير كلَّها التي كانت في بيتنا، بما فيها قوارير العَرَق وعصير العنب، ووضعت طبقَيْن رائعَيْن، فيهما السكاكر وحلوى الشيشراتا والسكاليلا بالعسل التي حضَّرها طونيو بالفرن، وجلبتْها كارميلينا ساخنةً ذلك الصباح.

«شكراً» اكتفت شقيقتي بتلك الكلمة، ولم تعد تتكلَّم. بقيت متحجِّرةً مضمومة الذراعَيْن لا تنبس بكلمة. كانت غريبة الأطوار، بل

في منتهى الغرابة. وكنّا نحن إخوتها نتبادل النظرات، ونفكِّر في الأمر ذاته: «ما بها، ألَا تتكلّم؟»، «ليست لطيفة على الإطلاق ...».

لم تشأ الجلوس على الأريكة، ولا إلى المائدة، إنمّا استرخت على كرسيٍّ منعزل في الزاوية، تحملق في الأرض، وتتظاهر أنّها لا تنتبه لوجودنا. تركت على الأريكة قبَّعتها التي تنتأ عنها ريشة النعام الطويلة والهزليّة.

«هل توقَّفتُم بالرحلة؟» سألتْها أُمِّي، الحائرة مثلنا «هل كانت شاقَّة؟ هل أنتم جائعة؟ لا بدَّ أنّكم عطشانة ...» لكنّها لم تفتح فمها، وما انفكَّت تنظر إلى الأمام، كأنّها غائبة عن الوعي. لقد تخيَّلتُ وقنشنزا كلَّ شيء عدا أن تكون شقيقتنا الثريّة شبه خرساء.

أعدَّت أُمِّي صحناً من الحلويات وكأساً من عصير العنب، ووضعتْهما على الخِوان، من الجانب الذي جلست فيه أختي. لكنّها ما زالت متحجِّرةً ترمق الحقائب بعينَيْن ملؤهما أسىً.

كنتُ وإخوتي واقفَيْن إلى الحائط كالتماثيل الصغيرة، لا جرأة لدينا حتَّى لنتحرَّك، مثل أربعة أغبياء. خلافاً لوالدتي التي لم تهمد لوهلة، تحمل أنجلينو بين ذراعَيْها وهو يبكي بشدَّة كاليائسين. تجيء وتغدو، تُطبطب على حفَّاضه، فيحتدُّ نحيبه، ليزيد من ذلك اللقاء الأوَّل بؤساً.

ورغم هذا كلِّه، كنتُ أنظر إلى تلك الأخت من بعيد، فتبدو لي مختلفةً عنِّي كثيراً، ومتفوِّقة، وأُقدِّرها في سرِّي. فهي التي كنتُ سأعيش معها لو لم يلقَ متبنِّياي مصرعهما، معها فقط، وربَّما كانت ستعاملني بودٍّ، وتتحدَّث إليَّ أيضاً. تيريزا تشبه أبي، بالنظر إليها جيِّداً، بعكسي أنا التي كنتُ أبدو نسخةً عن أُمِّي. فهي قصيرة وسمراء البشرة وداكنة

الشَّعْر، جبينها ضيِّقٌ وعيناها غائرتان ومتَّقدتان كالحيوان المفترس. أمَّا أنا، فقد ورثتُ شَعْر أُمِّي الكستنائيّ، وقامتها الفارعة، وعينَيْها البنِّيَّتَيْن والدامعَتَيْن، ورموشها الطويلة، وكنتُ أرتدي قميصاً باهت اللون كان لخالتي مادّالينا وربَّما لبسته أُمِّي أيضاً. غيَّرت تيريزا ثيابها خلف الستارة، وعادت بلباسٍ سماويٍّ من حرير التفتا المزركش الذي لم أره إلَّا في بعض الصور، بنظرة خاطفة من على باب العارضة الوحيدة في كازولي، المرأة الوقحة والوحدانيّة التي تتَّجه إلى كاتانزارو مرَّةً في الشهر. وما زالت تيريزا تنتعل جزمة بيضاء من جِلْدٍ لامع وكعبٍ رقيق، بدت لي في غاية الجمال. «تأمل المغادرة في أقرب وقت» همس سالڤو في أُذُني، وقد انحنى قليلاً وما زال مستنداً إلى الحائط «لم تخلع حتَّى حذاءها».

نحو منتصف النهار، عاد والدي قبل الغداء من الساحة، حيث سأله الجميع عن الواصلة الجديدة. وكانت تيريزا في الأثناء قد فتحت حقائبها، وأخرجت منها قبل كلِّ شيء دميةً خزفيَّةً كبيرة، وما زالت تحنو على أغراضها واحداً واحداً. وأمام ذلك الشرشف الكتَّان، والمناشف الناعمة، والملابس المدبَّجة، والمطرَّزات التي بدت كالسُّكَّر، أخذ والدي يمازحها مثلما لم يفعل مع أيٍّ منَّا قطُّ.

«أعطوكِ المهر!» يضحك ويخبط يده على الطاولة «يتوجَّب علينا العثور على عريسٍ ثريٍّ الآن». رفع كأس النبيذ، إذ كان قد اشترى من عند طونيو نصفَ لترٍ من خمر الأرغيلاّ من أجل المناسبة.

«الدون فرانشسكو! أغنى مَنْ في كازولي!» قال رافّايلي، الذي أصبح الابن الثاني على حين غِرَّة، وما عاد النجل.

«إنّه شبه ميّت! شَعْره الشائب المتبقِّي أبيض كالمُلاءَة» ضحك سالڤو «سيذهب إلى المقبرة عمَّا قريب!»

لكنّ أُمّي في ذلك اليوم ما فتئت تتصرَّف في بيتها كالمضيفة، وبينما كانت تحضِّر الغداء ما انفكَّت تراقب تلك الابنة التي بالكاد عرفتْها، وتحاول أن تفهم من خلال العينَيْن الغائرتَيْن لتلك المرأة ذات الثمانية عشر عاماً، كيف استطاعت أن تخرج من جسدها.

لم تشارك تيريزا في الدردشات، كانت واقفةً ومرتديةً ثيابها على أتمِّ وجه، ترمقنا بالطريقة ذاتها التي نظرت فيها إلى الحمَّاليْن. كانت شاردة، ونظرتها لئيمة. هل من المعقول أنّها تتحدَّر من هذا البيت - تتساءل عيناها المليئتان بالرعب؟ هل من المعقول أنّ تلك المرأة المتَّسخة والدميمة هي والدتها الحقيقيّة، وأنّ هؤلاء الخمسة القذرين ذوي الأنظار الشاخصة والثياب البالية هم أشقَّاؤها؟ ظلَّت تحاذي الجدار بكَتِفَيْها، وأنظارها تحوم كالممسوسة بحثاً عن سبيلٍ للفِرَار. ولكنْ، ما من سبيل.

كانت تحطُّ عينَيْها عليَّ من حينٍ لآخر. «أهذه هي أنتِ؟» غمغمت فجأةً، وحدَّقت إليَّ بشراسة.

تجمَّدت دمائي. أدركتُ جيِّداً أنّها تُلمِّح إلى التبنِّي الذي لم يتمّ. وفهمتُ كذلك، من الشكل الذي احتدَّت فيه نظرتها، أنّها لا تحتقر أحداً بقَدْر ما تحتقرني.

«أهي تطيل النظر هكذا دوماً؟» سألت بصوت عالٍ بَغْتَةً، مشيرةً إليَّ بإيماءةٍ من رأسها. كنتُ أمعن نظري في الدمية الخزفيّة ذات الشَّعْر الأسود المتموِّج المصنوع من ذيل الحصان، وفستانها الأحمر الجميل المزركش عند العنق والمعصمَيْن؛ غير أنّها كانت في أسوأ حال، ينقصها أنفٌ وذراعٌ، وعينٌ لؤلؤيّة. لم أكن قد رأيتُ دميةً في حياتي، ولا حتّى قنشنزا، فما عدنا نحيد أعيننا عنها.

لم تدافع أُمِّي عنِّي، لم تَفُهْ بشيء، فنظرتُ إلى الأرض.

«لا تقلقي، لن أسرقَها منكِ» قلتُ بيني وبين نفسي وأنا أفركُ يَدَيَّ بعصبيّة.

«ماذا قلتِ؟» صاحت.

لكنّي لم أردّ. واصل الآخرون ابتهاجهم الجماعيّ، كأنّ شيئاً لم يكن: هناك فردٌ من العائلة قد اختبر الثراء وحياة الأسياد، وهذا يجعلنا نتذوّق الأمر جميعاً، لمجرَّد أنّنا على مقربة منها.

احتضن والدي ڤنشنزا التي لم تعتد ذلك الحنان، فراحت تضحك وتجيل عينَيْها في المحيط مشدوهةً نوعاً مّا، تمصُّ أصابعها وتعرِّج بأنظارها من الدمية إلى شقيقتها الجديدة. حتّى رافّايلي كان يحدِّق إلى الواصلة الجديدة، وما فتئ يرمي نظراته إلى صدرها الكبير والممتلئ، الذي ضاق بأزرار الثوب السماويّ. لم يستحِ من فعلته، إذ لم يكن قد رأى عن كثبٍ فتاةً ناضجةً من قبل. وكانت تيريزا تغلُّ يدها وترفع الصدريّة بين الفينة والأخرى، فيزداد رافّايلي اهتياجاً. كان في الثالثة عشرة من عُمُره، وقد شبَّت قامته طولاً بين عشيّةٍ وضحاها، ونبت الزغب على وجهه، وتصلَّبَ مَنْكِباه كالرجال، فبرزا بعظامٍ ناتئةٍ من قميصه الداخليّ المهترئ. ومنذ ثلاثة أشهر، اتَّخذ صوتاً لم يكن صوته، وعينَيْنِ لم تكن عيناه، وكان آنذاك يحدِّق إلى شقيقته الجديدة كأنّها من ممتلكاته.

«انزعي حذاءكِ، ضعيه في الغرفة» قالت لها أُمِّي، فسكتنا جميعاً، إذ إنّ أحداً تجرّأ على التوجُّه إليها بكلمة بعد مضيٍّ وقتٍ طويل على وصولها.

رفعت تيريزا ذقنها إلى السقف تعبيراً عن الرفض، واحتدم اللؤم في نظرتها. ثمَّ أخذت تعاين بقع الرطوبة.

انتظرنا جميعاً أن تعلِّق، لكنّها لم تتكلَّم، وما زالت تنظر إلى الغرفة، ولا تنبس بحرف.

ثمَّ كسرت الصمت:

«أنا لا أنام في مكانٍ كهذا» قالت.

على الرغم من لُكْنَتِهَا الكامبانيّة، كان في صوتها ما يشبه صوت أُمِّي، انتبهتُ إلى ذلك حينها، يُبَحُّ قليلاً في الحَنْجَرَة مثل صوتها تماماً.

تركت والدتي على المدفأة الخرقةَ التي تمسَّحت بها بعد أن قشَّرت البطاطس.

«ماذا يعني أنّكِ لا تنامين في مكانٍ كهذا؟ هذا هو المكان الوحيد الذي تحت تصرُّفنا، يا ابنتي. يؤسفني أنّه ...»

«رائحته كريهة تُذكِّر بالعَرَق والدَّوابِّ. لا يمكن لثمانية أشخاص أن يناموا في هذا الجُحْر».

ظلَّ والدي ساكتاً، وإخوتي كذلك، لم ينطق أحد.

«وما الذي علينا فعله، يا ابنتي؟ هذا ما لدينا ...» اعتذرت والدتي.

«هي» قالت تيريزا، مشيرةً إليَّ. واتَّسمت عيناها بنظرة الأفعى.

شعرتُ بغُصَّةٍ في الصدر، كما لو أنّ كلمة «هي» تطعنني. كدتُ أسقط، فتراجعتُ حتَّى ضرب ظهري بالحائط.

«إن كنتُم تريدونني، فعليها هي أن ترحل من هنا. المكان لا يتَّسع للجميع».

أخفضت أُمِّي عينَيْها، وفعل أبي مثلها. فاستوعبتُ كلَّ شيء في لحظةٍ واحدة: لن يعارضاها، لن يكون لأحدٍ الجرأة لمخالفة أختي الرأي. أحسستُ بغُصَّة الصدر تتراخى، وأنا مستندة إلى الحائط، فهويتُ على الأرض.

ستكون غرفة أبي وأُمِّي من نصيبها. وسينام رافّايلي وسالڤو في مكانهما المعتاد، أمَّا سريري وسرير ڤنشنزا سيتَّحدان لينام عليهما أربعة: أُمِّي، أبي، أنجلو الصغير وڤنشنزينا.

لم يعد لي مكانٌ في البيت. كنتُ سأنام في تلك الأيَّام الأخيرة ما بين شقيقَيَّ، ريثما يتخلَّص أهلي منِّي.

«بإمكانكِ الانتقال إلى الخالة مادّالينا» قالت أُمِّي، ولم تتجرَّأ على النظر في عينَيَّ.

لكنّي قبل ساعة النوم، عثرتُ بنفسي على الجرأة.

حاول سالڤو اعتراضي، لكنّه لم يقوَ. تسلَّلتُ ودخلتُ راكضةً إلى ما صارت حينذاك غرفة أختي، دفعتُ الباب فصُفِقَ بالحائط. كانت جالسةً على السرير، توشك على الاستلقاء تحت الأغطية، والدمية الخزفيّة في حضنها.

دنوتُ وتجاسرتُ على النظر في عينَيْها. لم يهمّني أنّها تكبرني سنّاً، أو أنّها امرأة ناضجة، أو أنّها آتية من المدينة، لم أكن أخاف من أحد.

«لماذا تريدين أن تطرديني؟» سألتُ «ما الذي فعلتُهُ بحقِّكِ؟»

حجَّرَت فكَّها، وحدَّقَت إليَّ كأنّها تراني للمرَّة الأولى. أنهضت ذقنها، وفَحَّتْ لئلا يسمعها الآخرون:

«لقد ذهب أبواي إلى نابولي ليأخذاكِ ...» كانت تداعب الدمية المعطوبة «وقد اشتريا لكِ هذه ...» رفعتْها قليلاً لكي أراها بشكل أفضل، وأمسكتْها من ذراعها الوحيدة «... ظلَّت طيلة أشهر على ما كان سيصبح سريركِ، مستندةً إلى وسادتكِ. لكنّ أبي وأُمِّي الآن قد ماتا، بسببكِ». أحكمت قبضتها على الذراع الصغيرة.

كانت ترنو إلى الدمية بعينَيْن فارغَتَيْن.

«لقد دمَّرتِ حياتي ...» تابعت. رمقتْني بنظرةٍ شرِّيرة. ثمَّ كسرت الذراع الأخرى أيضاً بقبضةٍ حاسمة، *كراك*، فصارت تتدلَّى من الكتف داخل كُمِّ الفستان «... فسأُدمِّر حياتَكِ».

4

لم أنم في الليلَتَينْ التاليَتَينْ، محشورةً بين فُسَاء رافّايلي وإبطي سالڤو. وعندما كان والدي يصحو، في الرابعة، كنتُ ما أزال مستيقظة، أراه يتحرَّك ببطء تحت ضياء الفلق.

في الصباح التالي، حينما قُرع جرسُ الكنيسةِ السادسةَ والنصف، طرقت الخالة مادّالينا الباب بشدَّة. كانت آتيةً من الريف على قدَمَيْها، ما يفوق الساعة من السير المتواصل.

تلك المرأة البدينة هي شقيقة أُمِّي الكبرى، كان لها جبينٌ عريض ووجهٌ متألِّق، لثيابها رائحةُ الجُبْن والماشية والحطب، ورأسها ملفَّعٌ بمنديلٍ متَّسخ، تنتعل صندلاً من الجِلْد السميك مثل لحاء الزَّان.

دخلت الخالة وحيَّت بصوتٍ مرتفع، ثمَّ جرَّت الكرسيّ وجلست إلى الطاولة دون أن تعبأ بما أحدثَتْهُ من ضجَّة. كنتُ أتظاهر بالنوم، لكنّي أراقبها من بين أصابعي: تبدو مثل الدُّبِّ، حيوانٌ ضخمٌ ومرعب، رائحتها الكريهة أسوأ من فساء رافّايلي.

صنعت أُمِّي القهوة، ثمَّ جاءت لتُزعزع نومنا، لكنّنا كنَّا قد استيقظنا جميعاً.

«اخلعي منديلَكِ، رائحته كالشعير» قالت أُمِّي لأختها.

«إيييه، ليته كان شعيراً ... رائحته كالخِرَاء» هتف رافّايلي.

«لقد غسلتُهُ، لقد غسلتُهُ» أجابت خالتي. ثمَّ التفتت نحو الغرفة المغلقة.

«أهي في الداخل؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

أومأت أُمِّي.

«هنيئاً لها» قالت خالتي.

التفتت نحوي بعد أن اجترعتْ ما في الفنجان: «لا مدرسة اليوم، يا آنسة». قالت بفمها الأدرد، ووجهها المنير.

«كنتُ أُفضِّل المدرسة على الذهاب إليكِ» قلتُ.

«خذي، كُلِي شيئاً» قالت أُمِّي وهي تُخرِج الحلوى التي اشترتْها من أجل شقيقتي الجديدة.

«لستُ جائعة». ذهبتُ إلى الطست، غسلتُ وجهي وبلَّلتُ شَعْري. ثمَّ ارتديتُ ثيابي.

كانت ڤنشنزا تتبعني خطوةً بخطوة، بخلاف سالڤو الذي ظلَّ ممدَّداً، ينظر إليَّ متَّكئاً إلى مَرْفِقه. انحنيتُ إليه فترك لي قبلةً ناشفة على جبهتي.

رافّايلي همس لي: «عودي سريعاً، يا آنسة، إيَّاكِ أن تصبحي مثل الخالة» وغمز إليَّ بعينه.

«ماذا تقصد؟» قالت الخالة مادّالينا.

جمعتُ ثيابي من الصندوق والحذاءَ الجيِّد الوحيد الذي كان عندي، واتَّجهتُ نحو الباب.

كانت خالتي تعيش في كوخٍ خشبيٍّ على سفوح الغاب، في مستوى مرتفع بالنسبة إلى البلدة، عند المرج الكبير، حيث يبدأ الدرب العشبيُّ المؤدِّي إلى غابة فالّيسترو.

كوخها آخر البيوت، ما خلف الأشجار.

لا بئر فيه، وكان في حالٍ يُرثى لها، لدرجة أنّه يعطي انطباعاً بالانهيار بين لحظة وأخرى. أرضيَّتُهُ من ألواحٍ تُقرقع، وأخشابُ السقف وعوارضُ الحيطان تغصُّ بالشروخ التي يتسرَّب منها الريح والمطر، وكانت دلالات الترقيع بلحاء الشجر ماثلة في كلِّ مكان. أمَّا الغنى، والفولاذ والمعامل التي تُشيَّد في المُدُن، وحقول التوت ومصانع الحرير، والصرعات التي يجلبها الأشراف من أسفارهم، فلا وجود لهذا كلِّه في كوخ خالتي.

«تلك لكِ» قالت حالما دخلنا، وأشارت إلى باب. ما زالت الموقدة حامية، والدفء يهيمن. لم أكن قد حصلتُ على غرفةٍ لي وحدي من قبل.

أمضيتُ الأيَّام الأولى وأنا أجول في ذلك الكوخ كأنّني ملاحَقة. أمشي في خُمِّ الدجاج وفي البستان وأشعر أنّني تائهة. أُولَعُ اشتياقاً إلى الحياة في البلدة وأصواتها، وفي الليل يجافيني النوم. كنتُ مُطوَّقة: صرير الجنادب، نقيق الضفادع بجانب المشرب القديم، قُبَاع الخنازير وثُغَاء الغنم الآتي من عزبة الكونت ماتسيي.

ثمَّ جاء صباح يوم أحدٍ استيقظتُ فيه مرتاحة.

«لقد نمتِ هذه الليلة» قالت الخالة «لم تستيقظي لشرب الماء من الدَّنِّ، ولم تتقلَّبي في سريركِ طوال الوقت».

أدركتُ شيئاً فشيئاً أنّني لم أعد أشمُّ روائح الريف الثقيلة، ولا حتَّى رائحة خالتي المقرفة. صرتُ أستيقظ على شدو نقَّار الخشب، وكانت خالتي تترك لي فنجاناً من قهوة الشعير المغليِّ على الطاولة، بينما أُجهِّز نفسي للذهاب إلى المدرسة. وتضع بجانبه قطعَتَيْن من الخبز الذي تصنعه مرَّةً في الأسبوع بفرن القِرمِيْد المقابل لخُمِّ الدجاج، إضافةً إلى مرطبانَيْن من مُربَّى الدُّرَّاق والكرز.

«لحسن الحظِّ أنّكِ هنا» تقول «وإلَّا لن يأكل هذه المُربَّياتِ أحد. رغم أنّها لذيذة، وهي من العام الماضي».

قبل عامَيْن، هام زوجها في الغاب، وتركها وحيدة، وما عادت مَؤونتها تنفع أحداً. وكلَّما سألتُها عنه غمغمت بعُجَالَة: «لعلَّه قرب سيرّا بيداتشي، منشغلاً بأموره في أحد الجبال».

إلَّا أنّي كنتُ أتصوَّر هذا العمَّ في جبل كورتشو، أو جبل سكورو، مختبئاً في أحد الكهوف، أضخم من إنسانٍ عاديٍّ، أقرب إلى حيوانٍ كاسرٍ وموبر، أصابعه تشبه المخالب.

كانوا في كازولي يُسمُّونه تيرّوموتو/الزلزال، وبسببه لُقِّبَت الخالة مادّالينا بالزلزال أيضاً. وقد نشأت حوله أسطورة، كشأن الذين يتوارون عن الأنظار كلّهم. هو من نسل الفحَّامين، أبناء الجبل الذين ساندوا الجيش البوربونيّ، وقارعوا احتلال الفرنسيِّيْن أتباع مورات، لذا نالوا احترام الجميع. لأنّهم انتصروا. بيد أنّ الملك البوربونيّ الذي اتَّخذهم حلفاءَ في تلك المعركة، وأغراهم بإنهاء عبوديَّتهم من مُلَّاك الأراضي،

لم يَصنْ عهوده بعد أن تحقَّقَ له النصر؛ ما جعل أكثرهم يتمرَّدون عليه لاحقاً، ويقرِّرون الانعزال في الجبال، حيث سيحاربون رفاقهم القدامى.

قيل عن العمِّ زلزال إنّه قادرٌ على قَتْل ذئب السيلا بيدَيْن عاريَتَيْن، وأنّه لا يسمح لأحدٍ بالاستعلاء عليه. كان في الماضي يعمل إسكافيّاً، وذلك من بين الأعمال التي يفرضها عليه «القبّعات» من دون أجر. كان عاجزاً عن جَنْيِ حتَّى قُوْت يومه، ناهيكَ بالإيجار الباهظ للجُحْر الذي يحوي دكَّانته، والضرائب المرتفعة على دباغة الجلود. وقد عاش مع الخالة طيلة عشرين عاماً من فقرٍ مدقعٍ، لم يأذن له بإنجاب أطفال. وذات يوم هدَّده أحد «القبّعات»، صاحب الدكَّانة. أراد أحذية جديدة لأفراد عائلته جميعهم دون أن يدفع كلفتها. فثار عليه العمُّ زلزال، لكنّ الرجل قال له بأن ينظر جيِّداً إلى الأرض التي بُنِيَ فيها بيته، في الريف.

«الأرض كانت لوالدي» أجاب العمُّ «ولوالده من قبله. فهي ملكي».

انفجر ذو القبَّعة من الضحك: «إنّها متاخمة للأراضي المشاع» قال وأشهَرَ إصبعاً في وجهه «لذا توخَّ الحذر، وإلَّا أصبحت ملكي. لا يكلِّفني ذلك سوى أن أتَّجه إلى الحاكم، لأطلب منه أن يوقِّع على خرائط جديدة لممتلكات الدولة».

كان العمُّ زلزال يعلم أنّه ما من أسهل من أن تَؤُوْل الأرض التي يقوم عليها بيته إلى مجرَّد قطعة يستولي عليها أحد الأسياد بعد أن يرشوَ الحاكم. وعلى الرغم من هذا لم يتهاون، وأبى إلَّا أن يحصل على النقود التي تُكافِئ جهده. وبعد عدَّة أيَّام، دهم الدكَّانةَ أربعةُ رجال بملابس سوداء. حطَّموا عدَّته بلا رحمة، وسرقوا ما لم يَقووا على تحطيمه، وتركوا العمَّ زلزال بأربعة أضلاع مكسورة. ثمَّ وجَّهوا له بلاغ الإخلاء. ظلَّ طريح

الفراش مدَّة شهر، وعندما استطاع النهوض حسم أمره: سيعيش في الغاب، إذ ضاق ذرعاً بتلك الحياة.

وهكذا اتَّخذ الجبال مقرَّاً، صُحْبة رفاق آخرين، وأخذ يغزو عُزَبَ النبلاء والأشراف، محاولاً عدم إيقاع جرحى؛ ثمَّ يعود إلى البلدة لتقاسُم الغنائم المسلوبة مع المزارعين.

«يفعل مثل الغاب» قالت الخالة «يستردُّ ما كان له».

كانت تقصُّ عليَّ تلك الحكايات في المساء من حينٍ لآخر، دون أن تخشى أنّها تصيبني بالجزع، كما لو كنتُ كبيرةً أساساً. «العمُّ يخاطر لتحقيق أحلامه» كانت تقول، عندما نجلس أمام الموقدة، أو في الخارج صيفاً، بين الخُمِّ والبستان، حين يكون القمر عالياً، والجنادب تصدح بصريرها «أحلامٌ بمستقبلٍ عادل، أحلامٌ كبيرة» تقول، وكلَّما ردَّدتْ كلمة «كبيرة» حاولتُ أن أفهمَ ما إذا كان لديَّ أحلام كتلك أنا أيضاً، وما نوع تلك الأحلام، وكيف لها أن تكون قويّة بحيث إنّها تُغيِّر حياة بعض الأشخاص، ففي بيتنا لا أحد يحلم هكذا، أو في الأحوال كلِّها لم أكن أعرف المعنى الذي أُعطيه لتلك الكلمة: «أحلام».

في الأيَّام الصافية، كانت القمم المحيطة تتَّضح للعيان من كوخ الخالة، والقمم الأبعد أيضاً، أسبرومونتي في الجنوب وبولّينو في الشَّمَال.

وكانت الخالة تسمِّي القمم الأعلى، وتلمع عيناها: «هذا بوتيّ دوناتو» تقول «وهناك مونتي نيرو. وتلك سيرّا ستيلا؛ أمَّا تلك، فهي جبال بورتشينا، وفي المدى جبل كورتشو».

كانت مثل أُمِّي تشتاق إلى الضيعة فوق لوريكا حيث وُلِدَت، ومنذ أن توفِّيت الجَدَّة تينوتسا ولم يعد أيٌّ من العائلة يعيش هناك، ما

انفكَّت تذهب بين الحين والآخر لتتأكّد من أنّ الجبل لم يستردّ البيت الحجريّ الصغير الذي نشأت فيه.

«هل تتنسَّمين هذا الهواء النقيّ؟» تسألني، في أيَّام الشتاء الصافية. أومئ برأسي فتضحك، كما لو أنّها قرأت في عينَيَّ ما لستُ أعرفه. «تنشَّقي بقوَّة» تُعلِّمني الطريقة المثلى للتنفُّس، بحيث تمتلئ الرئتان. «هذا الهواء آتٍ من هناك في الأعلى» تقول في المساءات الباردة، حيث لا قنديل زيت ولا نور سوى ضوء القمر، فنتدثَّر بسترات الصوف، وننتعل الأحذية الثقيلة. وكنتُ أتساءل أحياناً ما رأي شقيقتي الجديدة بنا، هي التي تتجوَّل في البيت بالخُفِّ المدبَّب الذي يستخدمه أهل الشَّمَال.

كانت خالتي تنهض فجراً لإطعام الدجاج والاعتناء بالبستان. وهناك قطَّان أسودان يتمسَّحان بقدمَيْها، يذهبان ويغدوان على هواهما بين الحقول والمزارع. كانت تترك لهما طَبَقَيْن صغيرَيْن، فيهما قليلٌ من الحليب بجانب الباب، واثقة من ظهورهما عاجلاً أم آجلاً.

«ستيلّا، سكورو. هنا» وتصبُّ لهما الحليب «هل نمتُما جيِّداً؟» كانت قد سمَّت القطَّيْن بأسماء جبالها. وبعد أن تُنهيَ المحادثة معهما، تدخل إلى البيت وتُباشر النسج.

خالتي، مثل والدتي، تعمل لمصلحة آل غولّو؛ ومثل والدتي أيضاً احدودب ظهرها وتَلفَت أصابعُها.

«ينبغي لنا أن نعمل يا ماري، ينبغي أن نعمل» تقول لي عندما تراني أُحدِّق إليها وهي منحنية على آلة الغزل. «لا يمكنني أن أعتمد على بيضَتَيْن. لا بدَّ لي من تناول اللحم وكأس نبيذ بين فترةٍ وأخرى».

وبينما تغزل كانت تغنّي بصوتٍ خفيضٍ أُغنيَّةَ قطّاع الطُّرُق الكالابريِّيْن، فأحاول أن أحفظها عن ظهر قلب:

ثمانية عشر عاماً، يا ربَّاه
ما أجمل أن نعيشها.
وما أجمل أن نضحِّي
بهذه الحياة وهي في ريعانها.
الفلَّاحُ اللصُّ،
حَصَدَهُ المستبدّون
مثل ساقِ نبتةٍ منتصبة
يعزلها الموتُ،
وها هو نائمٌ نومة الأطفال
مستلقياً عند أبوابكَ.
ربَّاه، وأنتَ القدير:
أسكِنْهُ سماءَ الأبطال.

كنتُ أنظر إلى خيوط الحرير التي ستصبح صدريّةَ فستانِ سهرة أو مفصلَ قميص أو حزاماً، ثمَّ أنظر إلى خالتي وهي تمرِّر يدَيْها، لتتحرَّى الفراغ؛ خالتي وهي تفتح الشبكة، تحدِّق إلى الحبكة، وتضرب بالمشط.

«إنّ حرِّيَّة «القبَّعات» لعنةٌ علينا» تقول، كما لو أنّ الأمر لا يعنيها حقّاً، ليس في العمق تماماً؛ كما لو أنّه قانون الطبيعة، وينبغي أن يُؤخَذ على ما هو عليه. ثمَّ تعيد الكَرَّة، مراراً، مراراً، مراراً، تكرِّر الحركات ذاتها، قبل أن تخلد إلى النوم.

5

بالعودة من المدرسة، بعد الغداء، كنت أرافق الخالة إلى الغابات، أنتعل جزمة مهترئة أكبر من مقاس قدَمَيَّ بقليل.

«احملي فأسكِ» تأمرني، وتصحبني معها لجمع الحطب.

كنَّا ننطلق خُلْسَةً عن الأعين، نخبِّئ الفأسَيْن في عمق السلَّة، لأنّ جمع الحطب كان ممنوعاً، بل وحتَّى جمع الغصينات وثمرات الصنوبر أو الكستناء، أو قطف بعض الأوراق اليابسة. فالغابات، مثل الحقول، ينتشر فيها مخبرو الحرس الوطنيّ، ويتعقَّبون أثرك جرَّاء أدنى شكٍّ، ويزجُّون بكَ في السجن دون الحاجة إلى أدلَّة. تصل عقوبة الاستخدام المدنيّ للأراضي إلى عشرة أعوام من الحبس، وإلى الإعدام في بعض الحالات الخطيرة. يحكى أنّ مزارعاً أُعدِمَ بالرصاص ذات مرَّة، لأنّه أخفى تحت سترته مجرَّد حَفْنَة من سنابل القمح.

كنَّا نصل إلى الصنوبريّات السوداء بعد ساعة من المشي، ثمَّ ومن دون أن ننتبه يختفي أيُّ أثرٍ للأشياء الواقعة خارج الغاب، ويظهر عالمٌ مغلقٌ على نفسه بما فيه من كائناتٍ غريبة. فنبدأ بجمع الأفرع المتساقطة، وننتزع منها الأغصان، فأخشاب الزان والصنوبر الأسود تشتعل جيِّداً وتُؤمِّن الدفء، فنأخذ منها كمِّيَّةً وفيرة، ونجيل النظر إلى ما حولنا كما لو أنّ الشجر والهواء والغاب وكلَّ شيء ليس في مكانه

من أجلنا، ومن أجل بطوننا، وتدفئة عظامنا. أمَّا خشب الشوح، فيفوح برائحةٍ شذيّة، لكنّه لا يدفئ كثيراً، فنستغني عنه. وهكذا، بعد أن نُخبِّئ الحطب بالسلَّة، تختار الخالة صخرَتَيْن مسطَّحَتَيْن، وتشير إليَّ فنجلس.

«اسمعي» تقول وهي تُؤشِّر بإصبعها نحو الأعلى.

كان شدوُ الزرياب يتناهى إلى المسامع أوّلاً، ثمَّ قرقرة الحِدَأة. وكنتُ أبحث عنها بعينَيَّ، لكنّها تتناهى من جهة أخرى دائماً. خلافاً للخالة التي تسترق النظر من بين الأغصان وسرعان ما تُحدِّدها. طائرها المفضَّل هو الباز، لأنّه جبَّارٌ وأنيق، على حَدِّ وصفها، صدره يبدو من فولاذ، وما لبث أن صار المفضَّلَ عندي كذلك. ثمَّ يتناهى نُبَاح الثعالب، وإذا ما أصختُ السمع التقطتُ عُوَاء ذئابٍ بعيدةٍ أيضاً. ثمَّ يليها طنين اليَعْسُوب، وذبَاب الغاب. وفي النهاية نقيق الضفادع، وصرير القوارض، وجرذان الزباب.

كانت خالتي تُغمض عينَيْها، وتهبُ نفسها للإنصات دقائق بأكملها، مع ابتسامة طفيفة وثابتة، لكأنّها تصغي إلى أنغامٍ تهبط من السماء. فإذا هي تنهض، إذ تنبَّهت إلى شيء مّا.

ثمَّة يرقة بيضاء ثخينة وكبيرة بحجم إصبع على أحد الجذوع، تشبه تكدُّسَ المخاط، تنقبض وتنبسط لكي تصعد. شكلها مثير. وهناك سيلُ لعابٍ طويلٌ كثيفٌ ورغويّ في الأعلى.

ضربت الخالة زلزال على اللحاء ونادتني:

«تعالي».

أخذت تضرب الجذع أربع أو خمس ضربات خفيفة، إلى أن أبرزت

ابتسامةً بلا أسنان وهي تُريني فتحةً فيه. كانت تلك الشجرة ميّتةً منذ زمن، وباتت معقلاً للمئات من يرقات الصراصير الثخينة.

غلَّت خالتي ذراعها، وأخرجت حَفْنَةً منها. وضعت واحدةً في فمها، وأعطتْني الأخرى. وكانت اليرقات الصامدة تتلوَّى للتخلُّص من شدَّة قبضتها.

«إنّه لحم، يُبعِدُ الموت» تقول وهي تمضغ.

«لا أريدها» أجيب مشمئزَّةً.

«لا تتذمَّري. إنّها لذيذة ومفيدة» تقول ثمَّ تبتلعها.

«إنّها حَيَّة».

«تماماً».

أُغمض عينَيَّ. أُخصِّص العضَّة الأولى لاجتزاء الرأس، الذي لا يتميَّز عن باقي الجسم إلَّا بعينَيْه الدقيقَتَيْن والسوداوَيْن، ثمَّ أُدْخِلُ الجسمَ الثخين في فمي بعُجَالَة. وأتمكَّن من ابتلاعه بثلاث مضغات.

«لدينا ما يُؤكَل هذا المساء» تقول خالتي، ونعود أدراجنا. سوف نقليها بلحم الخنزير، مع قليلٍ من الخبز والهِنْدِبَاء. هناك مَنْ يؤسِّس ثرواتٍ تفوق الخيال من دود قَزِّ الحرير؛ وهناك نحن. بالنسبة إلينا كانت اليرقات، بما فيها يرقات الصراصير، وجبةً تُؤكَل.

وبينما كنَّا نمشي كنتُ أنظر إلى الخالة من الخلف، تنوء بحِمل السلَّة، فتبدو لي شبيهةً بالغاب: شَعْرها الطويل والمشعَّث كأغصان

الشوح الأبيض، أظفارها المتكسِّرة كالجذور المكشوفة، وحَدَبَة ظهرها كالعُقَد التي تتشكَّل على جذوم الزان.

لم يكن في جوار الكوخ من علامةٍ على الحضارة سوى قطعة الأرض المزروعة بالكرز الأبيض والكرز الأسود المملوكة لآل الكونت ماتسيي.

تمتلئ تلك الأشجار المهيبة خلال الربيع بالأزهار من لون العقيق، والأوراق العريضة التي يُخزِّنها المزارعون في منشأة خشبيَّة ضخمة، حيث يقدِّمونها طعاماً لدود القَزِّ المصفوف في الردهات. وقبل أن يتحوَّر القَزُّ، يلفُّ نفسه بشرنقةٍ من خيط لعابيٍّ، قد يصل طوله إلى كيلومتر. كان يُذكِّرني بما أفعله عندما ألفُّ نفسي خلال الليل بآلاف الهواجس عن عائلتي التي تخلَّت عنِّي، وعن شقيقتي الجديدة التي تحقد عليَّ، وعن دردشات إخوتي من دوني، وكلَّما استرسلتُ في الهَجْس انطويتُ على نفسي كثيراً، بحيث لا أنال النعاس إلَّا بعد جهد. كان رعاة الدود سيقضون على القَزِّ لاحقاً، فيأتي دور النسَّاجات اللواتي سيسحبنَ الخيوط من الشرانق ويبسطنَها ويغزلنَ الحرير؛ الحرير الذي سيبيعه ذوو القبَّعات في ممالك الأرض بأسرها. لكنَّنا في كوخ خالتي لا نفكِّر في هذه الأشياء.

كنتُ في النهار أفكِّر بالمدرسة، أفكِّر كثيراً، وهذا أمرٌ مستغربٌ بالنسبة إلى مُزارعٍ لا ينبغي له أن يُمنِّي نفسه بطموحات كبيرة، على حدِّ قول والدي. إلَّا أنَّ المدرسة كانت تمثِّل كلَّ شيء في نظري، تجعلني أوقن أنّني سأصبح مختلفة عمَّا أنا عليه، سأصبح أفضل، وقد أصير امرأة مهمَّة عندما أكبر. كنتُ آنذاك أستغرق ساعة للوصول إليها، ولا أصل إلَّا متأخِّرةً في معظم الأحيان. وإذا أمطرت السماء وصلتُ ممرَّغة بالوحل

حتَّى ركبتَيَّ، أسير على الدرب حافيةً كيلا أتلِفَ حذائي، وأغتسل بالنبعة على مشارف البلدة، ثمَّ أنتعله أمام باب المدرسة خُلْسَةً عن الأعين.

كنتُ الوحيدة من عائلة مزارعين، ورغم هذا أحبَّتْني رفيقاتي مع أنّي لستُ مثلهنَّ، ولطالما تسلَّينا معاً، نسخر من المتكبِّرين من أهالي كازولي. إلَّا أنّني بعد أن انتقلتُ إلى خالتي، شعرتُ أن حتَّى اللواتي اعتبرتهنّ صديقاتي بدأنَ يَنبذنَنِي.

وكلَّما دنوتُ منهنَّ ابتعدنَ، يقلنَ إنّ رائحتي كريهة كالريف والحيوانات، ولم يعد باستطاعتهنَّ البقاء معي.

«غير صحيح» احتججتُ ذات صباح على روزا التي كانت رفيقة مقعدي، ثمَّ راحت تجلس حينها بجانب فرانشسكا سبادافورا، ابنة العطَّار، التي لطالما سخرنا منها، لأنّها تعدُّ نفسها ملكة صغيرة. «رائحتي ليست مقرفة».

«تبدين قردة» أجابت روزا «حتَّى الزغب بدأ ينبت على وجهكِ». ضحكت رفيقاتنا. كان والدي يُلقِّبني دوماً بالقردة، «أنتِ قردتي» سوى أنّه يقولها ممازحاً؛ أمَّا هنَّ، فكنَّ مشمئزَّات. «أُمِّي تقول إنّكِ تُلطِّخين ثيابي إن بقيتُ قريبةً منكِ». تمكَّنت شقيقتي الجديدة من عزلي حتَّى عنهنَّ، فكَّرتُ وأنا أسير في الدرب العشبيِّ عائدةً إلى البيت.

وللمفارقة، أصبحت المعلِّمة دوناتي ألطف معي، ربَّما لذلك السبب تحديداً. كان أكثر ما يعجبني فيها صوتُها، وهندامها: أنيقة، من دون الوضعيّات المتبجِّحة التي تتَّسم بها نساء المُدُن المرموقات. هي زوجة أكثر الرجال تقديراً في المقاطعة، القاضي دوناتي، وكان بإمكانها أن تنحو مسلك النبيلات، وأن تهبَ نفسها للاسترخاء، كي لا تتَّسخ يداها بالعمل، لكنَّها اختارت مهنة التدريس.

ومنذ عدَّة أيَّامٍ حدث أمرٌ مروِّع: أُوقِفَ القاضي دوناتي في يوم الأحد من قِبَلِ الحرس الوطنيِّ، وأشبعوه ضرباً مُبرِّحاً بجانب الساحة. شهد بعض المزارعين تلك الواقعة، وانتشر الخبر في البلدة بسرعة الريح، لا سيَّما أنّ هذا القاضي معروفٌ باستقامته، وعدم استغلاله سلطته يوماً، وهذا ما يجعله خطيراً في ظلِّ مملكةٍ يعمُّ فيها الفساد. لم يتكلَّم أحدٌ في تلك الأيَّام إلَّا عنه: القاضي دوناتي، الذي يبلغ المترَيْن طولاً مع قبَّعته الأسطوانيَّة، والمتَّشح دوماً بدثارٍ فضفاضٍ وناعم، هو واحدٌ ممَّنْ يستغرق وقته في الطريق للتبسُّم في وجه مزارِعة صغيرة مثلي، هو تماماً يتعرَّض للضرب بالهِرَاوَة من نفرٍ من الفِتْيَة المسلَّحين. أدرك الجميع أنّها إشارة: انتهى المطاف بالرجل وزوجته في قائمة «المرصودين» التي أعدَّها الملك فرديناندو الثاني. سيخضعان للمراقبة والاتِّهام بأفعالٍ متمرِّدة.

إلَّا أنّ المعلِّمة في صباح الاثنَيْن، وعوضاً عن الانهيار والأسى، احتضنت تلميذاتها أكثر، لا سيَّما أنا. كانت تخصُّني من حين لآخر بنظرة تعاطف، لكنّي لم أكن أبتغي تعاطفها، فكففتُ عن الدراسة نكايةً بها. انتبهتُ فنادتني على انفراد بعد نهاية الدروس في أحد الأيَّام.

«ماريّا، هل لديكِ مشكلات في البيت؟» سألتْني بصوتها الخفيض والبطيء.

«كلَّا» أجبتُ بحِدَّة.

انحنت بحيث صرنا من الطول نفسه. «لا تُنجزين واجباتكِ، تصلين متأخِّرةً دوماً ... شاردة».

«أبي يستيقظ متأخِّراً، ونحن نخرج بعده» سارعتُ.

هزَّتْني المعلِّمة من ذراعي بخفَّة، ثمَّ رسمتْ ابتسامةً حلوةً، وداعبتْ وجهي بكلتا يدَيْها، كأنّه متَّسخٌ بالفحم فعزمتْ على تنظيفه.

«لقد تحدَّثتُ إلى أبيكِ» قالت «لا تقلقي».

نهضت وحنت على شَعْري: «إن واجهتْكِ مشكلةٌ بإمكانكِ أن تبوحي لي. متى أردتِ. إنّني هنا».

ربَّما كانت تعلم أنّني ما كنتُ لأفعلها، لذا بدأتْ منذ اليوم التالي بالإتيان ببعض الكُتُب من أجلي.

«أعرف أنّها ستلقى إعجابكِ» قالت. كانت تُمسك بطردٍ لا بدّ أنّ فيه ثلاثة كُتُب على الأقلّ. «وفي حال لم تعجبكِ، فلستِ مضطرَّةً إلى قراءتها». أدركتْ أنّني أستهوي الحكايات من قبل أن أُدرك الأمر بنفسي. أخذتُ الطرد وهربتُ راكضةً، بيدَيْن تتحرَّقان كما لو كنتُ أسرقه.

ثمَّ صارت المعلِّمة تضع لي طَرْد الكُتُب في الرفِّ أسفل المقعد، بحيث لا تُثير انتباه التلميذات. وكنتُ بين ساعةٍ وأخرى أغلُّ أصابعي فيه، ثمَّ سائرَ يدي، وأستشعر بأظفاري ضلعَ مجلَّد غليظ، فأتلمَّسه خُلْسَةً طوال الوقت. لعلَّ هذه هي الأحلام التي تتحدَّث عنها الخالة زلزال. كنتُ في نهاية الدوام أُعيد الكُتُب التي قرأتُها، دون أن أُثير انتباه أحد. كما كنتُ أجد بين الحين والحين قطعة حلوى مع الكُتُب، فأتناولها وأنا أبتسم بينما أعود إلى كوخ خالتي.

كانت تلك الكُتُب مجلَّدات صغيرة تحتوي على مئات الصفحات، أغلفتها ملوَّنة وفيها رسمٌ كبير، من كلاسيكيّات الأدب بنسخةٍ مصغَّرة، صُمِّمَت خصوصاً للأطفال. أوَّلها كان *الأوديسة*، ثمَّ قرأتُ حكايةَ روميو وجولييت، ثمَّ قصص *الديكاميرون*.

«ومَنْ كان يتوقَّع أنّ الكُتُب مضحكة!» قالت خالتي ذات مساء بينما قرأتُ عليها من كتاب بوكاتشو.

إلَّا أنّ أحلى الحكايات بالنسبة إليَّ، هي حكاية العاشقين التي تدور أحداثها في فيرونا. لم أقم عنها إلَّا حين أتممتُ قراءتها، وقد تسرَّبت أولى خيوط الضوء من النافذة، وتفشَّت على الصفحات الأخيرة. تأثَّرتُ بتلك الحكاية كثيراً، وما كنتُ لأفكِّر في شيءٍ طيلة أيَّام إلَّا بهذَيْن الشابَّيْن: روميو وجولييت الجميلة، موته، وموتها. ما سرُّ هذا الشيء القويّ حتَّى إنّه يحوِّلهما إلى مجانين؟! ما هذه الطاقة التي يسمِّيها العاشقان بالحبّ؟! لم أكن أدري، لكنّي وأنا أقرأ كنتُ واثقة من الإحساس بالوخزة داخل الفؤاد الذي تتشكَّل فيه. كان الإحساس نفسه يُراودني عندما يتركنا البرد القارس إبَّان الشتاء في حضرة الجوع لأسابيع طويلة.

6

كان سالڤو وڤنشنزينا يأتيان لزيارتي من حينٍ لآخر، فآخذهما معي إلى الخُمِّ والبستان. تركتُ شقيقتي تلاعب ستيلّا وسكورو، وصحبتُ سالڤو لأُعرِّفه على راعٍ بلغ عامه التاسع ويقتاد الكلاب إلى المشرب كلَّ يومٍ بعد إرجاع الغنم إلى حظائر الدون ماتسيي.

وكان شقيقاي يجلسان على صخورٍ وسط السهل، أو يستلقيان على العشب، ويرويان لي عن شقيقتنا الكبرى التي كانت تبالغ في تصرُّفاتها على أنّها سيِّدة. كانت لا ترتدي إلَّا منامتها الحرير المتموِّجة والمزوَّقة بالمزركشات، موثوقةً بشالٍ مرقَّطٍ ومخطَّطٍ باللون الفيروزيّ والأخضر والذهبيّ، وكشفة الصدر تنفتح أكثر كلَّما تنهَّدت، ما يثير هياج رافّايلي. وكانت تزعق مطالِبةً بالديك الروميّ والسمك الذي تعوَّدت عليه، وتشتكي ضيقَ البيت وقذارتِه، وترغم والدتي على تنظيفه مراراً. في حين كان والدي يرجوها أن تُخفض صوتها، فإذا بصياحها يعلو قائلةً إنّها لا تريد البقاء في كازولي، تريد العودة إلى بونتيلاندولفو، ولا تعرف لذلك سبيلاً.

«فارحلي إذن! كنَّا بحالٍ أفضل عندما كنتِ سيِّدةً في المدينة!» صرخ عليها سالڤو ذات مساء. كان يكبر، وفي كلِّ مرَّةٍ فيها أراه بدا لي أطول وأضخم من رافّايلي الذي كان هزيلاً.

نظرتْ إليه تيريزا «كما لو أنّه خِرَاء كلب» قالت ڤنشنزا.

«ارحلْ أنتَ إذا كان الوضع لا يناسبكَ» ردَّت عليه.

تدخَّلَ والدي ليدافع عنها، وما عاد سالڤو يفتح فمه منذ تلك اللحظة. «أعرف مآل هذا الأمر» قال، وكانت تلك آخر كلماته التي وجَّهها إلى أبيه. وأقسَمَ أنّه لن يتحدَّث إليه أبداً.

وكان الجميع في البلدة يعرفون تلك الأخت الثريّة التي تجرُّ والدتي خلفها في الساحة كما لو أنّها خادمة. تختار شقيقتي في السوق لحمَ الخنزير والخروف والفواكه لأجلها فقط، وتضعه في سلَّة الخَيْزُرَان التي تحملها أُمِّي، ولا تشتري أيَّ شيءٍ للآخرين.

وقد استدان أبي من سيِّده، الدون دوناتو موريلّي. وَرَدَهُ أنّ المملكة افتتحت طريقاً جديداً للملاحة ينقل بواخر نابولي إلى الهند، إلى كلكتا، حيث تُفرَّغ التوابل، والأخشاب، والأقمشة، وفليفلة الدون دوناتو؛ ولا أحد يدري كيف توهَّمَ أنّ هذا التطوُّر سيُحسِّن وضعه الاقتصاديّ، فصار يلهج بشراء بيتٍ لتيريزا وحدها، ليكون مَهراً لها في حال تزوَّجت قريباً.

وهكذا اشترى تخشيبةً، من أحد أقارب موريلّي بالضبط، وفكَّرَ أن يُرمِّمها بعزيمة رافّايلي وسالڤو. سوى أنّ تلك التخشيبة، رخيصة الثمن الذي دُفِعَ بالأحوال كلّها، تبيَّنَ أنّها مرهونة. وجد والدي نفسه مرَّةً أخرى غارقاً في التعاسة ذاتها، وقد خسر بيته وأصبح مديوناً، وهو الذي لطالما نفر من فكرة استدانة النقود طوال حياته. ولكي يُسدِّد هذا الدَّين، عرض عليه الدون الدوناتو اقتسام الثلث من راتبه حتَّى آخر يومٍ من العمل. «لقد كانت خدعة، واحدةٌ من ألاعيب الدون موريلّي الخبيثة» قال سالڤو. أُحبِطَ والدي، وتوعَّدَ بالذهاب لدى محامٍ، وانهال بالتوبيخ

عدَّة أيَّام – عليهم، في البيت – ثمَّ اضطرَّ إلى هضم الموضوع برمَّته. فلقد قام بالكثير، وغدا مُنهَكاً كالبغل الذي استمدَّ منه لقبه، ووجد نفسه مَكسور الظهر جرَّاء الديون وهو في الخمسين من عُمُره. كم أودُّ أن أقتل الدون دوناتو موريلّي بيدَيَّ هاتَيْن، خطر ببالي بينما كان سالڤو يحدِّثني عن والدي، الذي ما عاد يضحك منذ ذلك اليوم، وكفَّ عن النوم أيضاً، ليقضيَ الليالي جالساً يحملق بجمرات المدفأة. هناك، وللمرَّة الأولى، راودني ذلك الخاطر المريع، وقد ذُعِرتُ منه في البدء، ثمَّ أشعرني بالعار. لم يكن بوسعي أن أتخيَّل حينذاك، وأنا على المرج قُبَالَة بيت الخالة زلزال، أنّني بعد أعوامٍ طويلة كدتُ أقتله حقَّاً.

وبسبب شقيقتي، اضطرَّت والدتي إلى مضاعفة العمل أكثر ممَّا مضى. أُجبِروا على شراء ستارةٍ يشرعونها في الليل قُبَالَة السرير، بحيث يسع والدتي متابعة النسج على ضوء المصباح دون أن تُزعج إخوتي.

«إنّها تفقد بصرها» قالت ڤنشنزينا «الخياطة في الظلام ستقضي عليها».

احترق معصمها أيضاً، وبدا أنّ الجرح لا يريد الشفاء أبداً، وهي تدوِّر المفتاح للتحكُّم بالحلقة وإضعاف اللهب. سُفِعَت تحت الظلام بملامسة الأنبوب الزجاجيّ، وكاد المصباح يسقط أرضاً ويتهشَّم إلى ألف شظيّة.

وكانت الخالة تُصغي أحياناً إلى تلك الأحاديث، وتهزُّ رأسها وهي تنسج. «ينبغي تربية الأولاد بالخبز والعصا» تقول «لحسن الحظِّ أنّني لم أُرزق بأولاد ...» تبتسم «مسكينةٌ يا أختي، يا للمأساة!»

ذات يوم أيقظتْني خالتي قبل الفجر، وصحبتْني إلى ما خلف الغاب، لاستكشاف الجبل.

«فلنذهب فوق لوريكا، حيث وُلِدتُ» قالت.

كنتُ قد زرتُ تلك الضيعة الجاثمة على الجبال في صغري رُفْقة أُمِّي، ولا أذكر من تلك الجولات سوى الإعياء وجَدَّتي تينوتسا، التي كنتُ بالكاد أفهم لماذا تتكلَّم بلهجةٍ محلِّيَّةٍ خالصة.

كانت الخالة تمشي واضعةً ثقلها كلَّه نحو الأسفل، بحيث تُحرِّك ساقَيْها بقَدْر ما تستطيع، وأنا وراءها صامتةٌ أُقلِّدها. لكنّها كانت قادرةً على عدم التوقُّف ما إن تنطلق، ولا حتَّى لشرب الماء من نبعة، وهكذا وصلنا إلى القمَّة في غضون ستِّ ساعات.

«أحسنتِ» قالت لي ما إن وصلنا «تمشين بشكلٍ جيِّد. وقد طالت ساقاكِ». وبالفعل كنتُ أنمو، ولم تعد الثياب التي أتيتُ بها إلى كوخها ملائمةً لمقاسي منذ مدَّة، وبتُّ أرتدي من ثيابها، وكلَّما لبستُها نظرتْ إليَّ، وضحكت لأنَّها فضفاضة عليَّ. «تبدين نسخة صغيرة عنِّي» تقول.

كانت الضيعة مجرَّد مجموعة من بيوت حجريّة، وما زال بيت جَدَّتي قائماً، وسقفه عَصِيٌّ على تسرُّب الماء. وبقيت فيه القصعات وعلب القصدير على حالها مثلما تركتها الجَدَّة. وفي الموقدة كِسَرٌ من حطبٍ متفحِّم.

«في الخارج ثمَّة الكثير من جذوع الأرزيّة» قالت الخالة، واقتادتْني إلى ما وراء البيت، حيث ينتأ السطح ليُظلِّل حيِّزاً مخصَّصاً للحطب. «أنا مَن قطَّعتْها، لكنَّ أحداً مّا سرقها».

ثمَّ التقطت ثمرة صنوبر، سقطت منها حبَّةٌ بأجنحتها الدقيقة واليابسة هناك على الأرض. «ماريّا» قالت وهي تدسُّ الحبَّة في يدي «هكذا عليكِ أن تصبحي. مثل هذه الصنوبرة الأرزيّة. ماكرة تستغلُّ الريح لتهرب بصمتٍ، وتنجو». اعتادت أن تفكِّر في شيءٍ آخر بعد أن تنهي حديثها، فأخذت تتمعَّن في الجذوع المحطَّمة من إحدى النوافذ. غير أنّها في مرَّةٍ أخرى روت عليَّ أنّ السناجب وطيور الخساف متيَّمةٌ بتلك الحبوب. تلتقطها وتُخفيها في صدوع الصخور تحسُّباً لأزمنة القحط. وقد تُنسَى بعض تلك الحبوب، فتتبرعم وتمدِّد جذورها بين الحجارة والطحالب بحثاً عن الحياة، فينتهي المطاف بالأشجار للنُّمُوِّ فوق تلك الصخور المتراكمة. قلَّبتُ الحبَّة الصغيرة بين يدَيَّ، ووضعتُها في جيب القميص. لم أكن على درايةٍ بأنّ الجبل عبْر تلك الحبَّة بدأ بإسماع ندائه.

منذ أيَّام، اجتاحت خالتي كآبةٌ سوداء.

ظلَّت جالسةً لساعاتٍ على الكرسيّ قُبَالَة الموقدة، يداها بين ركبَتَيْها، وتتأوَّد بجذعها. لم تكن تلاعب القطَّتَيْن، ونست حتَّى أن تملأ لهما الصحون بالحليب، ففعلتُها بنفسي، لا لشيء سوى لإسكاتهما عن المواء. «لا يعرف مشكلات القِدْر إلَّا الملعقة التي تُحرِّك ما فيه» كانت تتنهَّد باستمرار. لقد غدت مثل الشمس في أثناء الكسوف، وكلُّ ما فيها بات قاتماً على حين غِرَّة.

وهكذا أخذت تتحدَّث عن زوجها، نادراً في البداية، ثمَّ غالباً يوماً بعد يوم.

«أشتاق إليه، يا ماري. واحترتُ بما أفعل». كانت تُعاملني على أنّي بتُّ راشدة، ربمَّا لأنّني مذ جئتُ إليها لم أشتكِ فقدانَ أحدٍ قطُّ،

وذلك لمجرَّد أنّ الأشياء إذا قيلت أصبحت حقيقيَّة، لذا كنتُ أحفظها لنفسي. بل ليس هذا، ربَّما لأنّني في الليل عندما تلفُّني الهواجس اللاسعة مثلما يلتفُّ القَزُّ بلُعابه، أحاول إقصاءها عنِّي تماماً.

«ليست حياةً هذه التي نعيشها منفصلَيْنْ» تتابع خالتي «عمُّكِ يهبط إلى القرية مرَّةً كلَّ فترة، ثمَّ يختفي أسابيعَ أو أشهر، ولا أعرف خلالها عنه شيئاً ... أجفل في بعض الليالي من نومي موقنةً أنّه قد مات، وأقضي النهار التالي بالدعاء لروحه».

في أثناء تلك الأعوام الأربعة التي أمضيتُها هناك، لم أرَ العمَّ زلزال مطلقاً. لكنّني أدرك الآن أنيّ أحسستُ بوجوده.

في المرَّة الأولى أيقظتني ضجَّةٌ ظننتُ أنّها جرَّاء اقتحام أحد اللصوص. يا مريم العذراء أنقذينا، قلتُ في نفسي آنذاك وأنا أرتجف. ثمَّ تلاشت الأصوات. أمَّا في المرَّة الثانية، فسمعتُ صوتاً عميقاً لرجلٍ مّا، ولم أفهم إلَّا لاحقاً أنّه صوت العمِّ زلزال.

كان يهبط إلى البيت في الليالي المريعة، يتزوَّد بالمؤن ويستدفئ بنار الموقدة. وإن كانا يمارسان الحبَّ، فقد استوعبتُ ذلك عندما تزوَّجنا أنا وبييترو، حين كنتُ في السابعة عشر عاماً وهو في الثاني والعشرين. كنَّا في بيتنا الذي في ماكيا نُصدِر الأصوات الضارية ذاتها التي كنتُ أسمعها من غرفتي تُدوِّي في كوخ خالتي زلزال. إلَّا أنّني حينذاك كنتُ أضغط الوسادة على رأسي، إذ أشعر بالرهبة من ذلك الخُوَار.

وفي نهاية كلٍّ من تلك الزيارات الليليّة، قبل الفجر، كانت الخالة ترافقه حافيةً إلى الباب وتنظر إليه وهو يبتعد. يعاود الصعود بوثباتٍ كبيرةٍ ورشيقة نحو الجبل، على الدرب المؤدِّي إلى الغاب.

ولكنْ، ذات ليلة، جاء العمُّ زلزال وتغيَّرَ كلُّ شيء. كان شهر يونيو، حيث يطيل النهار ضوءَهُ الدافئ إلى ما بعد ساعة العشاء، وكنتُ أمشي حافية القَدَمَيْن على المرج المجاور للمشرب: عندما لا تنهمك خالتي بالنسج، كنَّا نستمتع بالنسمات العليلة المتصاعدة من العشب والأرض الرطبة، ثمَّ نجلس على مقاعد من الخيزران محطَّمة، نتابع تحويم الحباحب ونعدُّ النجوم.

بيد أنيّ في تلك الليلة أفقتُ على قرقعة أدوات المطبخ. هي إحدى تلك الليالي التي يجيء بها العمُّ زلزال.

لكنّهما لم يتهامسا، بل كانا يتكلَّمان بصوتٍ مرتفع، لم ينزويا في الغرفة، بل كانا يتحرَّكان كما لو أنّه النهار، دون احتراسٍ من إثارة الجلبة. كنتُ أسمع كلَّ شيء من سريري. كانا يُمسكان الأغراض، يُحرِّكان القدور، يُعبِّئان السلال، يُفرِّغان الدِّلاء.

كان العمُّ يدخل ويخرج، وكنتُ أسمع انسكابَ الماء في الدِّنَان الزجاجيّة وقَلْقَلَةَ السطول. وكانت الخالة في الأثناء منشغلةً بالطبخ، حتَّى وصلتْني رائحة الزيت الساخن وهو يفور في المقلاة، لكنّي تظاهرتُ أنيّ نائمة، وحاولتُ أن أطرد الهواجس التي تتبادر إلى ذهني.

فتحتْ خالتي باب الغرفة بَغْتَةً، ودخلتْ لتجلس على السرير.

«أعرف أنّكِ مستيقظة» همست. لكنّي أبقيتُ عينَيَّ مغمضَتَيْن، مثلما كنتُ أفعل في صغري.

فداعبتْ رأسي، ثمَّ انحنتْ وتركتْ لي قبلةً طويلةً على خَدِّي.

«افتحي عينَيْكِ، يا ماري».

فتحتُهما، وقعدتُ على السرير، فعانقتْني خالتي مثلما لم تفعل من قبل.

كانت تهرسني بجسمها الضخم، وتغمسني برائحة القلي.

ثمَّ انزاحت عنِّي.

«أنتِ قويّةٌ، يا ماري» قالت «لم يعد لديكِ حاجةٌ إليَّ».

نهضتُ وخرجتُ بهدوء، وتركتُ الباب موارباً.

تناهى إليَّ صوت تجميعها لأدوات المطبخ والأطباق التي كانت تضعها في الجُرْن.

لا بدَّ أنّ العمَّ بانتظارها في الخارج.

وبعد أن انغلق باب البيت، لم أعد أسمع شيئاً.

بقيتُ متسمِّرةً في مكاني، قاعدة على السرير. ثمَّ اضطجعتُ على أحد جانبَيَّ.

وعند الفجر، عندما بدأ الضوء يتسرَّب على استحياءٍ، نهضتُ.

كان باب الغرفة ما يزال موارباً مثلما تركتْهُ خالتي.

البيت فارغ، لا وجود لعبق القهوة. وحتَّى نقَّار الخشب كفَّ عن النقر في ذلك الصباح. وعلى الطاولة ثمَّة سلَّةٌ فيها فواكه وخضروات، وطبقٌ فيه جناحا دجاجة نِيْئَان. وهناك دنَّان من الماء على الأرض بجانب الموقدة.

لم أذهب إلى المدرسة في ذلك الصباح، مع أنّها كانت الأيَّام الأخيرة، وودِدتُ أن أُودِّع المعلِّمة.

وما زلتُ أدخل البيت وأخرج، مُؤمِّلةً أن أجد خالتي جالسةً إلى النول حين عودتي، أو أن أراها في خروجي منحنيةً في البستان تقصُّ الأعشاب الضارَّة، أو في الخُمِّ تنثر الحبوب.

جاء القِطَّان بعد قليل.

بحثا عنها وعن وجبتها، فلم يجدا لا هذه ولا تلك، فراحا يموءان ويتمطَّطان، ثمَّ انصرفا بعيداً.

لم آكل في ذلك اليوم كلِّه إلَّا دُرَّاقةً واحدة. كنتُ أمشي نحو الريف، أصرخ بكلِّ ما في حَنْجَرَتِي من صوت، ولكنْ، لم يسمعني أحد، ولا حتَّى المزارعون في عزبة الدون آخيل ماتسيي. كما لو أنّي بقيتُ في الدنيا وحيدة.

وفي الليل، على السرير، كنتُ أظلُّ بعينَيْن مفتوحَتَيْن على وسعهما.

ثمَّ بدأتُ أجول في البيت بثقةٍ أكبر شيئاً فشيئاً؛ لم يعد يُخيفني أنّه خاوٍ. صرتُ أستمتع بالتصرُّف كراشدة، أُطعِمُ الدجاج وأتناول بيضةً بين الحين والآخر أو أُحضِّر البيض المخفوق، أذهب إلى عزبة ماتسيي لآخذَ قطعة خبز أو لتر حليب قائلةً إنّ خالتي ستدفع ثمنه لاحقاً، وفي المساء أُغطِّس فيه البسكويت المتيبِّس. وبتُّ أنام في الليل كما في السابق، حتَّى الأصواتُ التي تُفزِع نومي منذ مغادرة الخالة، رحلت إلى مكانٍ آخر.

وهكذا حدث أنّي تعلَّمتُ العيش بدون خالتي، كما لو أنّ الأمر طبيعيّ. كنتُ أسمع طَقْطَقَة الدلو آتيةً من المشرب، فأتذكَّر أنّني عطشى أو جائعة. كان هو الفتى الراعي في أثناء مروره من هناك يتوقَّف لإشراب الكلاب. فأخرج وأُلوِّح بذراعي لأُسلِّم عليه، فيبادلني ابتسامةً عريضة.

فكَّرتُ أنّ شيئاً لم يتغيَّر بالنسبة إليه، فيما تغيَّرَ كلُّ شيء بالنسبة إليَّ. لقد أصبحتُ كبيرة، يسعني العيش بمفردي. كنتُ آكل بعض الفواكه وكسرة خبز مُبلَّلة بالزيت، وأُمضي الأيَّام أرنو إلى ذرى الجبال وأفكِّر.

صارت كاوزلي، برؤيتها من بعيد، مجرَّد ذكرى.

انتهت المدرسة في تلك الفترة؛ وقد انقطعتُ عنها، مع أنّه كان آخِرَ أعوامي الدراسيّة.

انشغل بال المعلِّمة دوناتي، وجاءت إلى البيت في عصر أحد الأيَّام، ووجهها مغطّىً بخمارٍ داكن اللون وعيناها متخوِّفتان. كانت تخشى أن تكون ملاحَقةً من مخبرٍ للحرس الوطنيّ. لم تستقلّ العربة، بل قدمت على سرج فَرَسٍ أدهم كامل الأوصاف، وجِلْده من شدَّة لمعانه تحسَبه مَطليّاً.

اختلقتُ عذراً: خالتي ذهبت إلى إحدى المزارع لرؤية حصانٍ مريض.

«جلبتُ لكِ كُتُباً» قالت المعلِّمة ونظرتْ حولها «من أجل هذا الصيف». وبالفعل كنتُ قد أتممتُ قراءة ما لديَّ منذ مدَّة، وصرتُ أُعيد قراءتها حتَّى الإعياء في تلك المساءات عندما أُنهي كلَّ ما يجب فعله.

أخرجتْ عشرة مجلَّدات صغيرة وملوَّنة من حقيبة جِلْدِيَّة كبيرة.

«حتَّى لو انتهت مرحلة التدريس الإلزاميّ بالنسبة إليكِ، يسرُّني أن أزوركِ من حينٍ إلى حين».

لعلَّها كانت تنتظر جواباً، لكنّي لم أُسعدها. «أنتِ تلميذة مثابرة جدَّاً، يا ماريّا. أشطر مَنْ في الصفِّ. وإحدى أفضل التلميذات اللواتي

علّمتهنَّ بالتأكيد». شعرتُ كما لو أنّ أحداً سدَّد ضربة إلى بطني، إذ انقطعت أنفاسي. لم أتلقَّ مديحاً من هذا النوع من قبل. «أودُّ أن أُجهِّزكِ لامتحانات القبول بالمدارس العليا، لكي تتمكَّني من متابعة دراساتكِ». سكتت قليلاً. «إن كان لا طاقة لخالتكِ أو أبوَيْكِ على ذلك، فسوف أكفله بنفسي».

لم أردّ، بل شعرتُ بالذنب كما لو كنتُ دجَّالة، كما لو أنّي كذبتُ عليها دوماً، لا يمكن أن أكون أنا تلك التي تتحدَّث عنها المعلِّمة.

«هل لي أن أُداعب حصانكم؟» سألتُ.

ابتسمتْ. «سآتي للتحدُّث مع خالتكِ، لأطلب منها الإذن في تجهيزكِ للامتحانات».

كنتُ أريد أن أبقى بمفردي، لا رغبة لي سوى في تلمُّس ذلك الحصان الأسود الجميل الذي كان ينفث لإبعاد الذباب الذي يحوم حول خطمه.

«تعالي» قالت المعلِّمة دوناتي.

حطَّت الكُتُب على الطاولة، وأخذتْني من يدي. وفي الخارج، أمسكت الحصان من رسنه، وأخفضت خطمه، لكي يتسنَّى لي مداعبته.

7

عندما جاء أبي ليأخذني، كنتُ أُضرم النار في الموقدة. لم أكن قد رأيتُهُ منذ قرابة خمسة أعوام، ولم يعرفني. كان قد تقدَّمَ في السنِّ، لكنّه ما زال يرتدي القميص الثقيل ذاته، والبنطلون الصوفيّ الخالص ذاته، وينتعل حذاء العمل الثخين ذاته.

أمَّا أنا، فلا بدَّ أنّي تغيَّرتُ كثيراً، لأنّه نظر إليَّ كما يُنظَرُ إلى امرأة لا ابنة. لكنّ الأمر لم يدم سوى لحظة وجيزة، ثمَّ استعاد طبعه، ورقَّت عيناه فجأةً.

«ماري» قال، وفهمتُ من صوته المبحوح أنّه تغيَّرَ كثيراً، ولكنْ، ليس كلِّيَّاً.

ظلَّ واقفاً عند العتبة بالهيئة نفسها التي اتَّسم بها الجنود الذين سيجيئون لاعتقالي في مغارة غاب كاكّوري بعد أحد عشر عاماً.

«لقد كبرتِ، يا ماري. تحرَّكي» قال. كان طيفه داكناً ونحيفاً، وأكثر ضعفاً. «جعلتِني أخسر يوم عمل كاملاً، أتدرين؟» كان ذلك صوت مَنْ لا يتحدَّث كثيراً. تُرى ما الذي حلَّ بكلماته كلِّها؟

بحثتُ عن عينَيْه، لكنّه كان واقفاً بانعكاس الضوء وقد أخفضهما كما لو أنّه يتحرَّى بالأرضيّة. «ينبغي تغيير هذه الألواح» قال «لقد تلف معظمها».

دخل وداس على لوحٍ منها، وكاد ينفلق تحت وطأته. «كيف استطعتُما العيش في هذه الحال، أنتِ وخالتكِ، طوال تلك السنوات؟»

جمعتُ أغراضي في الحقيبة القماشيّة نفسها التي جئتُ بها منذ خمسة أعوام، وغادرتُ كوخ الخالة مادّالينا إلى الأبد.

في البيت، كانت والدتي تضع قطعة حطب في المدفأة، وقد شمَّرت عن ساعدَيْها، وكشفت الرداء عن صدرها من شدَّة الحرارة.

كانت تبدو شابَّةً من خلال الضوء المتسرِّب من النافذة، بوجهها المحمرِّ وشَعْرها الأشعث، مع أنّ ظهرها محدودبٌ وحركاتها متثاقلة. التفتت عندما دخلتُ، ولمعت عيناها بَغتةً.

«أوه!» هتفتْ «لقد أصبحتِ كبيرة».

نفختْ على النار، وأغلقتْ فتحة المدفأة. ثمَّ جاءت لتعانقني، فغمرتني ولم تفكَّني بعدُ من عناقها، وفي تلك اللحظة أحسستُ أنيّ عدتُ إلى البيت حقَّاً؛ لوهلةٍ وجيزة، من دون أن تقول شيئاً، شعرتُ أنيّ سأغفر لها أنّها أبعدتْني عنها لأمدٍ طويل. كنتُ هناك، وهي معي، هي أُمّي. كانت قنشنزا خلفها، تتوارى بالظلام، وتنتظرني كأنّني أفضل الأخوات. وما إن رأتْني هبَّت لملاقاتي.

«ماريّا» قالت «لقد عدتِ. انتظرناكِ عُمُراً بأكمله!»

ظهر طيف تيريزا، بلا صوت، أمام باب الغرفة، بالمنامة الحرير المزركشة التي تنفتح كلَّما هبَّ الهواء. جاءت لترى إن كنتُ قد تغيَّرتُ. أجل، تغيَّرتُ، بتْنا من الطول نفسه آنذاك. أمَّا هي، فظلَّت على حالها، النظرة الثعبانيّة الثاقبة نفسها، الجبين الضيِّق نفسه، الصدر الكبير

نفسه. وحالما رأيتُها عاودتْ نبرةُ صوتِها ذهني، ولعنَتُها التي لم أنسها يوماً. «سأُدمِّر حياتكِ» أقسمتْ. وكانت عيناها هناك تقولان إنَّ القَسَمَ ما يزال سارياً. حدَّقتْ إليَّ، ثمَّ ومن دون أن تُحيِّيني عادت إلى الغرفة، وصفقت الباب.

لاحظتُ أنّ في البيت شيئاً غريباً، ولم أنتبه إليه إلَّا بعد قليل. كانت هناك لوحاتٌ زيتيّةٌ صغيرة مؤطَّرة ومعلَّقة على الجدران: مشاهد من حياة تيريزا السابقة، ذكرياتٌ ملوَّنة تُبرِز ثراءها. في إحداها تظهر بصحبة الكونتيسة روزانّا بلا شكٍّ، الأمّ المتبنِّية، كانت في ريجّا دي كازيرتا. وفي لوحة أخرى تظهر مع أبيها المتبنِّي، بالبدلة الرسميّة والقبَّعة الأُسطوانيّة، متبسِّمَيْن، متعانقَيْن، على أحد الشواطئ، مستندَيْن بظهرَيْهما إلى قارب صيد صغير. ثمَّ تظهر بمفردها في الثالثة، بمقطعٍ جانبيّ، تنظر إلى السماء، داخل حديقةٍ مليئة بنباتات غرائبيّة الشكل. كانت تبدو في اللوحات جميعها أجمل وأشدَّ ألقاً ممَّا هي عليه في الواقع. تلك قصَّة حياتها المَروِيَّة عبْر الصور، قصَّة حياتها أيَّامَ رغد العيش؛ وقد أبرزتها على مَرأى عائلتنا، لتُذكِّرهم بأنّها خرجت من رَحِم والدتنا عن طريق المصادفة أو الخطأ، وأنّها ما كانت لتنتمي يوماً إلى الحيطان المسوَّدة بفعل الدخان، أو رائحة الحساء أو الثياب المرقَّعة. تساءلتُ لماذا سمحوا لها بتعليق تلك اللوحات؟ لماذا يسمحون لها بإذلالهم؟ ثمَّ ها هي الدمية الخزفيّة، هديّة المتبنِّيَيْن اللذَيْن لم أعرفهما أبداً، كانت هناك في مَعرِضٍ جميل، مُعلَّقةً بمسمارٍ على المدخنة الحجريّة، بفستانها الأحمر المتمزِّق، بلا ذراع، بلا أنف، وبحَدَقَةٍ مفرَّغة. لم أكفّ طيلة تلك السنوات عن التفكير بتلك الدمية.

كان رافّايلي قد سافر قبل عدَّة أسابيع.

لم نتودَّع، إذ جاء قراره مباغتاً، حيث أعلمه أحد معارفه عن شغور مكانٍ للعمل، فركب أخي أوّلَ مركبةٍ عموميّة تُقلُّه إلى نابولي. كان خلافاً لوالدي، لا يريد أن يُكسَرَ ظهره في الحقول، فغادر كازولي بحثاً عن السعد في العاصمة.

هو مثلي، ومثل بقيّة إخوتي، تردَّدَ إلى المدرسة لأعوامٍ دراسيّة قليلة، تلك التي يستطيع والدي تحمُّل نفقاتها. لكنّه كان شابَّاً قويّاً ومفعماً بالنشاط، وُظِّفَ بستانيَّاً في منزل أحد النبلاء الكامبانيِّيْن، وكان سيشقُّ طريقه من هذا العمل، لكي يؤسِّس ثروة، على حَدِّ قوله، ويصبح ثريَّاً.

«بستانيٌّ يصبح ثريَّاً» انفجرت تيريزا ضحكاً كلَّما وصلتْ رسائلُ رافّايلي المطمئنة والمبهجة «لم أرَ ذلك في حياتي».

كان يكتب في رسائله أنّه مشتاقٌ للجميع، وأنّه لم يعرف الحُرِّيَّة حقَّاً قبل وصوله إلى نابولي، فلن يفهم المرء معنى الحُرِّيَّة إلَّا في مدينةٍ كبيرة كتلك. *لا أحد يعرفكَ هنا* – يضيف – *بإمكانكَ فعل ما تشاء. حتَّى لو أردتَ الخروج عارياً.*

تتظاهر والدتي بالخجل من سماع هذه التُرَّهات. لكنّها مجرَّد تمثيليّة، لأنّها تعلم جيِّداً أنّ رافّايلي ما كان يبعث الرسائل إلَّا لها، لينتزع منها ابتسامة، ليجعلها تقول «هذا الولد غبيٌّ كثيراً» كما يحدث في كلِّ مرَّة، وليجعلها تتخيَّل قبل أن تخلد للنوم أنّ حياة هذا الولد ستتكلَّل ربَّما بالنجاحات والحُرِّيَّة.

وهكذا منذ أن عدتُ، أصبح سرير رافّايلي لي. وكنتُ في كلِّ ليلةٍ أنام في روائح ذلك الأخ الأكبر الذي لم يعد موجوداً حينها.

أتممتُ الاثنَي عشر عاماً في الثلاثين من أغسطس. لم تكن والدتي

ترتاد الكنيسة مطلقاً قبل مجيء أختي الجديدة، فإذا هي في ذلك اليوم تسحبني معها للاعتراف. كان يوم ثلاثاء.

«عسى أن تزول عنكِ البلايا» قالت وهي تجرُّني من كُمِّ قميصي.

لم تكن أيُّ بليَّةٍ قد نزلت بي، وتلك ليست بكلماتها، إنّما كلمات تيريزا في فمها. فأمِّي كانت ترى أنّ الغاب والجبل يزيلان كلَّ شيء، وما البليَّةُ إلَّا شؤم المدينة، والبلدة، حيث يتغلغل النحس إلى داخل النظام، وينبغي النيل منه عندئذ.

لم أكن قد اتَّجهتُ إلى الكنيسة يوماً، وما ذهبتُ إليها في صغري إلَّا لكي أشاهد وجه العذراء المفتون ضمن لوحات الأفريسك، بتعبيرٍ كان يبدو شائناً، يمثِّل شهوةً جسديّة؛ على عكس تيريزا التي كانت تذهب كلَّ يوم للصلاة، ويوم الأحد للقدَّاس. ثمَّ كنتُ أنظر إلى لوحة «نسخة عن *استشهاد متَّى*» كما كان مكتوباً على الصفيحة المعدنيّة الملولبة على الإطار، وأبقى مشدوهةً قُبَالَتها. كيف يُعقَل أنَّ لا أحد من أولئك الذين هُرِعوا إلى واقعة القتل لا يحرِّك إصبعاً؟ لماذا يقتصر جميعهم على التلصُّص؟

لم يشأ كاهن كازولي الاستماع إلى خطاياي عندما جثمتُ في حجرة الاعتراف الصغيرة من خشب الجوز الداكن. إنّما قال بصوتٍ حادٍّ إنّني إذا تلمَّستُ جسدي أصبحتُ «شمعةً سوداء أمام يسوع».

لم أفهم، فردَّدَ: «تصبحين شمعةً سوداء أمام يسوع».

لم أتملَّك الشجاعة للحديث، أرعبتْني تلك الصورة، فأمسك يدي ورماها هناك. وفي تلك اللحظة تحطَّمَ شيءٌ مّا في داخلي.

سأموت باكراً، واثقةٌ من هذا، قلتُ في نفسي.

ثمَّ خرجتُ أخيراً وبلغتُ أُمِّي التي ظلّت جاثمةً عند المقعد الأوَّل تتظاهر بالتعبُّد مثلما تفعل ابنتها الأخرى تلك.

وقعتُ فريسة الشعور بالذنب، فقرَّرتُ في تلك الليلة أنّني سأنال حُرِّيَّتي ذات يوم. وحينذاك عاودتْ ذهنيَ كلماتُ المعلِّمة دوناتي ووعدُها الذي قطعتْهُ: كنتُ سأُكمل دراستي. سأرحل عن ذلك البيت، وتلك العائلة، وتلك البلدة، عن قطّاع كالابريا الأدنى، والمملكة، وكلِّ شيء.

إلَّا أنّ القلب لا يموت، حتَّى إذا بدا وشيكاً على الموت. هذا ما أدركتُهُ يومئذ. وإنَّ الحُرِّيَّة، في المكان الذي لم تصل إليه بعد، تتَّخذ شكلَ ما هو موجودٌ فيه، قبل أن تبدو شبيهةً بالعار.

8

في ذلك العام اكتشفتُ أنّ في داخلي صيفاً لا يُقهَر، وسط أقسى الشتاءات.

غطّى الثلج كلَّ شيء، الأمر الذي لم يقع منذ أعوام طويلة، حيث كان تساقط الثلوج على جبال سيلا في شتاء سنتَي الثانية عشرة هو الأكثر كثافةً. إذ استمرَّ أسبوعاً كاملاً، علقت خلاله العرباتُ في وسط الساحة ترزح تحت مترٍ من الثلج، وتعذَّرَ عليها سلوك الدروب التي تهبط إلى الوادي؛ انطفأت مصابيح الشوارع القليلة، حتَّى صار الظلام يكتنف البلدة عند الغروب، ويُخليها من الناس مثلما لم يحدث من قبل. كنَّا منغلقين في البيت، بما تبقَّى لدينا من حطب، يطمئننا دفءُ المدفأة بقَدْر ما يدوم، نتأمَّل الأشياءَ كيف تصبح بيضاء كالسماء، ثمَّ يبتلعها الصمت: سياج البيت المقابل وعتباته، النافورة الحديد في الفسحة، عتبة إسطبل الدون لويجي، سطح دكَّانة الدون طونيو.

ولكنْ، خلال أربعة أسابيع، ومن دون سابق إنذار، انتفخ نهداي كحبَّات الشمَّام، وعرضت خاصرتاي، وازدادت قامتي طولاً. فالمعجزة التي كانت تحدث في الخارج وقعت في داخلي أيضاً، وتركتْني مذهولة. كانت تيريزا ترمقني من بعيد بما ينمُّ عن حسدها، ولا بدَّ أنّها كانت تكيل لي اللعنات.

وكان الحياء يجتاحني كما لم يفعل من قبل، لم تعد الفتاةُ التي أراها في المرآة تشبهني، وبتُّ أشكر الثلج، لأنّه أجبرني على البقاء في البيت. صرتُ أشبه أُمِّي: ثدياي كبيران ومكوَّران ويؤلمانني، خاصرتان ممتلئتان بحيث لم تعد التنُّورة الجوخ تناسبني، وعينان نجلاوان عميقتان ومطاولتان توشكان على التوسُّل. وعندما انقطعت الثلوج، وسحبتني أُمِّي خارج البيت عَنْوَةً، كان الرجال في الشارع ينظرون إليَّ – بشهوانيّةٍ سرعان ما تحوَّلت إلى فضول – وغمزني أحدهم. وقد نابني النفور من تلك النظرات، وأحسستُ أنّي محاصرة. وكنتُ واثقة من أنّ هذا الجسد الذي يشعرني بالإحراج سيمنعني من الهرب ذات يوم؛ كنتُ واثقة من أنّ هذا الجسد الجديد الذي يليق بامرأة يعني تعلُّقي بتلك الأرض، وتلك البلدة، وذلك البيت، وتلك العائلة. سأُنجب أولاداً عمّا قريب، آنذاك وقد بتُّ على استعداد، إذ لم يكن يبدو أنّ الرجال يطلبون منّي سوى ذلك، وكان الأولاد سيعيقون عليَّ العيش بحُرِّيَّة الخالة زلزال، وإغماض العينَيْن واستنشاق الغاب وعدم التفكير بشيء آخر، والبحث عن الشمس القريبة من قمم جبل سكورو وكورتشو، والتحمُّم بالبحيرات إذا طاب لي، والتيه في الطُّرُق الحجريّة والدروب. والنجاة من خراب العالم والمملكة.

كنت سأغدو مثل أُمِّي، تعيسةً ومَحنيَّةً على العمل، لا وقت لديها للتأمُّل. فأخذتُ أبكي، خلال الليل، لأنّي لم أشأ أن أصبح بالغة؛ لكنّ الأمور تقع من دون استئذان، وليس لنا من خيار، لا يسعنا سوى التكيُّف معها. كانت والدتي تنظر إليَّ وتهزُّ رأسها.

«لقد أصبحتِ جميلة يا ماريّا» تقول، وتتراجع لتراني بشكل أفضل، وتسخِّن في المدفأة الأحجارَ التي كانت تُستَخدم علاجاً لكلِّ شيء،

ثمَّ تلفُّها بقماشة وتضعها على بطني، أو تأتيني بحليبٍ ساخن وعسل أو شوربة الثلج – ثلاث ملاعق من الثلج النقيّ، وعصير برتقال وعسل الكستناء.

«لا أريده» كنتُ أصرخ «دعيني وشأني! دعوني كلّكم وشأني!»

لم أكن أسمح لها أو لغيرها بملامستي، بمَنْ فيهم ڤنشنزينا. فتخفي أُمِّي عينَيْها، وهي لا تعلم أنّ ما لا أريده هو أن أصبح مثلها.

إزاء اهتمام أُمِّي ورجال كازولي بي، اشتدَّت نقمة تيريزا عليَّ.

ذات يوم، جلب لي سالڤو وڤنشنزا قطعة صغيرة من حلوى المعجَّنات والقشدة، مع كرزةٍ حمراء ملبَّسةٍ بالسُّكَّر. كانا يعرفان أنّني أتوقَّف دائماً لمشاهدة تلك المعجَّنات عند واجهة دكَّانة طونيو، وبما أنّي كنتُ حزينة في تلك الأيَّام طلبا من أُمِّي نقوداً لشراء واحدة. تركاها لي فوق الدُّرج، بجانب نقيشة القدِّيسة مارينا عذراء بيثينة، ملفوفةً بورقةٍ ذهبيّة.

«عثرتِ على هديّة» قالت أُمِّي. كانت سعيدة من أنّ أخي وأختي فكَّرا بالأمر.

حللتُ الورقة، ولمستُ الكرزة الحمراء والدبقة بإصبعي، وأخذتُها إلى فمي، لأتحسَّس السُّكَّر، ولعقتُ من القشدة أيضاً. ثمَّ أغلقتُ الورقة. سأتركها لما بعد العشاء، كي أستمتع بها أكثر.

خرجت والدتي لشراء بعض الحاجات، منتعلةً الحذاء الجيِّد الوحيد الذي كان لديها، وطلبت من سالڤو أن يرافقها؛ بينما ذهبتُ مع ڤنشنزا للقيام بأوَّل نزهة بعد العاصفة الثلجيّة. كانت ڤنشنزا قد طرقت باب

تيريزا لتسألها إن كان يروقها المشوار، فذلك مفروضٌ من قِبَلِ والدي، لكنّها كالعادة لم تتصدَّق حتَّى بالإجابة. وعند عودتنا وجدتُ باب البيت مفتوحاً، والحلوى مختفية من على الدُّرج. بحثتُ عنها في كلِّ مكان، ولم أجدها.

كانت تيريزا قاعدة على سريرها، لكنّ باب غرفتها مفتوحٌ على غير العادة، وكان في حضنها أحد القطط التي تعيش في الأزقَّة المجاورة لبيتنا، تداعب وبره كما لو أنّه ليس مليئاً بالبرغوث.

وكان شارب الحيوان وشدقه مُلطَّخَيْن بالقشدة.

حَلوتي.

«دخل هذا الشقيُّ إلى البيت، وثب إلى الدُّرج والتهمها» قالت شقيقتي بنبرة تحدٍّ وهي تطيل النظر إليَّ. كنتُ أعلم أنّ ذلك مستحيل: فالقاعدة تنصُّ على إغلاق الباب جيِّداً منعاً لتسلُّل القطط والكلاب لاستجداء الطعام. أردتُ أن أُدفِّعها ثمنَ فعلتها، لكنّ سالڤو أوقفني قبل أن أشدَّ شَعْرها. أمسك ذراعي وهزَّ رأسه مستنكراً باستسلامٍ حوَّلَ الغضب إلى إحباط.

غير أنّ القَدَرَ يهاجمكَ أحياناً بلا إنذار وأنتَ منهمكٌ في خوض معركة أخرى، وقواكَ خائرةٌ بحيث لا يسعكَ حتَّى البحث عن منفذٍ إلى السعادة.

«الآن وقد أنهيتِ الدراسة لا يمكنكِ البقاء من دون صنع شيء» قال أبي ذات مساء ونحن على العشاء.

كانت تيريزا تتناول اللحم كالعادة، في حين أنّنا ما زلنا نجترع حساء

القُنَّبِيْط والبطاطس دون أن نُبالِيَ بالروائح الشهيّة التي تتصاعد من طبقها.

«ماريّا، عليكِ أن تعملي. مثل سالڤو، الذي يساعدني في المزارع ... ومثل رافّايلي، الذي رحل إلى نابولي».

لم أردّ، ولم يجرؤ بقيَّة إخوتي على فَتْح أفواههم. لكنّ كلامه ليس طلباً، أو اقتراحاً، إنّما أوامر.

«صحيح» تدخَّلت تيريزا. شدَّ سالڤو قبضته. «إذا كان الآخرون يعملون، فلا بدَّ أن تعملي أنتِ كذلك».

كانت تنظر إليَّ باستفزازٍ اعتدناه منها، جالسةً إلى وركها، تؤرجح فردة الخُفِّ على رؤوس أصابعها. فيما تحملق والدتي بالحساء حزينةً.

لا حيلة لديَّ، كنتُ أعلم ذلك، ضغط العائلة لا يُقاوَم، فهو أقوى منِّي كثيراً. وهكذا، بدءاً من اليوم التالي، بدأتُ العمل بالنَّسْج، بجانب أُمِّي، كلَّ صباحٍ وكلَّ ظهيرةٍ ينزلهما الربُّ على الأرض. كما لو أنّنا زميلتا عمل، امرأتان متشابهتان بالمصير نفسه، تحرِّكان أيديهما بانسجامٍ وتُدوِّران معصمَيْهما، وتحنيان رأسَيْهما معاً. لم يكن هناك داعٍ أن تُعلِّمني حتَّى: كنتُ أراها تعمل منذ أن وُلِدتُ. أمَّا في ذلك الصباح، فقد أمسكتُ المكُّوك، وأدخلتُه في الممرِّ المفتوح بين خيطان السدى، كأنّها حركةٌ تنتظرني منذ الأزل. وبين يومٍ وآخر، ودون أن أنتبه للأمر، أصبحتُ نسَّاجةً لمصلحة عائلة غولّو. تحقَّقَ كلُّ ما لم أكن أريده بالفعل. كنتُ أنظر إلى المرآة، فأرى فيَّ والدتي. ثمَّ أنظر إلى أيقونة القدِّيسة مارينا، الراهبة التي تجسِّد تضحية النساء، وأتساءل عمَّا إذا كانت هي التي أنزلت بي اللعنة. لطالما تحدَّث رافّايلي عن وجود أيقونَتَيْن متطابقَتَيْن

للقدِّيسة، على الدُّرج، قبل أن أُولَد. ثمَّ اختفت إحداهما ذات يومٍ فجأةً. وهكذا، في ليالي تلك الأيَّام الأولى من العمل لدى غولّو، صرتُ أحلم أنّ القدِّيسة مارينا تتسكَّع في البيت، تدنو من أُذُني وتهمس لي بكلماتٍ بذيئة لا يسعني فهمها؛ فأفرُّ إلى الخارج، وأهيم راكضة في أرجاء البلدة وأنا أصرخ بتلك الكلمات كما لو أنّها حقائق مقدَّسة أنزلها الله عليَّ أنا وحدي، ولكنْ، لا أحد يفهمني، لا أحد يُدخِلني إلى بيته، بل إنّ الجميع يصدُّونني عنهم كما لو كنتُ مجنونة أو مشعوذة، ويقولون لي بأن أنصرف، وأن أتَّجه إلى الغاب. وكنتُ في كلِّ صباح أصحو وأنظر إلى الدمية الخزفيّة التي علَّقتْها أختي فوق المدفأة: كانت هناك لتُذكِّرني بمصيري.

غير أنّ والدي أيضاً، منذ أن عادت تيريزا، كان قد تغيَّر.

جعلته الديونُ صموتاً وشرسَ الطباع. في الماضي كان يملأ البيت بكلماته، وحينذاك لم يعد يتكلَّم، حتَّى في أيَّام استراحته النادرة، وحتَّى عندما يفلق الحطب.

كان يرفع صوته ويناوش أُمِّي، أو يناوشني، من أجل تُرَّهَات. كان في الشتاء يكرِّس نفسه للصيانة في عُزَبِ آل موريليّ، واضطرّه ثلجُ ذلك العام إلى مراجعة عمل اليوم السابق كلَّ يوم، ناهيكَ بواجبات اليوم نفسه، كما أنّ المعاش انخفض جدَّاً بعد تعسُّر استثمار التخشيبة.

«الحساء ينقصه الملح!» يصرخ «الهِندِبَاء باهتة، لا طَعْم لها!». فتهزُّ أُمِّي رأسها وتتركه يقول ما عنده.

كان والدي في مساء السبت يخرج مع بعضٍ من رفاق العمل، يختبئون في كهف أحد مزارعي موريليّ لشرب الخمر ولعب الورق.

وكان يحدث أنّه يشرب أكثر ممَّا ينبغي. فيصحبه الرفاق إلى البيت حتَّى يضع مفتاحه في القفل. وتظلُّ أُمِّي واقفةً والقنديلُ خافِت، محاوِلةً أن تتظاهر بأنّه ما من شيء خطير؛ وعندما تسمع وصوله تهِمُّ بترقيع الجوارب، إلى أن تُطفِئ الجمر في المدفأة، فترفع الستارة، وتغسل القُنَّبِيْط ورقةً ورقة. أنا أيضاً لا أستطيع النوم قبل عودة والدي.

ذات ليلة، كان يترنَّح حتَّى جلس إلى الطاولة حيث كانت أُمِّي تنتظره وهي تُرقِّع بعض البنطلونات.

«أنا جائع، ولا يوجد ما يُؤكَل. عطشان، وليس في هذا البيت قطرة نبيذ!» صاح بشراسة. كنَّا مستيقظين جميعاً، في أسِرَّتنا، ولم يجرؤ أحدٌ على قول شيء. كان لديه رغبة بالمشاجرة، أدركتْ والدتي ذلك. لكنّ أبي ألحَّ، وزعق، كما لو أنّنا لسنا موجودين.

تنحنحت أُمِّي، وتكلَّمت بهدوء: «رُفْقة السوء هذه تقتادكَ إلى درب الضلال» اكتفت بهذا القول.

على الرغم من بساطة تلك الكلمات، فإنّ القدرة على التلفُّظ بها في وجه ربِّ البيت كان قد كلَّفها ليالٍ طويلة من الأرق. كانت بمثابة تعيير: فمن غير المسموح إلاَّ الصمت في وجه الرجل.

لم ينبس أبي في البدء، ثمَّ خبط قبضته على الطاولة بقوَّةٍ شديدة.

«اخرسي، فأنتِ لا تعرفين أيَّ شيء عن العالم. منغلقةٌ على نفسكِ في البيت طوال الوقت تنسجين، وتتفوَّهين بالهراء».

تصاعد صرير الكرسيّ على الأرض، وتبعه صمتٌ طويل. خُوَار، صوتُ أوراقٍ تُنتَزع، ثمَّ تتجعَّد بقوَّة اليد، وتستقرُّ في المدفأة أخيراً.

فتحتُ عينَيَّ عندئذ. لم أتملَّك الشجاعة للنظر في وجهه خوفاً من أن أجد فيه ملامح مريعة، كان قد ألقى بشيءٍ مّا وسط الجمر، ووقف حينها أمام أُمِّي، يده مرفوعة ومتحيِّرة على بُعد نصف مترٍ عنها، لتنهال عليها. كانت أُمِّي تنظر غير مصدِّقةٍ إلى ذراع أبي المرتجفة، والنور يتراقص حزيناً في عينَيْها.

ثمَّ أخفض أبي ذراعه ببطء. ذهب ليغسل وجهه، نزع ثيابه ورقد على السرير خلف الستارة دون أن يقول شيئاً.

أطفأت أُمِّي القنديل، وظلَّت على الأريكة.

نهضتُ وبحثتُ عن يدها تحت الظلام. وقلتُ لها بالهمس أن تأتي للنوم في السرير معي. كان شخير والدي يملأ الغرفة أساساً.

«ليس شرِّيراً» ردَّت بصوتٍ خفيض «لم يمسّني بسوء يوماً. فبعض الرجال لا يفعلون شيئاً سوى ضرب زوجاتهم» ثمَّ داعبت وجنتي ووشوشتْني: «نحن نسوة، يا ماري، كان من الأفضل لو وُلِدنا رجالاً. ليس أمامنا سوى تلقِّي العنف. عليكِ أن تتوخّي الحذر، فالرجال الصادقون نادرون خارج هذا الباب».

عدتُ إلى ا السرير.

لم يُفتَح موضوع تلك الصفعة غير المكتملة نهائيّاً، لا في اليوم التالي ولا بعده. لكنّي أحسستُ أنّها غدت شبه مطبوعة على جِلْدِي، أنا، كأنّها تدمغ ختمَ العمل بصفة نسَّاجة لتقهر عزيمتي.

9

طلعَ صباحٌ منيرٌ بعد ليلة ظلماء، تماماً حينما كان الجميع في كازولي وسائر المملكة لا يتحدَّثون بشيء سوى التجربة المستقبليّة التي أجرتْها مدينة نابولي، إذ تزوَّدت بالإنارة الكهربائيّة. «لا حاجة لنا بساڤويا» يُهمهمون في الطرقات «لا حاجة لنا بڤيتّوريو إيمانويلي. إنّ الملك فردناندو يمدُّنا بالنور والتقدُّم. تحيا مملكة الصِّقلِّيَّتَيْن. يحيا الملك!». غير أنّها كانت هتافاتٌ تُرفَعُ بهدف الثرثرة ليس إلَّا، فالمملكة كانت في مَرأى الجميع على شفير الانهيار.

وهكذا، وبينما كان الثلج يذوب تحت الشمس، وربَّما وجد عوناً من تلك الأعاجيب التكنولوجيّة، كنَّا نخرج من البيوت، وتخرج الخيول من الإسطبلات وتقعقع مبتهجةً للعودة إلى الجري.

كان اللهب في المدفأة خافتاً، وخلف الجذوع تتراءى ورقاتٌ مجعّدة، لا بدّ أنّها التي ألقاها أبي ليلة أمس، لم تحترق لأنّها استقرَّت في الخلف. استعنتُ بالمسعار وحرَّكتُ الحطب قليلاً. كانت صفحاتٍ مكتوبةً بيده المرتجفة، من الوارد أنّه انتزعها من الدفتر الصغير الذي لا يفارقه. فحواها توصيفٌ لوضعه. وبما أنّه يفتقر إلى أسلوبٍ للتعبير، استخدم أساليب الآخرين. تخيَّلتُهُ يقرؤها على رفاقه، خلال الاستراحات، في حقول موريلّي، أو ما بعد العمل.

أخذتُها.

لويجي سيتّمبريني، 1847

في البلد الذي وُصِفَ أنّه حديقة أوروبا، يموت الناس من الجوع الحقيقيّ، ويعيشون في حالٍ أسوأ من الحيوانات. النزوةُ هي قانونه الوحيد، وتقدُّمه تخلُّفٌ وبربريّة. وباسم المسيح المقدَّس يُضطهد شعبٌ من المسيحيِّين. كلُّ موظَّفٍ، من الحاجب إلى الوزير، ومن الجنديّ الغِرِّ إلى الجنرال، ومن الخفير إلى وزير الشرطة، وكلُّ نسَّاخ، ما هو إلَّا مستبدٌّ ظالمٌ وسفيهٌ على مَرؤوسيه، وعبدٌ خسيسٌ ذليلٌ لأسياده. ومَنْ لم يلتحق بصفِّ الطغاة وجد نفسه مسحوقاً من بطش كثيرٍ من عُتاة القَتَلَة. أمَّا مصيرُ السلام، والحُرِّيَّة، والثروات، وحياة الرجال الشرفاء، متعلِّقٌ كلُّهُ بنزوة لا الأمير أو أحد الوزراء، بل أيّ موظَّفٍ صغير، أو عاهرة، أو مخبر، أو حارس، أو قَسٍّ.

هذه كانت حياته، وأراد أن يتحرَّر منها في أثناء نوبة غضب، كأنّه إذا قذف الكلمات إلى النار بدَّدَ الواقع الذي تُوصِّفه. شعرتُ بالخزي لأجله، لأنّي رأيتُهُ عارياً بتلك الأفكار التي ليست من ابتكاره وقد كتبها بخطِّه المرتعش؛ وشعرتُ بالخزي من نفسي، لأنّي تجسَّستُ عليه. فألقيتُ الصفحات بين ألسنة اللهب وتحقَّقتُ من أنّها تضرَّمت بالنار.

ثمَّ جاءت المعلِّمة دوناتي في ذلك الصباح نفسه، ترتدي معطفَ صوفٍ مجعّداً من لونٍ سماويٍّ باهتٍ لم أره عليها في المدرسة. لعلَّها عرفتْ أنّني لم أعد أعيش عند خالتي، فجاءت بحثاً عنِّي. وما إن دخلتْ أحسستُ بغُصَّةٍ في الفؤاد. كانت على دماثتها المعهودة، وابتسامتها المعتادة التي كنتُ أحلم بها ليلاً، ثمَّ لا أتملَّك الشجاعة للاعتراف

بذلك صباحاً. لقد تذكَّرت الوعد الذي قطعتْهُ لي إذاً، فكَّرتُ وشعرتُ أنيّ غبيّة. ربمَّا لم تأتِ من أجله أو قد تُغيرِّ فكرتها آنذاك وقد وجدتْني خلف النول. حتَّى إنّها ما إن رأتْني تسمَّرتْ عند الباب، كما لو أنّها أخطأت العنوان. لكنّي فهمتُ فيما بعد أنّها لم تعرفني للوهلة الأولى.

«كم أصبحتِ جميلة» قالت على الفور.

لم تكن والدتي بمزاجٍ معتدل، أكثرتْ من «من هنا يا سيِّدتي»، «إلى هناك يا سيِّدتي»، «ما الذي بوسعي أن أُقدِّمه لكم»، «في هذا البيت ليس لدينا الكثير»، «آمل أن يرضيكم هذا». لكنّي كنتُ أعرف المعلِّمة وأعرف أنّها لا تهتمُّ بتلك الرسميّات.

«لقد جئتُ إلى هنا، لأنّ ماريّا تستحقُّ أن تُكمل دراستها» قالت بلا تكلُّف، بعد أن قبِلَت فنجان قهوة. تذكَّرتْ وعدها إذاً.

نظرت أُمِّي إليَّ.

«هذه المشاغبة؟» ابتسمت أُمِّي على مضض. كانت فرِحَة، لكنّ الفرح ليس مُرَّحَباً به في بيوت البؤساء ولا بدَّ من كَبْته.

«نادراً ما صادفتُ تلميذاتٍ أشدّ تألُّقاً من ماريّا. أعتقد أنّه بإمكانها التسجيل بسهولة في المدارس العليا بالمملكة».

هزَّت والدتي رأسها. «ليس لدينا نقودٌ لتدريسها» قالت «ليس لدينا لأيٍّ من الأبناء. فأختها الكبرى ...» همَّت بالحديث، لكنّ المعلِّمة قاطعتْها.

قالت إنّه لا يتوجَّب على أبي وأُمِّي القلق بشأن المال. «سأتكفَّل بالأمر بنفسي. سأُجهِّزها لامتحان القبول، وسأدفع نفقات دراستها».

شربت القهوة ووضعت الفنجان على الطاولة. «إن كان ذلك يناسبكم، طبعاً» أضافت.

نظرت أُمِّي إليَّ ثانيةً، وهزَّت رأسها من جديد.

«على ماريّا أن تعمل» قالت. ثمَّ نهضت لالتقاط البسكويت الذي وضعتْهُ على المدفأة لكي يسخن. «مثلي أنا. مثل الأخريات».

«بإمكانها أن تعمل وأن تدرس معاً» ردَّت المعلِّمة دوناتي.

وفي تلك اللحظة انفتحت السماء، ودخل شعاع الشمس من النافذة مباشرة. اجتاز الطاولة، واتَّجه ليصفع الحائط من خلفنا.

كان باب الغرفة موارباً، وطيفُ تيريزا في انعكاس الضوء يتنصَّت علينا.

وعندما غادرت المعلِّمة استأذنتُ والدتي، وانتعلتُ جزمة الخالة زلزال. كبرت قدماي، وغدت الجزمة تلائمهما حينذاك.

بدا لي أنّني لم أكن سعيدة في حياتي كلِّها كما كنتُ يومئذ، وأنّ البيت قد ضاق على تلك البهجة كلِّها. كانت المعلِّمة دوناتي ستُنقذني. اتَّبعتُ غِبْطَة الخيول، فخرجتُ إلى الشمس ورحتُ أركض على الثلج. بدت لي كازولي مقبولةً أيضاً، بما فيها من طُرُقاتٍ موحلةٍ وبائدة، وزبلٍ متراكمٍ منذ أيَّام، وقمامةٍ لم يعد يلمُّها أحد، وآثارِ خراب المملكة. لم أركض منذ زمن، وكلَّما أسرعتُ تسرَّبَ الثلجُ إلى الجزمة وبلَّلَ الجوارب شيئاً فشيئاً وصقَّعَ قدمَيَّ، وكلَّما تغلغل البرد في جِلْدي وعظامي شعرتُ أنّ الحُرِّيَّة تزداد قوَّةً بعد أيَّام طويلةٍ من الانغلاق. خدَّرتْني البرودة وأيقظتْني، كنتُ أستنشق وأزفر غيوماً من دخانٍ كثيف.

لا رغبة لديَّ إلَّا في أن أُواصل الركض، وأتحدَّى الهواء القارس والمؤلم والسعيد، وأن أتوه.

سلكتُ الطريق الذي يفضي إلى خارج البلدة، ووصلتُ بعد ساعة إلى تلَّة بيت خالتي زلزال. راودتْني فكرة بلوغه، لأرى إلى أيٍّ حالٍ تردَّى، أو إن كان أحدهم سطا على القليل الذي تركتْهُ فيه. سأفعلها في مرَّةٍ لاحقة، قلتُ لنفسي، وتابعتُ طريقي.

مررتُ بجانب المشرب واتَّخذتُ الدرب الصاعد نحو بييترافيتّا. وإذ وصلتُ إلى قرية الرعاة، اقتادني دربٌ إلى داخل الغاب. كنتُ أمشي بلا تفكير، متوازنةً نحو الأسفل مثلما كانت خالتي تفعل، دون أن أدري إلى أين كنتُ ذاهبة. ثمَّ بدأتُ أسمع خدش زغبات الكستناء والبلُّوط على الجذوع، وقرقرة الحِدَأة السمراء، إذ تُقلِع من غصنٍ فتتهاوى أكوامٌ من الثلج، ونعيق الغدفان والغربان، وتغاريد الزرياب المتكرِّرة. كنتُ في المكان الذي لم أشعر إلَّا آنذاك بفرط الاشتياق إليه، والحنين المهول، والتوق القَتَّال. غابةُ خالتي. التقطتُ نَفَساً عميقاً، فجمَّدَ الهواء البارد أنفي وجبيني. تلك هي الحُرِّيَّة. فهمتُ خالتي حينها، فهمتُ جَدَّتي تينوتسا. كان عليَّ أن أعيش نقيض الحُرِّيَّة لأتمكَّن من الإحساس بها. في قلب الغاب كنتُ رشيقةً، وكان كلُّ شيء ممكناً.

كلَّما توغَّلتُ حلَّ الشوح الأبيض مكانَ الزان تدريجيّاً، وحين وصلتُ إلى فوق تشيتشي انعطفتُ نحو درب يؤدِّي إلى طريقٍ حجريّ. بتُّ مغمورةً بالثلج كُلِّيَّاً، لكنّي إذا هبطتُ من هناك وصلتُ أوَّلاً إلى ضفَّة المستنقع الكبير. تدحرجتُ إلى الوادي، تاركةً الثلج يلفُّني. كانت مياه المستنقع في الأسفل متجمِّدة جزئيّاً، في الوسط ونحو الجبل، هناك حيث يبقى تحت الظلّ دوماً، والعكس بالعكس من

جهة الوادي، حيث يتلقَّى أشعّةَ الشمس صباحاً، ليبدو مثل جِلْدٍ ممزَّقٍ لثعبانٍ أسود.

نزعتُ عنِّي ثيابي، وانغمرتُ فيه.

لم أكن أشعر بالبرد، كما لو أنّني متدثِّرة بجِلْدَةٍ تقيني منه. واختفى كلُّ شيء: كوني أصبحتُ نسَّاجة، والريب بالمستقبل، وحقد أختي، والخوف من الأمور كلِّها. اختفى كلُّ شيء، امتصَّتْهُ تلك المياهُ الثعبانيّة المتجمِّدة التي كانت تُنجِّيني.

10

بدأت تيريزا تتقرَّب منِّي بدافع المصلحة.

كان هناك شابٌّ قويٌّ يسكن في ماكيا، القرية الصغيرة التي تفصلها تلَّةٌ عن كازولي ونصف ساعة من المشي. كان يعمل فحَّاماً، ويدعى بييترو، يجوب البلدات المجاورة لقريته - سبيتزانو، تشيليكو، سيرّا بيداتشي - بصُحْبة صديقٍ له لمغازلة البنات، وربَّما للعثور على زوجة يوماً ما.

صديقه ليس إلَّا سالڤاتوري مانكوزو، أحد أحفاد آل موريلّي من روليانو. كان مالكاً للمَفْحَمَة التي يعمل فيها بييترو، ولكلِّ مخازن الفحم في المنطقة. وبما أنّ الفحَّام يلقى استلطافاً من جانب الفتيات، كان سالڤاتوري يأتي به للإفادة من ذلك، ويسمح له بمرافقته لتذوُّق القليل من متع الحياة معه.

لم يكن أحدٌ في كازولي يعاملهما على أنّهما غريبان، ناهيكَ بأنّ بييترو يعرف كيف ينال مودَّة الغير، وفي جَعْبَته بعض القروش التي يشتري بها أشياء تافهة تفيده بتوطيد العلاقات أو صنع صداقات جديدة، وكلَّما جاء توقَّفَ في مقهى الساحة، مقهى البوربون - ملتقى أرستقراطيّي الناحية وأشرافها - على درايةٍ بأنّ سالڤاتوري سيدفع حسابه أيضاً.

كان الاثنان يجلسان بسيقانٍ منفرجة على السياج المقابل للوادي،

يدخِّنان سيجاراً صغيراً من نوع هافانا، ويشربان كأساً من البيرة، «شُپ» يُسمِّيه سالڤاتوري كما يُسمُّونه في نابولي.

ذات يوم، طرقت على بابنا كارميلينا، ابنة طونيو، كانت في حدود الستَّة عشر عاماً وتصرُّ عليها أُمُّها أن تجد رجلاً يتزوَّجها.

كنَّا في آخر الظهيرة، وقد أنهيتُ عمل اليوم، فتحت ڤنشنزا فاندفعت كارميلينا إلى وسط البيت راكضةً بخطوتها المتعثِّرة، وكانت أشدَّ اهتياجاً من عادتها. تركت أُمِّي ما كانت تعمل عليه لتُخرِج الحلويات.

«لا عليكِ، يا عمّة جوزيّينا، سننصرف على الفور» قالت كارميلا وهي تتشبَّث بكرسيٍّ وتُوجِّه قدمها العرجاء نحو الأرض. كانت ترتدي ثياب حفل، مُتجمِّلة، وكنتُ أنظر إليها ولا أفهم مرادها.

«ماريّ، هيَّا، فلنذهب إلى الساحة. استعجلي» قالت، غير مكترثةٍ لوجود أُمِّي، فسحبتني إلى الخارج على ما كنتُ عليه.

«سأنضمُّ إليكما، سأنضمُّ إليكما» حاولت ڤنشنزينا أن تحشر نفسها، بلا جدوى.

«الأمر يخصُّ الكبار» ردَّت كارميلا، وأغلقت الباب خلفها.

وما إن خرجنا حتَّى همَّت بالكلام بسرعةٍ متناهية.

«ذلك الغريب، نظر إليَّ أمس الأوَّل، وغمز لي بعينه. وغمز لي البارحة كذلك، حين مررتُ بالساحة. خلتُ أنّني أُخطئ الظنَّ، ولكنْ، لا، لقد رأيتُهُ جيِّداً».

«أيُّ غريب؟» سألتُها.

«سالڤاتوري، الشابّ الذي من ماكيا. سالڤاتوري مانكوزو، السيِّد. ذاك الذي يأتي بصُحْبة صديقه العامل الذي يشتغل في المَفْحَمَة. يجب أن أمرَّ أمامه ثانيةً، لكنّي لا أقوى على ذلك بمفردي. عليكِ أن تأتي معي».

وهكذا وصلنا إلى الساحة بحُجَّة أنّ على كارميلينا الذهاب إلى مقهى البوربون بمَهمَّةٍ من أجل والدها. كان الشابَّان ما يزالان جالسَيْن على السياج يشربان *الشُّپ* ويُدخِّنان، ويدردشان مع أحد العاطلين. كان من الواضح جليَّاً أنّ أحدهما هو السيِّد والثاني هو العامل، حتَّى لو كانا يبدوان صديقَيْن: بييترو عريض المَنْكِبَيْن متين الساعدَيْن، سالڤاتوري بدينٌ وأنيق، وقبَّعته المحنيّة تمنحه رونقاً، علاوة على الصدريّة والكفوف الصفراء، وربطة العنق التي تنتأ منها شكَّة الياقة وجزء كبير من ذقنه، كان جالساً بشكلٍ جانبيٍّ على السياج، ساندًا إحدى ساقَيْه إلى الأرض والأخرى الأقصر والأرقّ مرفوعة. هو أيضاً، مثل كارميلينا، كان مصاباً بشلل الأطفال: شابَهَ القدرُ بينهما عن طريق تلك الساق المشلولة. فحَسِبَتْ أنَّ سالڤاتوري مهتمٌّ بها بسبب ذلك. إلَّا أنّنا حين مررنا ابتسم الشابَّان حقَّاً، وغمز سالڤاتوري بعينه، من جديد، لكارميلينا.

«هل رأيتِ؟ هل رأيتِ؟» قالت مهتاجةً، بينما كنَّا نهرب باتِّجاه المقهى. لقد رأيتُ، لكنّ الغمزة بدت لي إظهاراً للاستلطاف، أو التضامن، ليس إلَّا.

تألَّقت كارميلينا في طريق العودة إلى البيت.

كانت أُمُّها بالباب تنتظرها، أدركت من تعابير ابنتها أنّ الأنباء سارَّة، فأدخلتْها وهي تُربِّت على رأسها، كما لو أنّها تلقَّت عرضاً للزواج بالفعل.

بعد بضعة أيَّام عادت كارميلينا، ترتدي هذه المرَّة فستاناً أصفر اللون يكشف صدرها. من أين تأتي بتلك الألبسة؟ - كنتُ أتساءل. لم يكن لديَّ سوى قميصَيْن وتنُّورَتَيْن، مهترئة من الغسيل بالحجارة. لكنَّ أسرةً من التجَّار شيءٌ آخر كُلِّيّاً، هم نصف «قبَّعات» وكانوا يتعاملون معنا على أنّهم «قبَّعات» كاملة، ولا يُطأطئون رؤوسهم إلَّا إذا التقوا بقبَّعةٍ حقيقيّة.

لا بدَّ أنّ تيريزا فهمت سبب تلك اللوثة كلّها، لأنَّها كانت تفهم كلَّ شيء، مع أنّها تظلُّ متقوقعة في غرفتها على الدوام. فحالما دخلت كارميلينا حتَّى ظهرت شقيقتي.

«سآتي أنا أيضاً» قالت. لا مجال للمقاومة؛ لم تُصدِّق والدتي أنّ ابنتها الكبرى تودُّ الانضمام إلينا، وما لبثت أن تدخَّلت.

«خذي قطعة حلوى» قالت لكارميلينا «ريثما تجهِّز تيريزا نفسها».

وبعد نصف ساعة ظهرت تيريزا بشَعْرٍ معقودٍ بدبُّوسٍ برَّاق، وثوبٍ أحمر، وجزمةٍ لامعة بصفٍّ من الأزرار الدقيقة، ومسحوق التجميل على الوجنَتَيْن.

نظرت إليها أُمِّي، ثمَّ نظرت إليَّ مرتديةً لباسي المعتاد.

«إلى أين تذهبنَ متأنِّقاتٍ إلى هذا الحَدِّ؟» سألتْ.

«إلى لا مكان» قلتُ «كي نتنزَّه».

كان الشابَّان هناك.

سالڤاتوري بصدريَّته وقبَّعته وكفَّيْه؛ بييترو بلباس العمل، الملطَّخ بالفحم، وشَعْره الغامق مجدَّلٌ تحت الطاقيّة. لكنّ سالڤاتوري كان مُحرَجاً

وخجولاً، على عكس بييترو الذي ما انفكَّ يلوِّح بيدَيْه، وينفجر بضحكات مجلجلة ومفرقعة، يهيمن على المشهد بلا اعتبارٍ للفروقات الاجتماعيّة.

وكانت تيريزا الوحيدة التي لديها نقودٌ لتطلب شيئاً، فاجتازت الساحة من دون رويّة، تحت أنظار الجميع، بثوبها الأحمر ذاك، كما لو أنّها وسط إحدى الأُمسيَّات في اللوحات المعلَّقة في بيتنا.

انعزلنا أنا ورفيقتي بزاوية مهملة، ننظر إليها ببعض الإعجاب، فلم أكن شجاعةً لقطع الساحة بتلك المشية الجسورة. دخلت المقهى، وخرجت منه بقطعةٍ كبيرة من حلوى الكاساتا. ألقت نظرة في المحيط، حدَّدت الطاولة الشاغرة، وجلست إليها. فتشجَّعنا، ووجدتُ نفسي جالسةً أنا كذلك على مقاعد مقهى البوربون، في الساحة، مثل السيِّدات. لو رآني أبي وأُمِّي، أو ڤنشنزا، أو سالڤو، لفغروا أفواههم من الدهشة. «هؤلاء «القبَّعات» يدفعون دوقيّاتٍ ودوقيّات، ليجلسوا ويتحادثوا» كانت والدتي تقول على مضض، كلَّما مررنا من هناك بعُجَالَة «يا لهم من أغبياء!».

لكنّ تيريزا لا تبالي، وما زالت تغترف من الحلوى. تلقي نظرة بين حينٍ وحين إلى السياج، حيث يشرب الشابَّان ويُدخِّنان، صُحْبة أشرافٍ آخرين، مُولِين ظهورهم إلى الوادي وأعينهم إلى المقهى.

التفت الجمع ناحيتنا فجأة، كأنّ أحداً قد أشار إلينا. ووحدَهُ بييترو رفع ذراعه تحيّةً.

وسرعان ما التفتت تيريزا وكارميلينا إلى الجهة الأخرى، تتظاهران بعدم الانتباه. كنتُ وحدي أُحدِّق إليهم. لِمَ الخوف منهم؟ ليسوا سوى مجموعة من الشبَّان يقضون الوقت.

أسند بييترو بذراعه سالڤاتوري، وأعانه على النزول عن السياج. ودَّعا الآخرين، ووصلا إلينا ببضع خطوات.

«طاب يومكم» ابتسم الفحَّام «هل من الممكن أن نجالسكنَّ بعض الوقت؟»

كانت ركبتا كارميلينا ترتجفان، شعرتُ بها من تحت الطاولة، أمَّا تيريزا، فما فتئت تنظر بجدِّيَّةٍ قُبالَتها.

«تفضَّلا» قالت بعد تردُّد «فالمجالسة تبعث السرور دوماً».

نظر الفحَّام إلى طبق الكاساتا الفارغ.

«هل لي أن أُقدِّم من الحلوى للآنسَتَيْن؟» لم يكن راتبه يساعده حتَّى على شراء قطعة واحدة. رفضنا، من باب الواجب. لكنّه كان فتىً ماكراً، وسرعان ما اعترض سالڤاتوري بالفعل.

«لا-لا يجوز» هتف، متعثِّراً بالكلمات «سـ- سأذهب بنفسي». كان يُتأتِئ، ولا بدَّ أنّ التحدُّث إلى الفتيات يكلِّفه جهداً كبيراً.

دخل إلى المقهى، وخرج بقطعَتَيْن كبيرَتَيْن كقطعة تيريزا.

«و- وأنتم؟» قال متوجِّهاً إليها.

«أنا لا شيء» أجابت شقيقتي. أزعجها أنّه يتلعثم، وأنّه يعرج، وأجل، أنّه يُظهِرُ نفسه خدوماً، لأنّه هو السيِّد، لا الشابّ الآخر.

تضرَّج سالڤاتوري، فاستدركت تيريزا عندئذ: «ما تختارونه أنتم» قالت بنبرة مستعجلة، وهي تنظر إلى صديقه لا إليه.

«البيرة بالنسبة إلى آ-آنسة ليست ملائمة ربَّما» ارتجل سالڤاتوري.

لكنّ تيريزا هزَّت رأسها. «في نابولي تختلف الأعراف. النساء يشربنَ ما يحلو لهنَّ».

«آه، تعرفون نابولي! هنيئاً لكم» تدخَّلَ بييترو.

«ف-فإذن ثلاث كؤوس من شراب الأمارينا» قاطعهما سالقاتوري. ودخل إلى المقهى مجدَّداً. يبدو أكثر ارتياحاً عندما يكون بمفرده.

كان بييترو في السابعة عشر عاماً من عُمُره، وسالقاتوري في الرابعة والعشرين، من عُمُر تيريزا تماماً. سالقاتوري هو قريب الكونت دوناتو وڤنشنزو موريلّي، إخوة أرباب عمل والدي، الذين من روليانو، أثرى الأسياد في كالابريا. كانوا يمتلكون كلَّ شيء: أراضٍ، ومصانع منسوجاتٍ ليفيّة، وعُزَب، ومخازن فحم. كانوا يخطِّطون أيضاً لمشروع افتتاح مصنعٍ للفولاذ، وبدؤوا يُصدِّرون منتجاتهم إلى كلكتا. «حتَّى الهواء الذي نتنفسَّه مُلْكٌ لهم» يقول أبي «وكلُّ خطوةٍ نخطوها، تعود على دوناتو موريلّي بالأرباح».

لم تكن أُصُول بييترو في منتهى الشقاء والعوز كأصولنا، لذا استطاع أن يتابع دراسته بضعة أعوامٍ، بعد المرحلة الابتدائيّة. عائلته من رعاة البقر، يمتلكون عدداً من الماشية ويتمتَّعون بثقة صاحب العزبة، الدون فرانكو مانكوزو، والد سالقاتوري. لكنّ بييترو كان قد سئم العمل مع الحيوانات: لا يطيق رائحة المَجْبَنَة، وكان يفضِّل العمل في مجالاتٍ أوسع. وهكذا قرَّر أن يعمل فحَّاماً مع عمِّه، في قلب الغابات، في ماكيا ساكرا، في ڤالّه دل إنفرنو/وادي الجحيم، وفي أيِّ مكانٍ ينتج الفحم. ولا بدَّ أنّ سالقاتوري أُعجِبَ بطلاقة الشابِّ وشخصيَّته، إذ يُلاطف البؤساء والأسياد على حَدٍّ سواء.

لم تتمالك تيريزا نفسها عندما عرفت أنّ سالڤاتوري قريبٌ لآل موريلّي. «لا شكَّ أنّني وأنتم أقارب!» هتفت، وراحت تروي عن متبنِّييها، وما انفكَّت تصفهما بأبوَيْها الحقيقيَّيْن، الشهيرَيْن تومّازو وروزانّا موريلّي من بونتلاندولفو، اللذَيْن قُتِلا برصاص المتمرِّدين في نابولي.

كنتُ أصغي إليها وأتظاهر أنّ كلَّ ما تتفوَّه به لا يخصُّني، في حين أنّ سالڤاتوري لم يحد أنظاره عنها. أدرك حينذاك مَنْ تكون، وكان على علمٍ بقصَّة شبه قريبته تلك التي تيتَّمت وأُرسِلَت لتعيش وسط الشقاء التي ترزح تحته عائلةٌ من المزارعين.

«يؤسفني ج-جدّاً ما حصل لكم، يا آ-آنسة. لا شكَّ أنّ ف-فقدانهما فاجع».

تغلَّبَ على خجله، وأمسك يدها، وشدَّ عليها. «لكـ-لكنّي لا أظنُّ أنّ هذا يجعلنا أقارب. أصدقاء، بلى. أ-أصدقاء، أصدقاء إلى أ-أبعد مدى، هذا ما آمله».

ثمَّ انحنى ليلثم يدها، فجفلت تيريزا واستردَّتْها ما إن استطاعت. وسرعان ما بحثت بأنظارها عن بييترو، الذي كان في الأثناء قد اقترب منّي وهمس في أُذُني، بسلاسةٍ تناقض ارتباك صديقه: «ماريّا، أنتم أجمل من أن تكوني صبيّة صغيرة. كم عُمُركِ؟»

أخفضتُ عينَيَّ، كانت تلك الوقاحة تُشعرني بالحياء. وهو على دراية، وقد فعلها عمداً، حتَّى هتف متوجِّهاً للجميع: «نابولي! سأذهب إلى نابولي يوماً ما، ومن هناك سأنطلق لاستكشاف العالم، سأسافر حتَّى الأمريكيَّتَيْن».

وما لبثت تيريزا أن التفتت إليه: «هل تُحبُّون السفر؟»

«أجل. وسأسافر كثيراً. كثيراً» أجاب الفحَّام. ثمَّ أخفض صوته والتفت نحوي: «وهل ماريّا الصغيرة تحبُّه؟»

«ما هو؟» سألتُ مقطوعة الأنفاس.

«العالَم!» ردَّ بييترو.

ربمَّا تضرَّجتُ حياءً. «أجل، أُحبُّه».

«لا أعتقد أنّكِ ستذهبين بعيداً جدَّاً، أنتِ» تدخَّلت تيريزا «أمَّا *أنا* فقد سافرتُ كثيراً ...».

وهكذا أخذت تروي عن الأماكن التي زارتْها. تحدَّثت عن بينيفنتو وعن نابولي، وقالت إنّهما عالمٌ آخر بالمقارنة مع كوزينتزا وكاتانزارو، فما بالكَ بكازولي؟! وكانت تتحدَّث إلى سالقاتوري، صحيح، ولكنْ كأنَّ مغناطيساً يجذبها نحو الأسوأ هنداماً بين الشابَّيْن، ذي السترة البالية، الذي كان يتطلَّع إليها بعَيْنَي وحشٍ يتضوَّر جوعاً. أرادت أن تحظى باهتمام كلَيْهما: السيِّد والفحَّام. كانت تقول إنّ في مرفأ نابولي بواخرَ أكبر حجماً من ساحة كازولي، وأنّ بينيفنتو مدينةٌ بهيّة الجمال، تضجُّ بالحياة. وكان سالقاتوري ساكتاً ينظر إليها بإعجاب، وهو يُلوِّح بالمنديل للاستهواء.

«عموماً، سيتغيَّر كلُّ شيء عمَّا قريب» قلتُ من دون مقدِّمات، لمجرَّد أن أقاطعها. ربمَّا تبادرت إلى ذهني الدراسة والمعلِّمة دوناتي التي ستُنقذني، أو مصير مملكة الصِّقلِّيَّتَيْن وإيطاليا، والحال أنّ كلَّ شيء سيتغيَّر عمَّا قريب *حقَّاً*؛ أو لعلِّي لم أكن أفكِّر في شيء وأنّ كلامي كان وسيلةً لأستعيد نفسي، متأخِّراً، من الحياء الذي حاصرني به بييترو. وربمَّا كان بسبب أنيّ ما زلتُ صغيرة، صغيرة جدَّاً في الحقيقة، ولا أعي ما أقول.

توقَّف سالڤاتوري عن التلويح بالمنديل وحدَّقَ إليَّ. لكزت كارميلينا ركبتي بركبتها. مسكينة، لم تتفوَّه بكلمة واحدة حتَّى تلك اللحظة، وما زالت الكاساتا بين يدَيْها. عندما كنتُ أتلفَّظ بأشياء من هذا القبيل في البيت، يستشيط والدي غضباً: «إن سمعوكِ اعتقلوكِ!» يصيح «رياح التغيير لا تصل إلى هنا، وإن وصلت لا تأتي أبداً في مصلحتنا».

إلَّا أنّ تيريزا بادرت قائلةً: «اخرسي أنتِ، لا تفهمين معنى ما تقولين».

فإذا بييترو ينظر إليَّ، وكانت نظرته ناريّة، كنظرة الثعلب حين يعرف أنّ ما يفصله عن نشب أنيابه بالأرنب محض وثبة.

«بالتأكيد، سيتغيَّر كلُّ شيء عمَّا قريب» قال «ماريّا الصغيرة على حقٍّ تماماً».

11

كانت المعلِّمة دوناتي تجيء يوم الاثنَيْن من كلِّ أسبوع لتُسلِّمني الواجبات المصحَّحة وتعطيني واجبات جديدة. كانت تصل خُلْسَة عن الأعين، ما بعد الظهيرة، ورأسها مغطّىً بقلنسوة المُلاءة، مخافة أن ينتهي بها المطاف إلى السجن أو المنفى «ربَّما في فرنسا، أو بيموتته دفعةً واحدة» تقول كلَّما دخلت إلى البيت.

للتحضير لامتحان القبول في المدرسة العليا، كان عليَّ أن أدرس – علاوةً على الأبجديّة والرياضيّات – التاريخ، والجغرافيا، والرسم، واللغة الفرنسيّة، والموسيقى، والمهن النسويّة أو بالأحرى النظريّة التي كنتُ أطبِّقها عمليّاً في كلِّ يوم: النسج والغَزْل. وكان الامتحان سيُجرى بعد عام، في الإدارة العامَّة للتربية الحكوميّة في كاتانزارو، ويجدر بي أن أتهيَّأ له جيِّداً جدَّاً. فإن اجترتُهُ بعلامةٍ ممتازة تكفَّلت المملكة بنفقات دراستي، ولن أكون عبئاً على أحد. وإلَّا كانت المعلِّمة ستدفع الخمسة آلاف دوقيّة اللازمة، وهو مبلغٌ طائل. وبالأحوال كلّها، كنتُ سأنتقل إلى المدرسة الداخليّة في كاتانزارو، وكان الأمر بمجرَّد التفكير فيه يُحمِّسني لدرجةٍ يمنع عنِّي النعاس.

أخذتُ أستيقظ في الرابعة صباحاً، مع والدي، لكي أقرأ على ضوء المصباح حتَّى طلوع النهار. «ستقضين علينا بإهدارِكِ هذه الكمِّيَّة كلّها من الزيت» تقول أُمِّي عندما تنهض من فراشها.

كانت المعلِّمة في يوم الاثنَيْن تُعينني على مراجعة الدروس طوال

ثلاث ساعات، وتأتيني بكُتُبٍ أخرى إضافةً إلى كُتُب الموادِّ الإلزاميّة، «هذه نصوص أساسيّة لتهيئة المستقبل، مستقبلكِ ومستقبل الجميع» تقول. وتحدِّثني عن جمعيّة جوزيّه ماتزيني «إيطاليا الفتاة»، التي لا ينتسب إليها إلَّا مَنْ كان تحت الأربعين عاماً، فتقول معلِّمتي إنّ الشباب هم الذين سيفجِّرون الثورات، لا العُجَّز الذين على شاكلتها.

وتُردِّد بإلحاح: «عليكِ أن تقرئي، عليكِ أن تدرسي، إذا أردتِ تحصيل حقوقكِ، إذا أردتِ تغيير مصيركِ».

ثمَّ تنظر في عينَيَّ.

«فهل أنتِ تريدين ذلك؟» تسألني «هل تريدينه حقّاً؟»

هل كنتُ أريده حقّاً؟ كم كنتُ مستعدَّة للتضحية من أجل تغيير مصيري؟ ثمَّ ما هو، هذا المصير؟ إلَّا أنّ ذلك السؤال لا يشبه أسئلة الدروس، إذ تمتلئ عينا المعلِّمة نوراً فلا أقوى على الردِّ بـ «لا». وأتساءل: هل أنا مرغمة على الردِّ بـ»نعم» بالأحوال كلّها؟

كنتُ أنظر إلى أُمِّي، منحنية على النول، تتظاهر بأنّها لا تسمع، لكنّها كانت تصغي إلى كلِّ شيء، فأُجيب في النهاية «نعم» بصوتٍ خفيض متَّسمةً ببعض الحياء، لأنّ ذلك السؤال كان آتياً من عالمٍ آخَر. تغيير مصيري، وربمّا مصير إيطاليا ... لا يحقُّ للمزارعين أن يطرحوا تساؤلاتٍ كتلك.

وعلى الرغم من هذا، كان السؤال يُوقِظ فيَّ شيئاً غامضاً وجبّاراً، مثل جمرةٍ دفينةٍ توشك على الاضطرام، فأجدني ألتهم تلك الكُتُب كما لو أنّها كُتِبَت من أجلي تحديداً: «الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس» «أضرحة» لأوغو فوسكولو؛ «الخيالات» لجوفانّي بيركيت؛ «أدلكيس» «مارس 1821» لألساندور مانزوني. ثمَّ أحفظ عن ظهر قلبٍ بعضاً من

الفقرات والأبيات التي تُظلِّلها المعلِّمة دوناتي بالقلم الرصاص الذي كانت تمسكه بين أصابعها على الدوام:

«قَسَماً لن يتلاطم هذا الموجُ

أبداً بين ضفَّتَيْن لدودَتَيْن،

قَسَماً لن تنهض حدودٌ

بين إيطاليا وإيطاليا، أبداً!»

وذات يوم اثنَيْن، مرَّرت لي المعلِّمة، خُلْسَةً عن أُمِّي، بطاقةً كرتونيّةً باعتبارها سرِّيَّةً للغاية: تتجسَّد فيها امرأةٌ في منتهى الجمال، مكتنزة البدن، شامخة الحضور، وشَعْرها الغزير فاحم السواد، جالسةً إلى صخرةٍ شاطئيّة، وعيناها تهيمنان على البحر الوسيع، وثدياها الكبيران مكشوفان، بحلَمَتيْن عريضَتَيْن وداكنَتَيْن، ويداها مقيَّدتان خلف ظهرها. وعند قَدَمَيْها، في مكانٍ مجاورٍ، لكنّه صعب المنال، تبعثرت أدوات الفلّاحين، أسلحتنا: مَذارٍ، مَحاصِد، مَعاوِل، مَناجِل، مَجارِف، مَقارِض، سواطير.

«إنّها إيطاليا» قالت المعلِّمة هامسةً. وخلف تلك الصورة الصغيرة طُبِعَت أبيات «نبوخذ نصر» للموسيقار جوزيبّي فيردي. «خَبِّئيها، واحفظي هذه الأبيات عن ظهر قلب. فهي أبياتٌ تمدُّ بالشجاعة».

أمسكتِ القلم الرصاص وكتبتْ في الزاوية العليا: *إلى ماريّا. من كاترينا دوناتي*. وراحت تغنِّي، بصوتٍ منخفض، ذلك المقطع، لتُسمِعَني إيَّاه، فذكَّرني صوتها الرقيق والرخيم بصوت خالتي زلزال، عندما كانت تنسج وتنشد بالهمس أُغنيَّة قطّاع الطُّرُق. غنَّت المعلِّمة: «*حلِّقْ، أيُّها الفكر، بأجنحتكَ الذهبيّة ... حَلِّقْ واهبطْ على السفوح والتلال ... حيث تتضوَّع بالدفء والرِّقَّة ... نسائمُ وطننا العذبة*».

نظرت إلينا والدتي، وهزَّت رأسها أسفاً على تلك الدروس الغريبة التي لا تفهم – مثلي تماماً – أهمِّيَّةَ ما سينتج عنها.

لم أعد ألتقي ببييترو وسالڤاتوري.

لم أعد أتحدَّث بأمرهما مع كارميلينا وتيريزا، ولم أكن أبحث عن النقاش في ذلك. كنتُ حين أفرغ من العمل والدراسة بعد الظهر أحياناً تطلب منِّي أُمِّي الذهاب إلى الدون طونيو لشراء بعض الأغراض. فأقوم بدورةٍ طويلة للوصول إلى الدكَّانة، فأُعرِّج على الساحة، وعندما أقطعها أنتظر رؤية الشابَّيْن جالسَيْن على السياج.

وكانا، في بعض الأحيان، هناك، يُدخِّنان، وكنتُ كلَّما رأيتُهما من بعيد، اهتززتُ من ذكرى ذلك المساء. ظلَّت تانك الساعتان عالقتَيْن كالحُلْم في مخيِّلتي، حيث شعرتُ أنّي كبيرةٌ على حين غِرَّة؛ ثمَّ تبدَّدَ كلُّ شيء.

وصار بييترو، إذا تلاقت نظراتنا الخاطفة، يرميني بنظراتٍ وقحة، لا حياء فيها. ثمَّ يرفع ذراعه، ويُصفِّر بإصبعَيْه علاوةً على ذلك في بعض الأحيان.

«ماريّا ... ماري! ماريّا!» يناديني.

كان يلفظ اسمي بصوتٍ يبدو لي ممزَّقاً من شدَّة الشهوة، اسمي الذي لم يلفظه أحدٌ يوماً بتلك الطريقة، فكنتُ أشعر للمرَّة الأولى أنّني مرغوبة. فإذا بي أسرع من خطاي، حتَّى لو كنتُ أودُّ أن أُبطِئَها. وددتُ أن أردَّ عليه تلك النظرات المستعرة التي تُبقيني مستيقظة طوال الليل، وددتُ أن أُناديَه أنا أيضاً بذلك الصوت المبحوح، وأن أُعيدَ إليه بعضاً من اضطرابي.

إلَّا أنّني لم أكن أجيب. كنتُ أهرب.

كان أسوأ من سالڤاتوري تقريباً، إذ إنّ الأخير يهجِّئ كلمَتَيْن بمشقَّة كبيرة: «أ-أين تذهبين؟ هلاَّ نا-ناديتِ أختكِ؟» يصيح. وكان صوته يمرُّ وسط الأشراف، فيثير قهقهتهم المجلجلة.

ولم أكتشف إلَّا بعد أيَّام أنّ تيريزا وكارميلينا كانتا تلتقيان بالشابَّيْن مجدَّداً، ومن دون أن تقولا لي أيَّ شيء.

حدث الأمر عدَّة مرَّات، بينما كنتُ أغزل النسيج: إذا أراد السيِّد شيئاً مّا، انتهز الفحَّام ذلك، وحصل على إذنٍ بالتوقُّف عن العمل قبل الساعة المحدَّدة.

كارميلينا، إذ لم يهدأ روعُ قلبها، هي التي عادت للبحث عنهما، مدفوعةً من تيريزا. وهكذا تلاقى الأربعة جميعاً، والذريعةُ أنّهم يتلاقون في مكانٍ عامٍّ وبحضور سالڤاتوري مانكوزو، سليل عائلة الكونت موريلّي، الذي يكمُّ الأفواه على الألسنة الحاقدة.

كدتُ أُجنُّ من الغَيْرَة حين اكتشفتُ الأمر، وبدأتُ أختلق الأعذار، كلَّ يوم، للمرور من الساحة.

وقد فاجأتُهم بمناسَبَتَيْن على إحدى طاولات مقهى البوربون، وعندما رأيتُهم اجتاحني غضبٌ عارم. وكانت عربة مانكوزو تنتظر على مقربة، وخُيُولها تراقب ذلك الجزء من العالم بكلِّ وداعة: لعلَّ سالڤاتوري كان يدعو تيريزا وكارميلينا لنزهةٍ بالعربة قبل الذهاب إلى المقهى.

وكان بيترو يستحوذ الاهتمام، وتيريزا آنذاك تضحك، بعفويّة، لا، بل وقاحة، مثلما لم أرها من قبل. نعم حينذاك كانت تبدو لي شقيقة. كنتُ أرى في ضحكاتها المفرطة طباعي، وطِبَاع الجَدَّة تينوتسا، على

ما يبدو، والطِّبَاع التي لا تتَّضح على والدتي إلَّا حين تكون في ضيعتها، والتي لم أكبتها أنا كذلك إلَّا عندما زاولتُ مهنة النسج.

كان أولئك الأربعة من بعيد يبدون ثنائيَّيْن من المخطوبين، وبمجرَّد رؤيتهم تتصاعد حُرْقةٌ من صدري تُسبِّب لي الإعياء ويزوغ بصري. ولئن كنتُ أبتكر ألف عذر في ذهني، فإنّ الحقيقة هي أنّني كنتُ أتألَّم بشدَّة، لأنّ الشابَّيْن لم يسألا عنِّي، ولم يبحثا عنِّي. ربَّما ما زلتُ صغيرة بالنسبة إليهما، أقول لنفسي في النهاية، وأحاول بشتَّى الطرائق أن أتناسى أمرهما.

لكنّني لم أعد أتكلَّم في البيت، على الغداء أو العشاء أو في أثناء العمل. وكلَّما اقتربت منِّي قنشنزينا أقصيتُها عنِّي هي كذلك. ولا أجد العزاء الوحيد إلَّا في الكُتُب، فالعزلة خلال تلك الأشهر علَّمتْني أنّه ليس لدى المرأة أصدقاء أعزّ وأوفى من الكُتُب، هذا إذا كانت محظوظة أساساً وتعلَّمت القراءة.

وكانت تيريزا تراني أتعذَّب، فلا تزداد إلَّا سروراً.

وبين حينٍ وآخر تسحب الدمية المعلَّقة من على المسمار فوق المدفأة، وتهدهد لها. وددتُ أن آخذها أنا أيضاً بين ذراعَيّ، لكي تنام في حضني، لكنّها كانت ممنوعةً عليَّ رغم أنّها لي. كنتُ أتخيَّل نسخةً منِّي، ماريّا ثريّةً، وجالسةً على سرير مطرَّز الغطاء، تمسِّد لها شَعْرها وتُناغيها. سوى أنّ تيريزا كانت قادرةً حتَّى على رَمْيها بين ألسنة اللهب على ألَّا تعطيني إيَّاها. فكنتُ أُسعَد بالنظر إليها وأنا التي لم تمسك دميةً بيدَيْها في حياتها مطلقاً، في حين كانت تيريزا تحضنها وتتكلَّم إليها. لم تكن سعيدة قطُّ مثلما كانت عليه في تلك الآونة، ولم تتغذَّ على تعاستي قطُّ مثلما فعلت في تلك الأيَّام.

12

وإذ، في ظهيرة يومٍ مّا، تصادفتُ بحصان سالڤاتوري في البلدة: خيلٌ داهِمٌ يهبط نحو الساحة من أحد الأزقَّة. كنتُ أعلم أنّ بييترو سيتبعه على ظهر بغله عائداً من المَفْحَمَة، فهُرِعتُ إلى الساحة ودخلتُ مقهى البوربون، ثمَّ خرجتُ متذرِّعةً بحُجَّة، فوجدتُهما قُبَالَتي تقريباً. وسرعان ما لطيتُ بالجدار، لكي أختبئ.

كان بييترو ملطَّخاً بسواد الفحم من جبينه إلى حذائه، في حين أنّ هندام سالڤاتوري لا يُشقُّ له غبار كالعادة. غير أنّ عربة آل مانكوزو، وحصانَيْها الكالابريَّيْن بزغبهما الأسود اللامع، كانت في جوار المقهى. وفي وسط الساحة بالفعل كان فرانكو مانكوزو، والد سالڤاتوري، واقفاً ويحمل بيده كأساً من الشامبانيا. وكانت النظّارة المفردة مثبَّتة على عينه، والشال الإسكتلنديّ على كتفَيْه، يخطب منفعلاً في حشدٍ صغير من الأشراف والمزارعين الذين يُومِئُون موافقين على كلِّ كلمةٍ من خطابه. كان يشرب ويخطب عن حقول قمحه، ومخازن فحمه، وذلك الحَوْل الماطر الذي يتوعَّد بإنزال المصيبة على كلِّ شيء.

بقيتُ مختبئةً بجانب باب المقهى بينما كان الشابَّان يقطعان الساحة، وكان الدون فرانكو ينطق العبارة التي لا تفارق أفواه «القبَّعات».

«إنّ الغابَ لصُّ الأرض!» هتف بعجرفةِ مَن اعتاد أن يكون دوماً

على حقٍّ. كان يقصد أنّ غاب سيلا، الذي يُطوّق البلدات ومزارع التلّة من الأعلى، ينمو مع الأمطار وإذا ما نما تمدَّدَ مستعيداً الأراضيَ التي قضمها منه هؤلاء بطريقةٍ غير شرعيّة.

ولا بدَّ أنّ سالڤاتوري كان معتاداً سماعَ تلك الخطب المسهبة، لأنّه قطع الساحة محيِّياً والده بإيماءة خاطفة وتابع دربه نحو المنحدر المفضي إلى خارج البلدة، نحو عزبتهم وإسطبلاتهم.

أمَّا بييترو، فتوقَّف. ثمّة لمعةٌ غاضبة تتلألأ في عينَيْه. كان يحاول الانتقام، أو ربَّما الموت.

«الغاب ليس لصَّاً. إنمّا يستردُّ ما هو له أساساً» صاح، من على بغله القزم والكسول المملوك للدون مانكوزو نفسه، الذي نظر إليه مذهولاً.

إلّا أنّه لم يعرف عامله ويبدو أنّه فُوجِئ بجسارته. «آه، وما الذي للغاب، أيُّها الفحّام الشابُّ؟»

«الأراضي التي يحرقها الأشراف لتوسيع مزارعهم. هذا ما للغاب».

يا له من مجنون! كان بوسع الدون فرانكو أن يستدعي مَنْ يعتقله في تلك اللحظة نفسها، كان يكفيه أن يصرخ لكي يُهرَع إليه رجال الحرس الوطنيّ المتموضعين خلف الكاتدرائيّة، ويتّهمه بأنّه «مرصود»؛ وربّما كانوا سيعدمونه ميدانيّاً.

خرج من المقهى صاحبُها متبوعاً بنفرٍ من الفضوليِّيْن، وكان الأسياد كلّهم على طاولاتهم يراقبون المشهد صامتين. لكنّ الدون فرانكو لم يعتدْ جرأةً كتلك. اجترع كأسه وأخذ يتصرَّف كنجله، احمرَّ وجهه وتصبَّبَ عَرَقاً. لعلَّها المرَّة الأولى التي يجرؤ فيها أحدهم على معارضته على الملأ، لم يكن ليتخيَّل يوماً أنّ يُكذِّبَهُ فحَّام.

«وهل أ-أنتَ م-متأكِّدٌ، أيُّها الفتى؟»

«أجل».

«تعال إلى هنا إذاً، واشـ-واشرب النخب معي» رفع كأسه الفارغة.

كان ذلك تحدِّياً. وما لبثت الساحة أن امتلأت بهمهمة متزايدة. لو أنّ بييترو ترجَّلَ عن البغل، لأُعدِم بالرصاص لا محالة. لكنّه كان قد كسب معركته أصلاً، حين أثبت لذلك الجمهور أنّ بوسع الفحَّام ألَّا يهاب سيِّدَهُ.

وهكذا، ومن دون أن أنتبه إلى نفسي مجدَّداً، كتلك المرَّة حين كنَّا على الطاولة في المقهى، صرختُ من طرف الساحة:

«إنّ الأسياد يشعلون الحرائق في الغاب منذ قرون لسرقة الأرض!»

كنتُ قد سمعتُ تلك الكلمات مراراً من خالتي زلزال. التفت الجميع ناحيتي.

حتَّى الدون فرانكو التفت، لكنّي كنتُ قد ولَّيتُ هاربةً في المنحدر نفسه الذي سلكه سالڤاتوري بحصانه منذ قليل.

ثمَّ دوَّى صوتُ تيريزا، التي ربَّما حضرتِ المشهد كلَّه صامتةً، ومختبئةً في زاويةٍ معتمة.

«لا تلقي بالاً لما يقوله عاملان غبيَّان، يا دون فرانكو. فإنّهم لا يتكلَّمون إلَّا لتهوية أفواههم! تعال إلى هنا حضرتكَ. لو لم أكن امرأةً لدعوتُكم لشرب النخب. ارفعوا كأسكم ... فلنشرب نخب البؤساء الذين لا يدركون بما يتفوَّهون».

التفت بييترو نحو ذلك الصوت، ثمَّ وخز البغل. «أوه، أوه، أوه» ومضى في الطريق المؤدِّي إلى الإسطبل. وظلَّ الدون فرانكو مانكوزو واقفاً وسط الساحة وكأسه مرفوعة، مبهوراً بما حدث توَّاً.

توقَّفتُ في منتصف الطريق عند بَوَّابة أحد قصور الأسياد. كان بييترو يتقدَّم نحوي ببطء، نزولاً، على ظهر بغله.

«ها نحن إزاء آنساتٍ شجاعات» قال حينما بلغني. كانت ساقاي ترتجفان قليلاً لرؤيته من مسافة قريبة وبعد وقتٍ طويل. لكنّه كان مُتعباً، يتَّضح ذلك على وجهه، من العمل وتعسُّف ربِّ العمل. «تعالوا إلى هنا، يا آنسة، أريد أن أُطلعَكم على شيء». أخرج من جيب سترته الداخليّ قصاصة جريدة.

«إنّها الرسالة التي كتبها النائب مانتشيني إلى الذين مثل مانكوزو وشقيقتكِ، إلى الذين عاثوا فساداً بدستورنا، وحُرِّيَّتنا. هذه الرسالة تُلازِمني دائماً».

مرَّر إليَّ القصاصة التي باتت رقيقةً كالورق الشفَّاف.

إنَّ مجلس النوَّاب المنعقد في جلساته التمهيديّة في مونتيأوليفيتو، يشجب في وجه إيطاليا الاعتداءَ الغاشمَ الذي تعرَّضَ له، والعنفَ الفاضحَ غيرَ المسبوق، على يد القوَّات الملكيّة المسلَّحة، بينما كان عازماً بأعماله على الاضطلاع بالولاية المقدَّسة الملقاة على عاتقه، إذ يُراد التشويش على هذا البلد في مساعيه لليقظة المحتومة، وذلك باللجوء إلى الوحشيّة والهمجيّة على مَرأى أوروبا المتحضِّرة؛ ويؤكِّد المجلس أنّه لن يُعلِّق جلساته، إلَّا إذا أكرهتْهُ القوَّة المفرطة على ذلك؛ ولكنّه إذ يأبى التقاعس عن الاضطلاع بواجباته السامية، لا يسعه سوى أن يحلَّ

نفسه مؤقَّتاً *ليجتمع من جديد حيثما ووقتما سنحت له الفرصة*، بهدف *اعتماد تلك المشاورات التي نصَّتْها حقوقُ الشعب*.

نظرتُ إلى عينَيْه عندما أنهيتُ قراءتها.

«سنجتمع نحن كذلك» قال «سنجتمع يا ماريّا الصغيرة. أنتم وأنا. أعدكم».

ثمَّ ضرب بكعبَيْه، فتحرَّك البغل.

هنالك مفترقٌ في نهاية الطريق: الغاب في جهة اليمين، والدرب العائد إلى البلدة في جهة الشِّمَال. كان الغاب، المؤدِّي إلى جبل بوتيّ دوناتو، كورتشو، مونتي ساكرو، سيرّا ستيلا، منذ قرونٍ يهدِّد النظامَ الذي أخضع «القبَّعاتُ» البلدات تحت سطوته. أطلق بييترو عنانَ دابَّته فاتَّخذت منحى اليمين. لا بدَّ أنّه بطبيعته ينحاز إلى صفِّ الغاب.

وما انفكَّت عبارة «أنتم وأنا» تطنُّ في أُذُنيَّ طوال الليل.

وفي اليوم التالي استدعاني: أعطى حبَّة قمح لطفلٍ، وطلب منه أن يأتي إليَّ، ويُخبرني عن فحَّام «في الساحة عمداً بانتظاري».

وجدتُه بمفرده، مستنداً إلى الحائط، هائجَ الأعصاب.

ومن دون أن يفوه بكلمة غلَّ في يدي مظروفَيْن من ورقٍ مصفرٍّ، وقد كتب اسماً على كلٍّ منهما: الأوَّل *ماريّا*، والثاني *تيريزا*.

وفي كلِّ مظروفٍ بطاقة.

«أعطوها لأختكِ» قال بييترو «افتحا المظروفَيْن معاً، في البيت. ثمَّ اكتبا خلف البطاقة نعم أو لا. سنلتقي هنا يوم الاثنَيْن المقبل».

كنتُ أرتجف بمجرَّد وُقُوفي بالقرب منه، كان ما يزال شابّاً، لكنّه يبدو رجلاً ناضجاً. ولم أتملَّك الشجاعة حتَّى للنظر في عينَيْه، فوضعتُ المظروفَيْن في جيب السترة، وركضتُ بعيداً.

كانت والدتي في البيت جالسة على كرسيّ صغير نحو المدفأة، تقشِّر البطاطس وترمي القشر في النار. وكانت تيريزا كعادتها تقرأ في غرفتها.

تشجَّعتُ وطرقتُ بابها.

«ماذا تفعلين؟» سألتْني أُمِّي إذ انتفضت والتفتت.

«لا شيء» أجبتُ «لا تقلقي» كان المظروفان يضخَّان فيَّ اهتياجاً غريباً.

«ماذا تريدين؟» ردَّت أختي من الداخل.

«يجب أن أعطيكِ شيئاً. دعيني أدخل».

«لا يمكنني الآن».

«من جانب بييترو».

سمعتُها تنهض. فتحتُ الباب قليلاً، ومرَّرتُ يدها في الفتحة.

«كلَّا. علينا أن نفعلها معاً» قلتُ.

تردَّدت، ثمَّ فتحت.

«اجلسي» أمرتُها «على السرير».

«ولكنْ، ماذا تريدين؟» تأفَّفت، لكنّها فعلت ما أمرتُها به، كانت متخوِّفة وقد اجتاحها الفضول.

أخرجتُ المظروفَيْن حينذاك.

«ومَنْ أعطاكِ هذَيْن؟»

«سبق وأخبرتكِ».

انتزعتْ كلَيْهما من يدي على حين غِرَّة.

«كلّا!» اعترضتُ «خذي بطاقتكِ فقط. عليَّ أن أفتح رسالتي بنفسي».

ولكنْ، لا مناص. فتحتْ رسالتها بغمضة عين، وقرأتِ البطاقة. ثمَّ فتحتْ رسالتي قبل أن أتمكَّن من انتزاعها منها، وسرعان ما تغيَّرت تعابير وجهها. رمت البطاقَتَيْن أرضاً وصرخت عليَّ بأن أخرج.

حملتُ بطاقتي.

ماريّا الصغيرة، هل تريدين أن تكوني لي؟

بييترو

وفي البطاقة الثانية، المَرمِيَّة على الأرض، الجملةُ نفسها موجَّهةً إلى تيريزا بإمضاء سالڤاتوري.

13

منذ اليوم الذي خُطبَتْ فيه كلانا، وضعت تيريزا نُصب عينَيْها أن تودي بحُلْمي في التعلُّم أدراجَ الرياح، وبينما انغمستُ في تحضيرات الزفاف كانت تدبِّر مكيدةً للإيفاء بقَسَمها في تدمير حياتي.

جاء سالڤاتوري إلى البيت ليطلب يدها، مع عشرة خرفان لاحقاً وخاتمٍ فيه نَواةٌ برَّاقة كبيرة بحجم بندقة، تُصدِرُ إشعاعاتٍ مذهلة. وكان والدي فرحاً، في حين أنّها كالعادة لم تكن راضية. كانت تُقدِّرُ في سالڤاتوري أنّه ثريٌّ وقادرٌ على انتشالها من ذلك الوكر المتمثِّل ببيتنا وحياتنا؛ لكنّها كانت تراه مغفَّلاً وضعيف الشخصيّة، وقبيحاً. كانت تبتغي الاستحواذ على كلّ شيء لمصلحتها: ثراء سالڤاتوري وبسالة بييترو. لكنّ تيريزا حقدت عليَّ منذ البداية، فأدَّى ذلك إلى إصابتي بعدوى الحقد، بات لي الأمر واضحاً في تلك الآونة. فبينما كانت تعيسة، ومُكرَهةً على طريقٍ تعرف أنّه الوحيد المتاح – إذ لم تعثر على أشرافٍ أثرياء غيره يُقبلون الزواج بابنة من عائلة أوليڤيريو المزارعين الكازوليِّيْن – كنتُ أراها في مأزقٍ، ويسرُّني ذلك.

وعندما تقول والدتي: «أنتِ محظوظة، يا تيريزا، النساء كلُّهنَّ يرغبنَ مكانكِ. أن تنتمي إلى آل مانكوزو ... ناهيكِ بأنّكِ اتَّخذتِ شابّاً وسيماً. لا، بل إنّه رجل»، وتقصد أنّه شخصٌ طيِّبٌ ومحترمٌ وناضج، تُومِئ تيريزا عن غير اقتناع. سالڤاتوري ثريٌّ، ثريٌّ جدَّاً، لكنّه لم يكن شابّاً وسيماً،

دع عنك شخصيَّته الهشَّة. ثمَّ إنّها لم تكن لتغفر له إطلاقاً – إطلاقاً، تعلم ذلك – ساقه المعطوبة.

والواقع أنّ أحوالها كانت ستستقرُّ بما يفوق أحلام والدي، إذ لم يعد مضطرَّاً حتَّى إلى تأمين المهر، الأمر الذي عزَّز حصانة تيريزا أكثر فأكثر. كانت تدرك أنّني أراها في ورطة، فأخذت تعاملني بصفتي خادمةً عندها.

«أريد تناول الدجاج هذا المساء» تأمرنا. فكان أبي يعود بدجاجةٍ حَيَّةٍ يمسكها من رِجْلَيْها ورأسها مقلوب إلى الأسفل، مثلما يفعل خَدَم الأثرياء، وجناحاها يخفقان بشدَّةٍ وجنون. وكان ينادي الجميع، ما عدا تيريزا، لنخرج لمشاهدة المذبحة، في الفسحة أمام البيت. وكان أنجلينو يثبِّت عينَيْه على الدجاجة المسكينة بينما يشدُّ والدي عنقها أوَّلاً، ثمَّ يبتر رأسها بالساطور. ويُجرِّنها بعدئذ ويتركها معلَّقةً على خُطَّاف، في الخارج، لكي يُفرِّغ دمها. ثمَّ يأتي دوري. «انتفي ريشها» تأمرني أُمِّي، بعد ساعة، وتحملها إلى الداخل. كانت تلك وظيفةً أمقتُها، لكنّ تيريزا تظلُّ جالسةً تراقبني حتَّى أنتهي. كنتُ أنتزع أحشاء الدجاجة وأرميها في الجُرْن، والدماء تسيل من أطرافها. ثمَّ أمرُّ من جانبها وذراعاي مخضَّبتان بالأحمر حتَّى مَرْفِقَيَّ.

«تغسَّلي» تقول «فأنتِ مُقرِفة. وأنا لا يمكنني أن آكل مع واحدةٍ مُقرِفة».

في فترة تحضيرات الزواج، كانت تيريزا تذهب إلى ماكيا لزيارة سالڤاتوري. تبعد ماكيا عن كازولي نصف ساعة على الأقدام، في نهاية دربٍ يقطع تلَّةً من خضرةٍ نضرة. وليس من العادات الحسنة أن تذهب

بمفردها، ورافّايلي في نابولي، فكان والدي يُجبرني على مرافقتها، بما أنّني أكبر الإخوة من بعدها.

كنّا نلاقي بييترو في ساحة ماكيا، فنمشي معها أنا وهو إلى بيت سالڤاتوري، حيث نفارقها. فتصعد تيريزا وتقضي الظهيرة في شرب الشاي وتناول البسكويت مع خطيبها وحماتها المستقبليّة.

وهكذا نبقى أنا وبييترو بمفردنا، كانت طريقته في النظر إليَّ وضمِّي إليه حين لا يكون حولنا أحد تصل إلى حَدِّ إفزاعي. يريد تقبيلي، فأخبره أنّه لا يجوز في الشارع، فإذا هو يمسكني بكلتا اليَدَيْن، ويكاد يرفعني عن الأرض. كنتُ في سنِّ الثانية عشرة طويلة القامة مثلما أنا عليه الآن، جوانبي ممتلئة وصدري كبير، وساقاي رفيعتان وقَدِّي ممشوق.

كنتُ أحياناً أتركه يسحبني إلى القصر البلديّ في كازولي، حيث أشجار كستناء الحصان التي أتسلّقها في صغري، وسياجا الدودونيا والغار الكبيران، حيث اختبأتُ بصُحْبة إخوتي مراراً. كان بييترو ينزع قبَّعة العمل ضاحكاً، ويتسلَّل إلى أحد السياجَيْن خُلْسَةً عن الأنظار. ثمَّ يجرُّني إلى الداخل. فنبقى جالسين القُرْفُصَاء وجهاً لوجه، في عالم الظلال والأغصان ذاك.

«لديكِ أجمل وجهٍ في سيلا كلِّها» يتنهَّد وهو يداعب وجنَتَيَّ ويتتبَّع خطَّ حاجبَيَّ. «وفمكِ أيضاً».

كان في باطنه نارٌ تتأجَّج. يمدِّدني فوق أوراق الغار اليابسة والمصفرَّة، فأقرِّر التزام الصمت، إذ إنّ القوَّة التي يبسطني بها أرضاً تُطيِّب خاطري. كنتُ أرتدي فستان العطلة، الملوَّن، والقميص الأصفر والجوخ الأخضر فوقه.

«هذا سيصبح أحمر عمًّا قريب» يتحدَّث عن الجوخ، لأنّ الأحمر هو الذي تلبسه النساء المتزوِّجات.

فأنفجر ضحكاً، فيهرسني بثقله كلِّه، ويُقبِّل فمي.

«ما الذي تفعله؟» أقول وسط الشفاه التي تنفتح «ماذا لو رآنا أحدهم؟ ماذا سيظنُّ؟» ثمَّ أتركه يفعل ما يشاء.

لم يكن بييترو يسمعني، إذ يبحث بلسانه عن طريقٍ بين أسناني. وكانت أنفاسه بطعمة أيَّام العمل، والتبن والهواء الطلق. وعيناه: تانك العينان الواسعتان والجميلتان والسوداوان بنكهة الغد. لستُ واثقة من أنّني أعرف الغد الذي تتحدَّث عنه المعلِّمة دوناتي، أمَّا ذاك الذي يجتاز عينَي بييترو فنعم، أعرفه جيِّداً.

في الأثناء، ومن دون أن أنتبه، فكَّ بييترو أربطة قميصي. شعرتُ بمَلمَس كفِّه الخشنة على القماش، فأمسكتُ بمعصمه لأُقصيَهُ عنِّي. فكان يأخذ يدي ويقبِّل أصابعي، ثمَّ يقلبها ويقبِّل كفِّي.

«أنتِ لي» يقول، وها هو يدسُّ يداً تحت القميص ويضغط نهدي «لي لا لأحدٍ غيري». تصلَّبت حَلَمَتاي، وتراجعت أنفاسي حتَّى المنطقة الرطبة وسط ساقَيَّ. وها أنا أمسك معصمه ثانيةً، لكنّ بييترو كان أقوى منِّي.

«أنتِ لي وحدي» يردِّد، ويقبض على نهدي كما لو أنّه حبَّة كريفون آنَ عصرُها. «إنّها رُمَّانة» يقول وأتركه يغوص بأصابعه، ومِن ثمَّ برأسه «حلوةٌ مثل رُمَّانةٍ طازجة».

كنتُ أشمُّ رائحة شَعْره القويّة، وتمنعني رعدةٌ عن الكلام. ثمَّ يعود إلى فوق، يتلامس الأنفان، وتتشابك أنفاسه بأنفاسي. وفي النهاية أعضُّ

إحدى شفتَيْه وأُنحّي يده. فيصرخ من الوجع، ويمرِّر ظاهر يده على فمه. أجل، كان فمه ينزف.

«أنتِ شرِّيرة» يقول «أنتِ طفلةٌ شرِّيرة. سأعود إلى البيت تعيساً بسببكِ».

كنتُ أفعلها عمداً. أستجمع نفسي، ونضحك، ونعود سعيدَيْن وسط القصر البلديّ مؤمِّلَيْن أنّ أحداً لم يرنا خارجَيْن من السياج، وألّا يفشي بسرِّنا لوالدي. فهذا كفيلٌ بأن يُقضى عليَّ، ويُقضى علينا إلى الأبد. كانت عائلتي ستُدمَغ بوصمة العار. طفلةٌ لم تتزوَّج بعد، في سنِّ الثانية عشرة تجول وحدها رُفْقة رجلٍ داخل القصر البلديّ.

«أنتِ مجنونة» كان بييترو يقول، قبل أن يودِّعَني. وكنتُ أعلم أنّه لا يقصد ما أمنعه عنه بقَدْر ما أسمح له بفعله. كنتُ مجنونة. لكنّ بييترو يرى فيَّ المتمرِّدة التي لم أعد أراها، التي ماتت منذ أن أصبحتُ امرأة، وهذا ما كان يربطني به أكثر من فكرة الزواج. فلقد فقدتُ الشجاعة، في حين كان لديه منها ما يكفيني أنا أيضاً. كنَّا نلهو: «رأسكِ مجنونٌ، يا آنسة» يقول، ويضرب على صُدْغَيْه مبتسماً «مجنونٌ مثل رأسي».

وفي المساء، عندما أنزع ثيابي للنوم، كنتُ أجد على ذراعَيَّ آثار حبِّه المكبوت. لم أكن أتخيَّل أنّ تلك الآثار بعد وقتٍ طويل – غدونا خلاله متزوِّجَيْن – ستكفُّ عن الإشارة إلى شهوانيَّته، لكي تشير إلى شيء آخر.

كان بييترو يختزن طاقةً رهيبةً منذئذ، كما لو أنّه هو نفسه يفزع من قوَّته ذاتها، ويحاول بشتَّى السُّبُل أن يلجمَها.

في صباح يوم أحد، وبينما كان أبي في الخارج يفلق الحطب، وأُمِّي تنقع الخضروات للغداء، سمعتُ صفيره صادراً من خلف البيت.

«فيووو-فيـ-فيـ-في». كانت تلك التصفيرة مُنبِّهَنا الخاصَّ، على غرار تغريد أبي الحنَّاء.

خرجتُ بعُذرٍ مّا. كان ينتظرني جالساً إلى عتبات بيتٍ مهجور، ليس ببعيدٍ عن بيت كارميلينا والدون طونيو. يرتدي ثياب يومِ الأحد: قميصٌ أبيض وبنطلون زوافيّ.

«هل ترغبين في الذهاب لرؤية المَفْحَمَة؟» كان في فمه قشَّة.

كنَّا سنذهب على ظهر البغل الذي يستخدمه للعمل، لن نتعب. هذه هي طريقته لإدخالي إلى عالمه، وإظهار عبوديَّته على مرآي. وما إن أرى حالته، كان سيخسر دفاعاته كلَّها في نظري. كنتُ سأثق به تمام الثقة عندئذ، هذا ما أراد إيصاله إليَّ، لأنّني حين أكتشف جانبه الأضعف سيتسنَّى لي أن أجرحه بأيِّ لحظة.

استغرقنا ساعةً لبلوغ الغاب، عبرَ دربٍ حصويّ، مروراً بحذاء الأبقار والأغنام في المرعى. صفَّرَ بييترو لأحد الرعاة الذي رفع ذراعه وحدَّق إلينا مظلِّلاً عينَيْه بيده، تحت الشمس. رفع كلبٌ محلِّيٌّ رأسه، وكان ضخماً، أسودَ وبُنِّيّاً، ثمَّ مضى ليعضَّ ساق بقرةٍ شردت عن القطيع.

لم أدخل الغاب منذ أعوام، آخِرَ مرَّةٍ حين سبحتُ في المستنقع. وعندما غطَّتْنا ظلال الصنوبر الأرزيّ ترجَّلنا، كان الدرب صاعداً ولم تعد الدَّابَّة تطيق الحِمل، تنزلق على سرير الأغصان والأوراق، وبقايا الأشجار التي قُطِعَت لتغذية مَفْحَمَة مانكوزو. وفي الأعلى، في البعيد، يتصاعد خيط دخان. تغيَّرَ مزاج بييترو في اللحظة التي بتنا فيها نرى قِمَم الجبال.

«ليتني أعيش هنا» قال «مثل جَدِّي، ومثل والده من قبله. كانوا صيَّادي أيائل، ويوصفون بالأباليس، الأرواح الشرِّيرة، يقال إنّهم كانوا

غريبي الأطوار ... ولطالما أفزعوا سكَّان البلدة». توقَّفنا. «وحتَّى الآن، كلُّ مَنْ يعيش هنا في الداخل يسبِّب الرعب لمَنْ يسكن في الخارج».

أمسك بالقشَّة التي ما زالت في فمه وعَقَدَها واقترب من ضفدعةٍ على طرف الدرب. وضع العقدة أرضاً، وحاول أن يلتقط الضفدعة من ساقها، لكنّها قفزت بعيداً.

«أجدادي ما كانوا يبالون» تابع «أمَّا أبي، فبلى. هو الذي قرَّر أن ينتقل للعيش في الأسفل، قبل أن يموت. لكنّني أشعر بخير حالٍ في الجبل أكثر من البلدة».

واصل الصعود وهو يشدُّ البغل من رسنه. لم أكن قد سمعتُهُ يتحدَّث هكذا من قبل، فالغاب يمدُّهُ بكلماتٍ من نوعٍ مختلف، لم يعد الشابَّ الوقح الذي كان عليه في السهل، كان يسير وينظر إلى الأرض ويتروَّى في كلِّ جملة.

وصلنا إلى فسحةٍ أُجلِيَ منها الزان، ورُتِّبَت ما حولها عشراتٌ من الجذوع والأغصان، المقطَّعة والمكدَّسة بحسب الحجم، الأضخم في القاعدة والأرفع والأطول فوقها. وفي ذروة الكومة عيدانٌ وأَجَمَات، والهواءُ معشَّقٌ برائحة التقطيع والراتينج. وفي الوسط ينهض جبلٌ صغيرٌ من أرضٍ متراصَّةٍ يبلغ طوله خمسة عشر متراً، وفي قمَّته فتحةٌ يخرج منها خيط الدخان الأزرق الذي رأيناه من الدرب. وفي الداخل مجمرةٌ كبيرةٌ تفرقع.

وفي الجانب الآخر من الجبل الصغير، هناك ثلاث رفاق لبييترو، مختبئين، يضربون بمجارفهم على الجدار المغطَّى بالأرض، بغية تسطيحه. ثقبوه من قاعدته بخرزانةٍ طويلة ومسنَّنة أربع أو خمس ثغرات. وسرعان ما دفقت من تلك المداخن نفثاتٌ هائلةٌ تدافعت لتنضمَّ إلى

نفثات المدخنة الرئيسة. حاول أحد الرفاق أن يقول شيئاً، وكان هزيلاً في الخمسين من عُمُره، لكنّ نوبة السعال الحادَّة أعيتْهُ. هذا قَدَر الفحَّامين: أن يموتوا في سنِّ الشباب بأمراضٍ رئويّة. ولعلَّ بييترو جاء بي إلى هناك من أجل ذلك، لكي يُحذِّرني. استطاع الرجل أن يقول بين سعلةٍ وأخرى:

«أتيتَ بالفتاة ... أوه، أحسنتَ، يا بييتروتسو!»

في الغاب لا قيمة لأعراف البلدة، بإمكاننا البقاء معاً أمامهم حتَّى لو لم نكن متزوِّجَيْن، وهكذا ضمَّني بييترو إليه، بقوَّة، كما لو كان زوجي. هي المرَّة الأولى التي نظهر فيها ثنائيَّاً، وأراد لها أن تكون في مخزن الزان ذاك. نظر إليَّ، كان يريد أن يُقبِّلني، لكنّي التفتُّ إلى الجهة الأخرى.

ثمَّة سُلَّمٌ خشبيّ مسنود إلى جانب المَفْحَمَة، يُستَخدم لإسقاط الأغصان والجذوع من الفتحة الرئيسة داخل ذلك الجبل الصغير، لإبقاء الجمر مذكياً على الدوام مع ضرورة ألَّا يستعر ناراً. هنا تكمن صعوبة العمل: تزويد الجمر بالوقود ومنعه من الاحتراق في آنٍ واحد. فالجبل الصغير ذاك مثل بركانٍ لا يقذف الحِمَم، إنمّا ألسنة اللهب والدخان الأزرق.

«هذا بخارٌ نقيّ» قال بييترو «استنشاقه مفيد».

تسلَّق على السُّلَّم، لوَّح بيده ليُشتِّت شمل الدخان، ونظر إلى داخل الفتحة ليراقب الجمر في الأسفل. ثمَّ انتظر أن يعود الدخان مستقيماً، نتأ برأسه، واستنشق بصوتٍ عالٍ.

«تعالي، تعالي» قال من الأعلى. وما إن نزل صَعِدْتُ، ليسندَني من الأسفل. البخار بنكهة الخشب المعطَّر، كأنّ تنفُّسَه يفتح الجسد من الداخل. كان بييترو على بُعْد ثلاث عتبات أو أربع تحتي. «ما بكِ،

أترتجفين؟» سألني. كنتُ أرتجف بعض الشيء، بسبب العُلُوِّ، والأبخرة. «أترين كم هو أزرق؟» أومأتُ، متشبِّثةً بالقضبان. «سيصبح أبيض بعد شهر تقريباً» تابع كلامه «يكون الفحم حينها جاهزاً لكي يُباع، وبإمكاننا هدم هذه المَفْحَمَة. فنحن نحتفل والدون مانكوزو يضطجع على جبلٍ من النقود. سيبيع هذا الفحم الذي هنا في كلكتا».

وعندما نزلنا أمسك غصناً من الكومة، وكان مقطَّعاً وجاهزاً للحرق. «هذا سيصل إلى الهند، هل تستوعبين؟» ثمَّ رماه بقوَّته كلِّها، وسقط الغصن بعيداً جدَّاً، ما وراء كومة الحطب. «على متن *فرديناندو الأوَّل*، أو مَنْ يدري على متن أيِّ باخرة؟ أمَّا أنا، فسأبقى في ماكيا إلى الأبد، مثل المغفَّل».

نظر إليه أحد زملائه. «حذار، يا بييترو».

لكنّ بييترو بصق على الأرض.

«فلنذهب من هنا» قال «فلقد أريتُكِ ما وجب أن أُريكِ إيَّاه. وإنّني لا أُفضِّل البقاء هنا عندما لا أعمل».

وبينما كنَّا عائدَيْن، كنتُ أمشي خلفه بخطوات وأنظر إلى ظهره. كان ذلك الشابُّ مثل المَفْحَمَة. كان بركاناً يغلي ما بين لحظةٍ وأخرى، مثلما حدث له في الساحة مع سيِّده. وقد يثور من لا شيء. كانت علامات ما سوف يقع لاحقاً ماثلةً أمام عينَيَّ، ومع هذا كنتُ أفعل ما بوسعي كي لا أراها.

14

سجَّلتْني المعلِّمة دوناتي في امتحان القبول للمدرسة العليا، وكانت قد ذهبتْ شخصيّاً إلى الإدارة العامَّة للتعليم الحكوميّ في كاتانزارو، وأنفقتْ ألف دوقيّة. ولكنْ، على ضوء ما اكتشفتُهُ لاحقاً، كان لتيريزا في تلك الأشهر مراسلات سرِّيَّة مع وَليِّها البوربونيّ - النبيل صديق عائلتها السابقة، الذي بعث رسالةً قبل أعوام طويلة، يُنبئ فيها عن وصول شقيقتي - وطلبتْ منه أن يتدخَّل لدى وزارة الداخليّة ومسؤول المقاطعة، الذي له نفاذٌ إلى أضابير المسجّلين.

كرَّستْ أُمِّي من وقتها شهوراً لتصميم ومِن ثمَّ تفصيل اللباس والمعطف اللذَيْن سأرتديهما في ذلك اليوم. وكانت المركبة المتَّجهة إلى كاتانزارو تنطلق قبل الفجر، عليَّ أن أنام عند المعلِّمة، بحيث تسهل علينا المغادرة. جاءت لتأخذني في اليوم السابق، أنيقةً وواثقةً من نفسها، ما أصاب أُمِّي بخضَّة. «ما أروع هندامكم» قالت مطأطئة الرأس. بدا لها من المبالغ فيه أنّ امرأةً بهذا التميُّز تتفانى من أجلي إلى ذلك الحَدِّ. كانت تعتقد أنّها لا تستحقُّ هذا الاهتمام كلَّه، ولا العائلة تستحقُّه، ما يعني أنّني أنا أيضاً لا أستحقُّه.

«وأنتِ أنيقةٌ كذلك» قالت في النهاية، وقد التفت نحوي، وعدَّلت ياقتي. وهذا صحيح، كان الفستان الأزرق، والمعطف الجوخ من اللون

نفسه، يليقان بي. أمَّا الحذاء، جزمةٌ معقودة الأزرار، فكنتُ سأستعيرها من المعلِّمة، وقد كانت لابنتها وما عادت تناسب مقاس قَدَمَيْها.

رافقتْنا أُمِّي على الدرب المؤدِّي إلى الساحة. «تبدوان أُمَّاً وابنةً» قالت عندما ودَّعتْنا.

ثمَّ التفتُّ، لكنّها كانت قد اختفت.

وصلنا في اليوم التالي إلى الإدارة العامَّة على الأقدام. كان الطريق من موقف المركبة إلى وسط المدينة يستغرق الساعة تقريباً، ولم يتكلَّم أحدٌ منَّا من فرط التوتُّر. وعند إحدى الباحات، وجدنا أنفسنا فجأة أمام ذلك المبنى المهيب، وما إن رأيتُه حتَّى انتابني شعورٌ بالفراغ في بطني: خارجَ البَوَّابة الحديد كثيرٌ من الشبَّان الذين سيُجرِّبون حظَّهم مثلي. كنَّا جميعاً هناك لنخون أهلنا، لنبحث عن سبيلٍ مختلفٍ عمَّا أرادوه لنا. هناك فتياتٌ أكثر من الفِتْيَة: نحن أخواتٌ ومتنافساتٌ، فكَّرتُ، لا يوجد مقاعد تكفي الجميع.

طُلِبَ منَّا تقديم الوثائق للدخول، وفي تلك اللحظة تودَّعنا أنا والمعلِّمة. وعلى الرغم من توتُّرها طمأنتْني وقالت إنّها ستكون بانتظاري هناك تماماً، في تلك النقطة تحديداً، خارج البَوَّابة. وكانت ستذهب للتنزُّه قليلاً خلال تلك الساعات الخمس، كي لا يصيبها التوتُّر بالغليان. «سيمضي كلُّ شيء على ما يرام، يا صغيرتي» قالت قبل أن تدفعني بخفَّة نحو المدخل، وتنصرف.

فاستجمعتُ شجاعتي، وصَعِدْتُ السلالم. كان هناك موظَّف جالس خلف طاولة كبيرة أمام باب القاعة الكبرى، يتحقَّق من البطاقات الشخصيّة على قائمة. وداخل القاعة يزدحم الحشد ما بين الجدران

والمقاعد ويتَّخذ كلٌّ مكاناً له، تراءى لي المشهد من خلال الباب نصف المفتوح، لم أرَ هذه الجمهرة من الشبَّان كلِّهم معاً من قبل. لكنّي ما زلتُ في الجانب الآخر للطاولة أرتجف من هول الاضطراب، إذ إنّ الموظَّف لا يعثر على اسمي في القائمة.

«هلَّا أعدتِ لي اسمكِ، يا آنسة؟» كان يصيح محاولاً أن يعلو بصوته فوق الضجَّة.

«أوليڤيريو ماريّا».

«ارفعي صوتكِ أكثر، فالضوضاء مُدوِّية هنا» انتفخت شرايين رقبته لكثرة ما أُجهِدَ في إسماع صوته.

«ماريّا ... أوليڤيريو ماريّا» ردَّدتُ.

«أوليڤيريو ... تنتهي بالواو؟» سألني.

«أجل».

وما زال يفتِّش في الأوراق من الأمام والخلف، نظر إليَّ في النهاية من فوق نظَّارته.

«يا آنسة، اسمكِ ليس موجوداً».

«لا شكَّ أنّه موجود حتماً» قلتُ بفمٍ جافٍّ.

كان مَنْ في الطابور ورائي يدفعني إلى الطاولة.

فتَّش الرجل مجدَّداً، ونظر إليَّ مجدَّداً. «ليس موجوداً» ردَّد وهو يهزُّ رأسه.

«لا بدَّ أنّ هناك خطأ».

«لا يوجد خطأ، يؤسفني، يا آنسة. لستِ في القائمة. بإمكانكِ أن تعيدي المحاولة في العام القادم».

لم تعد ساقاي تحملانني «أنا ... أنا» تلعثمتُ «دعوني أدخل بالأحوال كلّها. لقد تجهَّزتُ كثيراً ... يجب أن أُجري هذا الامتحان».

«يؤسفني يا آنسة».

أمسك بي أحد زملائه من ذراعي وأبعدني، بينما كنتُ أصرخ أنّني درستُ طوال الليل لأكثر من عام، وأنّ المعلِّمة دوناتي واثقةٌ من أنّني سأجتاز الامتحان، فكيف لي الآن أن أعود هكذا إلى كازولي؟! لكنّ الموظَّف سحبني نحو السلالم، وجرجرني حتَّى البهو، وكنَّا الوحيدَيْن اللذَيْن ننزل وسط طابورٍ يصعد.

ثمَّ سحبني خارج البَوَّابة الحديد، وتركني هناك. لم تكن المعلِّمة دوناتي في المكان.

فأخذتُ أركض وعند كلِّ منعطفٍ أو ساحةٍ أبحث عنها يائسةً وأصيح باسمها؛ وبعد وقتٍ لا يمضي، وقد أُنهكتُ وفقدتُ الأمل، حدَّدتُ من خلف واجهة أحد المقاهي رأساً وشَعْراً كستنائيَّاً مربوطاً عند الرقبة: المعلِّمة جالسة إلى طاولة، تقرأ. طرقتُ على الزجاج، برفقٍ أوَّلاً ثمَّ بقوَّة، فرفعت أنظارها، ورأتني وتسمَّرت في مكانها، مذهولة، كما لو أنّها ترى شبحاً. حدَّقتُ إلى انعكاسي على الزجاج، كنتُ أغلي، مصدومةً وشاحبة إلى حَدٍّ كبير. فأشارت المعلِّمة بيدها وجاءت إليَّ عند الباب.

«ما الذي تفعلينه هنا؟»

لم أردّ، كنتُ أبكي وأرتعش.

دفعتْ ثمن الشاي الذي تناولتْهُ، وعدنا ركضاً إلى الإدارة العامَّة.

«لا بدَّ أنّهم أخطؤوا» كانت تردِّد في الطريق، وتلهث، ومعطفها ينفتح في وجه الريح «من المؤكَّد أنّه بوسعنا فعل شيء».

وحين وصلنا وجدنا السلالم خاوية. وما انفكَّ الرجل خلف الطاولة يهزُّ برأسه، فاستطاعت المعلِّمة أن تتكلَّم مع المسؤول، بينما تحوَّلت الفوضى في القاعة الكبرى إلى صمتٍ مطبق. تحقَّق الرجل الثاني، البدين والمتعرِّق، في السجلِّ والقائمة بدوره عدَّة مرَّات، وأومأ نافياً. لا أثر لتسجيلي. ألحَّت المعلِّمة، فهي التي اتَّجهت بنفسها إلى الإدارة، ودفعت التكاليف، لا بدَّ أن يبين أنّني مسجَّلة في إحدى الأوراق. فتح الرجل البدين ذراعَيْه وهزَّ رأسه، إلى أن عادت المعلِّمة إليَّ، وعقدت أزرار معطفي الأزرق حتَّى العنق.

ففهمتُ كلَّ شيء في تلك اللحظة، وكان الإحساس كما لو أنّي ميّتة: إن لم يظهر اسمي حتَّى بين الذين يجرِّبون حظَّهم، فمعنى هذا أنّ كلَّ شيء كان مجرَّد وَهْم، وكنتُ سأظلُّ نسَّاجة مدى الحياة.

وفي طريق العودة، كنتُ أرى المدينة للمرَّة الأولى، ومن ثمَّ المنظر حولي بالمركبة، على حقيقتهما: كومةٌ من اللعنات والإحباط، أكداسٌ من القمامة والقاذورات على أطراف الطُّرُقات، كلابٌ ضالَّة هزيلةٌ ومسعورة، جرذانٌ ضخمة تعدو في الوحل، وسط برَكِ الماء، جماعاتٌ من اليائسين والبؤساء يتلاقون كلَّ يومٍ ولحظةٍ في زوايا الشوارع بحثاً عن طريقةٍ للنشل أو إفساد أحدهم من أجل البقاء. إنّ كاتانزارو والطريق المتَّسخة التي تسير فيها المركبة تجسِّدان المملكة، والمملكة تجسِّد العالم، والعالم بلا سبيلٍ للخلاص.

لكنّ ما كان ينتظرنا في العودة أسوأ بكثير، مع أنّي ظننتُ أنّه ما من أسوأ من الخزي الذي اعتراني ما إن ترجّلتُ عن المركبة في ساحة كازولي، أمام المجموعة الصغيرة التي تشكّلت هناك، تترأّسها أُمّي وڤنشنزا.

طأطأتُ رأسي، لا شجاعة لديَّ لأواجه نظراتهم. فهمت أُمّي كلَّ شيء على الفور، وڤنشنزا كذلك. لم يطرحا أسئلة، لا في ذلك اليوم ولا بعده أبداً، بل شعرتُ ألَّا وجود لي في البيت لبعض الوقت. وفي الصباح التالي، ومن دون حماقات، أمسكتُ خيط الحبكة والمكُّوك وهممتُ بالنسج.

وسرعان ما نسيتُ الخزي، وحلَّ مكانه الرعب. فبعد أربعة أيَّام من عودتنا، اعتقل رجال الحرس الوطنيّ المعلِّمة دوناتي وزوجها.

دهموا منزلهما في الليل، بفرقةٍ كاملة، خلعوا الباب، وقيَّدوهما دون إعطائهما الوقت لأخذ ثيابٍ احتياطيّة. كانا مُسجَّلَيْن منذ سنوات في قائمة «المرصودين»، أي تحت المراقبة منذ أمدٍ بعيد. لم يتسنَّ لهما توديع أحدٍ أو إخطار أحد: لم يعد لهما وجود في الصباح التالي، بكلِّ بساطة. وبقي باب منزلهما موارباً، ما يُثبت سرعة الاعتقال وعنفه، ولم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب للتحقُّق أو طرح أسئلة، أو إغلاق الباب. تساءل الجميع في كازولي عن سبب ما حدث، وعمَّا دفع البوربون ليُقرِّروا سحق عائلة دوناتي بالفعل.

وبعد بضعة أسابيع من الاعتقال، أُجريت محاكمةٌ – مستعجلة، مهزلة – في مقرِّ الحرس الوطنيّ، الذي كان يشرع أبوابه للشعب كلّه، كي يهينوا المتَّهمين. منعتْني أُمِّي من الحضور، لكنّي فررتُ واستطعتُ

التخفّي بين الحشد في القاعة الصغيرة. وعند حَدٍّ مّا، أبرز القاضي العسكريّ دليلاً، دامغاً كما وصفه، على النشاط الانقلابيّ للسيِّدة دوناتي وزوجها.

«لا سيَّما السيِّدة» أشار «إلَّا أنّه من المُفترَض أنّها ما كانت لتقوم بأيٍّ من تلك النشاط لولا دعم زوجها القاضي».

أخرج بطاقةً ورقيّة بحركةٍ بطيئة ورزينة من مظروفٍ مجعّد: صورةٌ فاضحة لامرأةٍ مهيبة تمثِّل إيطاليا.مكتبة سُر مَن قرأ

وبينما علت الهمهمة تمكَّنتُ من التحديق ما بين الأجساد وسرعان ما اجتاحتني غُصَّة. تلك الصورة، أعرفها جيِّداً. هزَّها القاضي غير مرَّة أمام الجميع، ثمَّ مرَّرها يداً تلو يدٍ على مستشاريه، مُوصِياً بالتحقُّق منها جيِّداً، إلى أن وصلت إلى أيدي المتَّهمَين.

في الخلف كُتِبَت عبارةٌ مَمضِيَّةٌ بقلم الرصاص، لطالما قرأتُها وتلمَّستُها: *إلى ماريّا*. من *كاترينا دوناتي*. تلك أبيات «نبوخذ نصر» مع صورة إيطاليا التي أهدتْها لي.

«أهذا المكتوب لكم؟» سأل القاضي.

اكتفت المعلِّمة بالإجابة «نعم»، باعتزازٍ وهَامَةٍ مرفوعة.

«جيِّد» استخلص القاضي العسكريّ «تمَّ الاعتراف بالجرائم».

وقبل أن يخطر في بال أحدٍ أن يلتفت تجاهي أو ينادي باسمي، هربتُ إلى الخارج.

كلُّ ما عُرِفَ في البلدة أنّها وزوجها سيُنقلان إلى سجن فورتي سانتا

كاترينا، في جزيرة فاڤينيانا، وأنّي وعائلتي نتيجةً لذلك ستُكتَب أسماؤنا في قائمة «المرصودين». إن هي إلّا خطوةٌ خاطئة، ليقضوا علينا. وأدركنا منذ ذلك اليوم أنّنا بتنا تحت المراقبة، وأنّ أيَّ تنقُّلٍ أو حركةٍ أو كلمةٍ قد تُودِي بنا إلى الهلاك.

حين عدتُ إلى البيت بحثتُ في الكتاب الذي تركتُ فيه البطاقة. لم أجدها.

كان ينبغي أن أُخفيَها في مكانٍ أفضل، قلتُ في نفسي يائسةً، أو أن أُمزِّقها، أحرقها، كي لا أترك آثاراً. لماذا لم أفكِّر أنّ تيريزا قادرةٌ على سرقتها؟ كيف كنتُ مغفَّلة إلى ذلك الحَدِّ؟ سقطتُ على الفراش، ثمَّ جلستُ إلى النول، لكنّ يديَّ ترتجفان ولا أقوى على العمل. وكانت تيريزا، من باب غرفتها، تنظر إليَّ وأنا أتعذَّب، وتقهقه بخبث، وتهزُّ رأسها إزاء سذاجتي.

15

تزوَّجت تيريزا بسالڤاتوري في أغسطس من ذلك العام. أرادت والدتي أن تُنظِّم استقبالاً صغيراً في البيت، في اليوم السابق لحفل الزفاف، على الرغم من عدم موافقة تيريزا. «لا أبالي بـ «المرصودين»» قالت أُمِّي «هناك أشياء معيَّنة ينبغي فعلها».

كانت تفكِّر بالأمر منذ الشتاء، خشية أن تتعرَّض اللحوم لاجتياح يرقات الذباب. لذا عمدتْ قبل ثلاثة أيَّام من الزواج إلى نقل الأغراض من مخازن آل موريلّي، وغطَّت الأطعمة المطبوخة والنِّيْئَة بمناديل وأقمشة قطنيّة: سمك الأنشوفة، والزيتون، ولحوم السالامي، والمجفَّفات، والإندوجا، والبهارات، وغلَّفتْها جميعاً بستائر لا يمكننا مساسها.

تلك كانت حفلتنا، في اليوم ما قبل الحفل الحقيقيّ. ظلَّ باب البيت مفتوحاً من الصباح إلى المساء، والمائدة عامرةٌ بخيرات الله كلّها، ما جعل الأُمسيَّة أشبه بموكب الفلّاحين. وكان والدي يشرب النخب مع الحاضرين جميعاً، وكذلك فعل سالڤو. لم يتسنَّ لرافّايلي المجيء من نابولي، فوَرَدَ اسمه مع كلِّ نخب. «على شرف رافّاي الذي يعمل ليصبح ثريّاً!» ويشربون الكأس.

نفد النبيذ عند الرابعة عصراً، فخرج طونيو وعاد بعد قليل يحمل دِنَّاً من عشرين لتر. وإذ دخل هبَّ الحضورُ بالتصفيق، وأخذوا يتبادلون القَبلات والعناق وشرب المزيد. كانت تيريزا منزوية، قلَّ ما ابتسمت ونادراً ما تحدَّثت. تظارف أحدهم، وكان سكراناً: «هل أنتِ متأكِّدة

من أنّه زفافكِ؟ ينبغي لكِ أن تكوني سعيدةً، يا تيري». بذلتْ جهداً لرسم ابتسامة طفيفة، واختلقتْ عذراً لتنأى بنفسها عن صخب جماعة البؤساء تلك.

أمَّا الزفاف، فقد أُقيم في اليوم التالي، في قصر موريلّي في روليانو، عند أعمام سالڤاتوري، الكونت دوناتو وڤنشنزو موريلّي.

تكرَّمَ سالڤاتوري علينا بإرساله عربةً لنستقلَّها، ما جعل أبي وأُمِّي يشعران أنّهما سيِّدان.

كنَّا بين أوَّل الواصلين، توقَّفت العربات الفارهة قُبَالَة الباب الكبير وترجَّلتْ منها صفوة الأرستقراطيّة البوربونيّة، الكالابريّة والنابوليّة: كلُّ «القبَّعات» المتنفِّذين في المملكة كانوا هناك. سرت شائعةٌ أنّ الملك فرديناندو بذاته سيشارك، أو زوجته ماريّا تيريزا على الأقلِّ، فلقد حلَّا ضيوفاً على ذلك القصر في السابق. إلَّا أنّ شيئاً مّا قد أوقفه، ربمَّا نما إلى أسماعه أنّ الكونتات ما عادوا يجدون الاجتماع بالليبراليِّيْن أمراً مهيناً بعد أحداث «الفوضى الضارية» عام 1848؛ وتقول الألسنة الحاقدة إنّهم كانوا يتآمرون خلف ظهره استعداداً للإطاحة به. كانت تلك الأشهر في حِقْبَةٍ يرتاب فيها الجميع من الجميع، فآثَرَ الملك في نهاية المطاف عدم الحضور.

وكنتُ وأُمِّي نكتفي بإلقاء نظرة من بعيد، لنتعرَّف على الألبسة في الفِناء: موكبٌ من القبَّعات الأُسطوانيّة السوداء، والأوشحة المريَّشة والبدلات من الأطرزة المختلفة والألوان المتعدِّدة. معظم تلك الأنسجة آت من مصانع غولّو، ما يعني أنّها من صُنع أيدينا. كان دوناتو موريلّي، الأَخ الأكبر وربّ البيت، أكثرهم أناقةً، بطقمه الأسود والصدريّة والقفَّازَيْن البنفسجيَّيْن. أمَّا نحن، أنا وڤنشنزينا وأُمِّي وسالڤو وأنجلينو وأبي، فكانت ثيابنا باليةً ومرقَّعة. ألقت تيريزا توجيهاتها على سالڤاتوري لمنحنا ملابسَ

جديدة – ليس شفقةً علينا، إنّما خجلاً بنا – لكنّ والدي اعترض. «لديَّ نقودٌ لأشتريَ الثياب» قال «لا أسمح لربِّ عملي أن يُنفق على ما أرتديه». وكان سالڤو الذي بات رجلاً يلبس سترة أبي القديمة والمرقَّعة عند المَرْفِقَيْن والضيِّقة على الصدر، في حين ارتديتُ فستان امتحان القبول، الذي ظلَّ مغلقاً عليه في الصندوق وسط النفتالين منذ ذلك اليوم الملعون. كنتُ أشعر بالحَرِّ. «نحن مَن ألبَسَ هؤلاء النسوة كلّهنّ» قالت أُمِّي وهي تنظر إلى السيِّدات مِن حولها.

ثمَّ وصل العريسان ودوَّى التصفيق. كان سالڤاتوري مُلمِّع الشَّعْر وثيابه مَكويَّة، يتقدَّم متّكئاً إلى عكَّازةٍ، مقبضُها من لؤلؤ على شكل رأس حصان، مرتدياً بدلةً متناسقة وصدريّةً زرقاء، وربطة عنقه سوداء موسومةٌ بجوهرةٍ برَّاقة. وكانت تيريزا خلفه بخطوة، ترتدي فستاناً من الحرير والتُّلّ، أبيضَ ورائعاً، وخماراً طويلاً ينسدل من تاجٍ مرصَّعٍ باللؤلؤ والماس. كانت تتحرَّك وتشعر بنفسها ملكة، وكلَّما نظر سالڤاتوري إليها لمعت عيناه.

وفي نهاية الزفاف، الذي باركه أسقف كوزينزا في مصلَّى القصر، صَعِدْنَا إلى صالة الطعام في الطابق الأوَّل. كنَّا في مؤخِّرة الجمع، وقد منعتْ تيريزا أبي وأُمِّي من دعوة أيِّ قريبٍ أو جار. بل أقصتْنا في أبعد زاوية، لتعزلَنا عن بقيّة المَدعوِّين، إلى طاولةٍ صغيرة مربَّعة بجانب المطابخ. وحين رآنا دوناتو وڤنشنزو موريلّي داخلَيْن رميانا بنظرة احتقار. كانا مثل عائلة مانكوزو يعارضان الزواج، وتبيَّنَ ذلك عندما عزلونا آنذاك. ما كان الزفاف ليتمَّ إلَّا احتراماً لرغبة الشابِّ النبيل الذي تعلَّقَ بتيريزا ووعدها وتعهَّدَ لها، وقدَّمَ لها مهراً يسيراً، ومن أجل أملاك أعمامه الراحلين التي انتقلت إلى ملكيَّة آل موريلّي؛ احتراماً للحبِّ الحقيقيّ الذي غمر سالڤاتوري الأعرج. «إن كنتَ ستنتحر فسوف تفعلها بيدَيْكَ» يحكى أنّ هذا ما قاله الأعمام لحفيدهم قبل أن يوقِّع على وثائق التنازل لهم عن

بعض أراضيه. كانت تلك الطاولة المنزوية على هامش الحفل تلمِّح إلى جالسيها بأنّه لا مجال للخلط: نحن لسنا سوى مزارعين عندهم.

كنَّا آخرَ مَنْ قُدِّمَ لهم الطعام خلال الغداء كلّه، كما أنّ وجباتٍ معيَّنة لم نرها إلَّا وهي تمرُّ بجانبنا، سُمِحَ لنا بشمِّ رائحتها فقط. كانت شقيقتي تنتظر الزفاف لتعاقبَ أبي وأُمِّي على أصلهما، الذي كانت تتحدَّر منه كذلك، على الرغم من رفضها الانتماء إليه. لم ترَ أنّهما يستحقَّان بالكاد شيئاً. لا شيء تقريباً. لا شيء.

وعندما كان النُّدُلُ يعيدون الأطباق إلى المطبخ دون التعريج على طاولتنا، كانت والدتي تتصنَّع الشرود، وتتابع بإصبعها تطريزة المنديل المزركش، وتحاول أن تفهم من خلال النقشة ما إذا كانت تلك التصاميم من صنع يدَيْها، وما إذا كانت هي التي خاطتْها. «هذا ليس من صنعي» تقول كلَّما مرَّ نادلٌ مُحمَّل «انظري، انظري» تشير لڤنشنزا «لقد استخدموا هنا نقشة القاقم، مع أنّ النقشة الفرنسيّة تناسبه أكثر. صناعته رديئة، هذا المنديل».

وحين وصلت المشويات، خبط أبي قبضته على الطاولة: «يا لحظِّي، أتعس من الكلاب!». جلبوا لنا صحناً واحداً لنتقاسمه ونحن ستَّة. انقلبت كأس النبيذ وتكسَّرت، ورذَّ النبيذُ على سترته وقميصه الأبيض.

كان سالڤاتوري وتيريزا يرحِّبان بسيِّدةٍ عجوز وصلت متأخِّرة، وجلست للتوِّ إلى طاولةٍ ليست ببعيدة. التفتا على حين غِرَّة عند سماع الضجَّة.

أقبَلَ سالڤاتوري نحونا، بلا عُجَالَة، وهو يعرج، ونادى على نادل. «ما-ما الذي يحدث؟ قَدِّمُوا لهم ما يطلبون، على الرحب والسعة».

ثمَّ التفت إلى أبي. «ما الأمر، هل-هل ثمَّة شيء غير لائقٍ في الخدمة؟»

أخفض والدي عينَيْه ولم يقل شيئاً. إنّما سالڤو بجانبه هو الذي لم يطق السكوت.

«أنتم مُقرِفُون» فَحَّ بصوته.

ظلَّ سالڤاتوري صامتاً، تصلَّبَ فكُّهُ.

«هل-هل قلتَ شيئاً؟» سأل.

كان سالڤو مغتاظاً. «تعال إلى الخارج، أنتَ وساقكَ المعوجَّة، وسأُخبركَ بما قلتُ».

انفجر أنجلينو وڤنشنزا بالبكاء، حاولت أُمِّي أن تُمسكَ سالڤو من ذراعه، لكنّه نحَّاها عنه.

«حـ-حسناً» قال سالڤاتوري، بكلِّ هدوء «هل تريد الذهاب إلى الخارج؟ فلنذ-نذهب إلى الخارج. فهكذا تعي مَـ-مَنْ هو الضيف ومَنْ هو السَّـ-سيِّد». لقد ألهمه الزواجُ، وحرصُهُ على ألّا تشمت عائلته به، عجرفةً لم أشهدها عليه من قبل.

أومأ إلى أحد الخَدَم، ثمَّ أشار إلى الباب الزجاجيّ الذي يفضي إلى الشرفة. وسار متَّكئاً على عكّازته.

لحق به سالڤو.

وبعد قليل، عاد أخي بكدمةٍ على إحدى وجنَتَيْه والدمُ ينزف من أنفه. وعاد سالڤاتوري من بابٍ آخر، واتّجه إلى الطاولة المركزيّة، برويَّة، كأنّ شيئاً لم يكن. كانت تيريزا بانتظاره. وها قد أمست ثياب كلا الرَّجُلَيْن من عائلتنا مُلطَّخةً ببقعٍ حمراء. ظنَّ سالڤو أنّه سيواجه سالڤاتوري رجلاً لرجل، لكنّه ألفى نفسه محاصراً من خمسة رجال، وانتحى سالڤاتوري إلى زاوية ليستمتع بالمشهد. يا لأخي من ساذج! لم يكن يعلم أنّ بعض الأسياد يعدُّون الشرف مجرَّد بقشيشٍ يتركونه للعبيد.

نهضتُ حينذاك وذهبتُ نحو تيريزا التي كانت تدردش بسرورٍ مع بعض المَدعوَّات. رأتْني وخشيتْ أن أتحامق، فانصرفتْ عنهنَّ بعُجَالَةٍ وابتسامة، وأقبلتْ إليَّ.

«لماذا؟» سألتُها، ليس إلَّا. كنتُ أقصد ما حدث للتوِّ، لكنّي في الواقع أقصد كلَّ شيء، كلّ ما فعلتْهُ بحقِّي وحقِّ عائلتنا منذ أوَّل لحظةٍ لوصولها، وقد فهمت مقصدي. خصَّتْني بنظرةٍ جامدة، وقاسية.

«بلا سبب» قالت. ثمَّ استدارت وعادت إلى ضيفاتها تختال بأعرض ما عندها من ابتسامة.

كانت على صواب. الحقيقة هي أنّ الكراهية لا سبب لها، ولا شفاء منها.

أمضى أبي الظهيرة ينظر إلى تلك الابنة الغريبة التي كانت تشعر أنّها في بيتها داخل ذلك القصر، وتبدو سعيدةً وهي ترقص مع ضيوف زوجها، وتتبادل إيماءات التفاهم مع سيِّدات المدينة. لكنّه كان يتابع دورانها قليلاً، ثمَّ تهيم عيناه في التحديق إلى الفراغ.

أُمِّي كذلك كانت ترنو إلى ما وراء الباب الزجاجيّ على الجهة المعاكسة، إلى مرتفعات بريزيلا، وغاب الزان والصنوبر الأرزيّ، وتبحث عن قِمَمِهَا. وأنا، إذ تعلَّمتُ قراءة صمتهما، أدركتُ أنّ الحياة، بالنسبة إلى كلَيْهما، بزواج ابنتهما الكبرى، أصبحت تشابه الموت. ما الذي يبقى لكَ إن أذلَّكَ ابنُكَ؟

«سأُسعد أُمِّي وأبي بحفل زفافي» همستُ بأُذُن ڤنشنزا. كنتُ سأسأل بييترو ما الذي ينويه، وسأتزوَّج، قرَّرتُ في ذلك اليوم، سأفعلها من أجل أبي وأُمِّي.

الجزء الثاني
إيطاليا

16

ثمَّ وصلت بطاقة التجنيد العسكريّ إلى بييترو، وتغيَّرَ كلُّ شيء من جديد، وبطريقةٍ مُفاجِئة.

كان ذلك في يومٍ من أواخر صيف العام 1855، وكان الضوء في كلِّ مساءٍ يترك وعداً غير مُصان. فأن يكون جنديَّاً في جيش البوربون هو آخِر ما يرغب فيه بييترو. ظننتُ في البداية أنّ نبأ الالتحاق سيُحزنه، فإذا بأساريره تنفرج. «سنُؤجِّل الزفاف، يا ماريّا الصغيرة» قال لي «لكنّهم سيسوقونني إلى نابولي، حُلْمي برؤية العالم سيتحقَّق بشكلٍ لا يخطر على البال».

كان على النقيض منِّي، يعلم أنّه تكفيه المغادرة ليرى كلَّ شيءٍ يتغيَّر؛ ولعلَّهُ فَضَّلَ ألَّا يكون عبْر ارتداء بِزَّة المملكة، لكنّه كان سيجني من منافع هذا الأمر أقصى ما يستطيع.

«لو كنتُ ذَكَراً لغادرتُ كذلك» أقول له وأنا أبحث عن عينَيْه.

فيضحك بييترو ويردُّ: «ما الذي تقولينه، يا ماريّا الصغيرة؟ سأغادر أوَّلاً، ثمَّ سآتي بكِ معي. المهمُّ أن يتسنَّى الخروج لواحدٍ منَّا، ثمَّ سنذهب للتعرُّف على العالم معاً. أعدكِ. وسنُغيِّره، هذا العالم، أنا وأنتِ».

وفي المساء السابق لانطلاقه جاء ليأخذني من البيت، وقدَّمَ لي خاتم الخطوبة: خُويتمٌ من فضَّة ليس فيه أيُّ حجرٍ كريم. خاتمٌ من لا

شيء، لا يمكن مقارنته بأيِّ شكلٍ بالذي أهداه سالڤاتوري لتيريزا، ورغم هذا كان يبدو لي أثمن المجوهرات جميعها.

في الصباح التالي، عند بزوغ الفجر، جمع أغراضه، وصَعدَ إلى المركبة العموميّة. كنتُ في الساحة معه، أُعدِّل ياقة قميصه، وأُهذِّب شَعْره الأشعث؛ وكان أحد الخيول يصهل ويزفر متوتِّراً، وسط الخيول الأخرى التي كانت على عكسه تنظر إلى أمامها بكلِّ هدوء. كنتُ مثل ذلك الحصان: أفقد رشدي في عالمٍ محايدٍ يتغيَّر فيه كلُّ شيءٍ تحت السطح: تغييراتٌ لا يشعر بها أحدٌ غيري، ولا يراها أحدٌ غيري؛ في حين كانت الأشياء على السطح، تحافظ على حالها تحت ضوء الشمس، وبييترو يتجنَّد بين آلاف الشبَّان الذين ينطلقون في صمت، بدفعة العام 1855، وقد أتمّوا التاسعة عشر عاماً للتوِّ، وكانوا سيصنعون إيطاليا من حيث لا يعلمون.

شاهدتُ من الأعلى المركبة العموميّة شبهَ الخاوية تختفي، بينما تعدو الخيول خبباً وتنفث غيوماً من دخان، وبييترو يهبط باتِّجاه الوادي. سيصل إلى نابولي في غضون أيَّام، وربَّما سيموت فداءً لمَلِكٍ لم يكن يعرف حتَّى ما شكل وجهه.

إنَّنا نُطوِّر تعلُّقنا بالأغراض بشكلٍ مجنون. فلقد أصبح الخاتم الذي ألبَسَني إيَّاهُ بييترو ببنصري الأيمن بديلاً عن حضوره في تلك الأشهر.

كنتُ في الليل أمسُّهُ وأقبِّلُهُ. وأشعر أنّي غبيّة، لكنّ ذلك الخويتم الفضّيّ كان بمثابة وعد، والوعدُ رمزٌ للمستقبل؛ وكان هذا في تلك الآونة يكفيني. كنتُ سأعيش مئة عامٍ إضافةً إلى أعوامي الأربعة عشر، بوعدٍ وفكرةٍ عن المستقبل. لكنّ ماريّا العجوز، الطفلة الحرَّة، كانت

تأتي لزيارتي في الليل، لتُذكِّرني أنّ تلك التي أمست امرأةً إنّما هي في غاية التعاسة.

في بادئ الأمر بتُّ أتلقّى رسائل تشبه تلك التي كان رافّايلي يبعثها ما إن وصل إلى نابولي، قبل أعوام كثيرة. مكاتيب طويلة تُسلَّمُ يوم الجُمُعَة من كلِّ أسبوع. فأُواظب على النسج، ولا أفعل شيئاً سوى التفكير بالجُمُعَة الآتية.

المدينة لا حدود لها، يقول بييترو في رسائله، والبحر لا يمكن وصفه لشدَّة جماله ووساعته، كان سيأتي بي يوماً مّا لرؤيته.

ثمَّ صار يروي، مع مرور الوقت، أنّه على الرغم من كونه مجرَّد جنديٍّ بسيط، حصل على الإذن بمزاولة المنتدى الذي يرتاده الضبَّاط وطلّاب الأكاديميّة العسكريّة في نابولي. وروى عن شخصٍ يدعى جوفانّي نيكوتيرا وآخَرَ جان باتّيستا فالكونه، وهما كالابريّان، ثمَّ عن رجلٍ اسمه كارلو معروفٍ لدى الجميع بكُنيته، پيزاكانه. أصبح الأربعةُ أصدقاء لا يتفارقون، على الرغم من هول الفارق الطبقيّ. كان پيزاكانه صديقاً صدوقاً لجان باتّيستا وجوفانّي، وكان ضابطاً في الجيش البوربونيّ، لكنّه انشقَّ، لأنّه يحتقر الملك فرديناندو والخراب الذي أودى المملكة إليه. كان فارّاً وقد عاد متخفِّياً إلى نابولي آنذاك. وصفه بييترو في رسائله بأنّه مِقدامٌ، ذو مُثُلٍ، ثوريٌّ، مُتطلِّعٌ إلى تغيير العالم.

كانت أُمِّي تنظر إليَّ وأنا أحمل تلك الأوراق في يدي على الدوام وتتنهَّد.

«تابعي النسج، يا ابنتي» تقول «وإلَّا أصابتْكِ الحمَّى»، وتلامس ذراعي. «فالرجال إذا وُجِدُوا اليومَ انعدم وجودُهم في الغد». عرفَ

والداي بأمر الخطوبة، وما كانا ليغفرا لبييترو عدم تقدُّمه إلى البيت مع الخاتم رسمياً إلَّا لأنّه توجَّبَ عليه الالتحاق بالخدمة العسكريّة بأقصى سرعة. وكانت أُمِّي تحذِّرني من التعلُّق بجنديّ، لكنّ بييترو ما كان ليموت، ليس بعد، إنّما سينتظر أن أكون إلى جانبه في الجبال بغية القتال، في عشِّ النسر المحصَّن وسط الغاب.

ومع ذلك، كنتُ في تلك الأيَّام أحيا متخوِّفةً من عدم تلقِّي أخباره، ورحتُ أحفظ فقراتٍ بأكملها من رسائله للتغلُّب على مخاوفي. كان يروي أنّ أصدقاءه، جوفانيّ وجان باتّيستا وبيزاكانه، هم أبناء نبلاء؛ درسوا في نونتسياتيلّا، الأكاديميّة التي تُخرِّج الطبقة العسكريّة والإداريّة في مملكة الصِّقلِّيَّتَيْن؛ غير أنّ كلَّهم يُجسِّدون ما يطمح أن يكون عليه. روى أيضاً عن مدى تحيُّزهم إلى صفِّ الضعفاء، وكيف كانوا يخرجون من نونتسياتيلّا ليسكروا في مقاهي كاستل دل أوڤو جنباً إلى جنب حمَّالي الموانئ والشيَّالين والعمَّال. وكم رفعوا كؤوسهم إلى السماء باسم العدالة الاجتماعيّة وإيطاليا الموحَّدة. وكم كانوا يحلمون ببناء وطنٍ واحدٍ من دولَتَيْن متفرِّقَتَيْن ومتنازعَتَيْن، وطنٌ يزدهر فيه العدل أكثر من تينك الدولتَيْن. وجد بييترو رفاقه الذين لم يعثر عليهم في ماكيا وكازولي، أولئك الذين سيُهيِّئون له الفرصة، ليصبح الرجلَ الذي كان محتَّماً أن يكونه. بيد أنّ تلك الرسائل، التي تفيض حماسةً غامضةً، كانت تجرحني.

كنتُ أقرأ كلَّ كلمة فيها من جديد، في المساء، على ضوء القنديل، وأحاول أن أتعلَّم كلماتٍ جديدة، مثلما تعلَّمَ بييترو من رفاقه.

ارتدَّ عن عالمهم، كتب ذات مرَّة. كيف تعلَّمَ تلك التعابير؟ ولماذا يكتبها إليَّ بعفويّةٍ تامَّة؟ كان يتحدَّث عن أمورٍ لطالما ملأ فمه بها في

البلدة دون أن يُدرك مفاهيمها، فإذا هي تغدو بالنسبة إليه كمسألة حياةٍ أو موت. كان يعزو فشل تجربة الجمهوريّة الرومانيّة وتجربة الجمهوريّة الڤينيسيّة عام 1849 لكونهما لم تنظرا إلى أبعد من حدودهما، ولم تتملَّكا البسالة – كتبها «بسالة»، حرفيّاً – للانغماس نحو تحرير الوطن برمَّته. كان يتحدَّث عن الوطن، عن إيطاليا، مثلما حدَّثتْني عنه المعلِّمة دوناتي في لقاءاتنا يوم الاثنَيْن: كما لو أنّه أمرٌ مفروغٌ منه، كما لو أنّه موجودٌ بمشيئة الرّبّ منذ الأزمنة الغابرة، وما تقسَّمَ إلَّا بإرادة الإنسان.

خلال خمسة أشهر – يقول في رسائله – *تحرَّرت الأراضي من سطوة الإكليروس، وعادت إلى الفلّاحين! ولا بدّ أن يحدث هذا في ربوع إيطاليا كلّها!* ثمَّ روى كثيراً عن جوزيبّي غاريبالدي، القائد المغوار الذي قاتل في أصقاع الأرض، والذي كان يقول لكلِّ مَنْ يتشجَّع للانضمام إليه: «أمنح الجوع، الظمأ، المشية المنضبطة، المعارك والموت». كتب أنّ الثورة – «الثورة» هي الكلمة الأكثر تردُّداً في خطاباته – لا بدّ أن تبدأ من المزارعين، والعمَّال، وحدَها الجماهيرُ قادرةٌ على تشكيل جيشٍ بوسعه أن يحرِّر إيطاليا. *منَّا نحن تماماً* – يضيف – *لأنّنا نحن الحائكون، والنسَّاجون، والمزارعون، والحطَّابون، والفحَّامون. نحن الشعب.*

أراد أبي وأُمِّي الاطِّلاع على ما تحويه تلك الأوراق التي لا تفارقني أبداً.

هززتُ برأسي مراراً، وأجبتُ: «لا شيء».

«إيه، لا تردِّين إلَّا بلا شيء» تنهَّدت أُمِّي «ثلاث ساعاتٍ وأنتِ تقرئين بدلاً من أن تلتفتي للنسج، لا بدّ أنّ هناك شيئاً مكتوباً في هذه الرسائل».

«شأنٌ يخصُّني» أجبتُ.

عبَّرت والدتي بتكشيرةٍ، وعادت لتنحني على النول.

«لا بأس ...» قالت بعدئذ، لتستأنف النقاش، مُؤوِّلةً لحظات صمتي على أنّها تعاسة.

لكنّي، في الحقيقة، كلَّما أنهيتُ قراءة صفحات بييترو أحسستُ بالخزي من ذلك البيت، ومن عائلتي، بسبب وضاعتهم وانعدام الشجاعة لديهم. كنتُ أشعر بالذلّ من أصولي. هل تحوَّلتُ إلى تيريزا؟ أُسائل نفسي في الليل. وفي النهاية يتولَّاني العارُ من نفسي، لأنّني لم أتملَّك القوَّة للهرب. إذ إنَّ خالتي زلزال هي التي قالت لي إنّه ينبغي لي التصرُّف مثل حبَّة الصنوبر، وينبغي لي أن أستمدَّ الشجاعة من ذاتي، لكي أطير وأنجو، لكنّ حقيقة الأمر أنّني – خلافاً لبييترو – لم أكن قادرة.

كانت تلك الرسائلُ دلالةً على أنّ بييترو لم ينسني – ليس بعد، أقول في سرِّي – لكنّها دلالةٌ أيضاً على أنّ الطريق التي سار فيها تأخذه بعيداً عن ماكيا، بعيداً عن كازولي وعن كلِّ ما هو لنا. كان محقَّاً إذن: يكفيه أن يغادر ليجد ما يبحث عنه.

وذات يوم، كتب يقول إنّه التقى برافّايلي، وأرفق بالرسالة رسمةً صغيرةً بالقلم الرصاص والفحم. روى أنّ رافّايلي لا يستطيع دخول منتدى الضبَّاط، لذا كانا يلتقيان في كاستل دل أوفو، ويتناولان السمكات المقليّة وحلوى الباستييرا، ويشربان النبيذ الأبيض الرخيص. ثمَّة متشرِّدٌ أمام القلعة قادرٌ بوقتٍ قصير على رسم الوجوه بدقَّةٍ لا تُصدَّق، فحصلا منه على رسمةٍ لهما.

تركتُ أن تتناقل أيدي الجميع تلك الرسمةَ قبل أن أشاهدها، أردتُ أن أستخلص ما الذي حلَّ ببييترو من خلال النظر إلى تعابير

أُمِّي، وأبي، وسالڤو، وڤنشنزا وأنجلينو. وما شاهدتُها إلَّا بعد ذلك. كان وجهه في منتهى الدقَّة فعلاً، كما لو أنّها إحدى تلك الصور الفوتوغرافيّة التي رأيتُها ذات يومٍ تطوف في الساحة، بين طاولات مقهى البوربون، وأيدي «القبَّعات». لقد أصبح رافّايلي رجلاً، قميصاً منشَّى وسترة غامقة، لكنّ عينَيْه صارتا مكتئبَتَيْن وهازئَتَيْن مثلما لم تكونا من قبل، وبدا كأنّ لا شيء يقدر على إيذائه. أمَّا بييترو، فما زال على حاله، معتزَّاً بنفسه مثل ملك، بابتسامته المفتوحة كمَنْ يوشك على ابتلاع العالم، وأنفه العريض وعينَيْه الطيِّبَتَيْن. يحمل بيده السدارة العسكريّة؛ في حين أنّ رافّايلي كان يبتسم كممثِّلٍ مسرحيّ، جفناه متهدِّلان وأنفه رفيعٌ ومستقيم. وكانت رياح بحر نابولي تداعب خُصلات شَعْرهما الغزيرة، فتتمايل إلى الجهة نفسها. صديقان رائعان، لكنّي تساءلتُ عن رأي بييترو الحقيقيّ بشقيقي، الذي كان عاملاً شبهَ عَبْدٍ تحت إمرة «قبّعة»، ولم يكن في نِيَّته تغيير العالم، يشقى لتحقيق حُلْمه المضحك في أن يصبح ثريَّاً، أن يصبح مثلهم، ويغفل عن أوضاع المملكة المتردِّية، منطوياً على نفسه كشيءٍ لا ينفع أحداً.

كان بييترو قد كتب، خلف الرسمة: *رافّ يلبس مثل زير النساء، ويتعلَّم التربية. يتحدَّث الإيطاليّة بطلاقة، وقد نسي اللهجة الكازوليّة.*

كان يمزح بطبيعة الحال، لكنّ أُمِّي تفتَّحت على فمها ابتسامة، وأخفضت أنظارها، لتُخفيَ تأثُّرها.

«ماذا كتب؟» كانت تسأل مع أنّها سمعت الجواب جيِّداً. فأكرِّر على مسامعها، لكنّها تستدير لتمسك الخرقة كي لا يراها أحد، ثمَّ تسأل من جديد: «أحقَّاً نسي اللهجة، ابني رافّايلي؟»

«أمَّاه، إنّها دعابة» قالت ڤنشنزا، فردَّت أُمِّي محبطةً: «ربمَّا ... ربمَّا ... إن كان هذا قولكم أنتم، يا مَن تفهمون كلَّ شيء».

«لا تُصدِّقيه» طمأنتُها «بيترو يبالغ. إن استطاع رافّايلي الجاهل أن ينطق أربع كلماتٍ سليمة ومتتالية بالإيطاليّة، فيجدر بنا أن نصيح من هول المعجزة».

كان بيترو يعود في إجازةٍ بين حينٍ وحين، وكأنّها حفلة. كنتُ أُفضِّل ألَّا يعلن عن عودته، لأنيّ أعاني الأَمَرَّيَن عندما أنتظره ولا أعلم متى سأراه قُبَالَتي. فكان يظهر فجأةً، ويطرق على الباب، مثلما فعل في المرَّة الأولى التي عاد فيها وقدَّمَ نفسه لأبي وأُمِّي: هو الوحيد الذي يخبط باب البيت بقوَّةٍ شديدة. وحين يصل، كنتُ أصيح على أُمِّي أو ڤنشنزا لفتح الباب، وأركض إلى الطست لأُنعش وجهي، ثمَّ أُسرِّح شَعْري أمام المرآة، وأحاول أن أُهدِّئ من روع قلبي المتوثِّب.

لم يكن بيترو يصبح أوسم من قبل، إنمّا مختلفٌ دوماً عمَّا تخيَّلتُه في أثناء الأسابيع أو الأشهر التي لا نلتقي فيها. والشيء الوحيد الذي يبقى على حاله هو طاقته المندفعة: «إنّني بخير، يا ماريّا الصغيرة. لعلَّكِ لا تصدِّقين، كوني جنديٌّ، أن أشعر بالسعادة». كان يقول «سعيد» بالضبط، الكلمة التي لا يمكن أن يلفظها إلَّا المجانين أو الأسياد.

«وكيف يُعقَل أنّكَ سعيد؟» ألومه «هذا يعني أنّكَ بأفضل حالٍ من دوني».

وفي الأثناء تأتي أُمِّي بالحلويات التي تصنعها. «دعيه بسلام، هذا الفتى المسكين» تقول «قد يكون متعباً، وأنتِ تعذِّبينه».

لكنّي كنتُ أرى أنّ شيئاً مّا قد حدث له، كان يكتب ويتكلَّم بكلمات جديدة، وكان جديداً هو كذلك. ثمَّ كنَّا نطلب الإذن بعد قليل ونخرج.

وكان الجميع في البلدة يتحلَّقون حوله، بفضل حداثة هذا الشابِّ الذي يمشي ببِزَّته العسكريّة، ويتصرَّف على أنّه ابن المدينة. فيستوقفونه ليسألوه كيف هي العاصمة؛ وكيف هي حياة العسكريّ؛ وقد شاع عنه أنّه سيُعيَّنُ ضابطاً، مع أنّ هذا غير صحيح؛ وكيف هو الطعام في نابولي؛ وكيف هُنَّ النساء، ويعتذرون منّي؛ وكم شخصاً قتل. بل إنّ نساء كازولي أنفسهنَّ، كُنَّ في نزهاتهنَّ ينظرنَ إليه بأعينٍ من نار. وكان بييترو يفطن إلى الأمر ويبتسم لهنَّ جميعاً. كان يجدر بي أن أغار، لكنّي كلَّما شعرتُ أنّه قد لا يكون لي وحدي أحسستُ بقوَّةٍ تدفعني تجاهه، لذا كنتُ ألتزم الصمت.

«وأخيراً صرتُ نافعاً في شيء» يقول ويستلُّ ابتسامته العريضة التي ظهرت في الرسمة. «أشعر أنّني حَيٌّ للمرَّة الأولى. العالم في الخارج كبير، وعلينا أن ننطلق لنحصل على ما هو لنا، يا ماريّا». ثمَّ يشبكني بذراعه، ويمسك باليد الأخرى يدي. «هلاَّ أريتِني ما الذي في هذا الإصبع؟» يهمس في أُذُني «أنتم مخطوبة، يا آنسة. مَن هو سعيد الحظِّ الذي ستكونون له زوجة؟»

ويرفعني عن الأرض مثلما كان يفعل في الأزمنة الخوالي، ويأخذني إلى دربٍ مقفر، أو نصعد إلى قمَّة برج الناقوس. الإطلالة تُشرف على الوادي، وما وراء الغاب تشمخ الجبال.

«كم أنا مشتاق» يتنهَّد.

كان هذا يُطمئنني: لقد تغيَّرَ، لكنّه في العمق ظلَّ على حاله.

ثمَّ يقتادني إلى الغاب، كان يريد أن يرى الأماكن التي أمضى فيها أعواماً يقطع الأشجار ويصنع براكين من بخار. تتبدَّل تعابير وجهه، وأسلوبه

في الكلام أيضاً، بعد الدرب العشبيّ الصاعد نحو غابة الزان. في داخل الغاب تصبح خطاه واثقةً أكثر، وإيقاعيّة إلى أن يسكت تدريجيّاً.

فأُمازحه في الأمر: «هل غدوتَ أبكم بَغتةً؟»

ذات مرَّة صحبني إلى فسحة مفتوحة، لأُجرِّب رمي النار. كان المسدَّس العسكريّ في جَعبته، أطلَقَ رصاصاً نحو السماء، ليُسمعني دَويَّه. أصابني الهلع، لم أكن أتصوَّره بهذه الشدَّة.

«هيَّا، جرِّبي بنفسكِ» قال وهو يمدُّ السلاح باتِّجاهي.

لكنّني ذُعِرتُ من ذلك الحديد، وقد أصبح ساخناً بعد الطلقة، فرفضتُ.

فسدَّدَ بييترو المسدَّس نحوي ممازحاً.

«بُمْ».

جفلتُ إلى الخلف لاإراديّاً. إلَّا أنّ شيئاً فيَّ قد انكسر حينذاك، وأردتُ أن أرمي.

«هل ترين ذلك الزرياب؟» قال لي. كان ثمَّة زريابٌ جميلٌ، أبيض وبنِّيّ، على غصن شجر صنوبر.

«هناك» تابع.

لم أكن أعلم ما الذي أفعله. كنتُ أرتجف، لكنّي أطلقتُ، فسقط الزرياب كما في السِّحْر، عند أقدام الشجرة، نافقاً. انفجر بييترو ضاحكاً، مذهولاً، لم يصدِّق ما رأتْهُ عيناه. لم أشأ الذهاب لرؤية ذلك الطائر الذي نفض جناحَيْه مرَّتَيْن قبل أن يجمد: اجتاح باطني إحساسٌ بامتلاءٍ ضاغط، أشعرني بالرعب.

وكان بييترو في أحيانٍ أخرى يصنع مرقداً من الأوراق وإبر الصنوبر ويُمدِّدني عليه. كان يقبِّلني، وأرغب في أن يتحسَّس داخل قميصي، وتحت الصدار، وأطلب منه ذلك. وكانت أصابعه في كلِّ عودة تزداد تخشُّباً. تعجبني هكذا، ويطيب لي أن يضغط عليَّ حتَّى يؤلمني. كنتُ أعدُّ تلك الطفرات أمارةً على إخلاصه، بفكري الساذج ذي الخمسة عشر عاماً.

ثمَّ يرفع تنُّورتي ويتلمَّس فخذَيَّ. «هاتان ساقا امرأةٍ جبليَّة» يقول «ساقان صلبتان وعضليَّتان»، وبينما كان يتكلَّم يحاول إدخال أخشاب أصابعه، حيث لا يجوز له. فأُوقِفُهُ عند حَدِّه. وأعضُّه بعد حينٍ، ليكفَّ عن ذلك، مثلما كنتُ أفعل في البدايات.

«أنتِ شرِّيرة» يقول كما قال قبل ثلاث سنوات «تريدين أن أعود إلى نابولي حزيناً».

وهذا صحيح. كنتُ أريد أن يعود إلى نابولي حزيناً. إذ كنتُ أخشى أن ينساني إذا أعطيتُهُ ما يرغب فيه.

وهكذا، بعد أيَّامٍ كان يسافر خائباً وغير مسرور. وكم ذرفتُ دمعاً في كلِّ مرَّة، قُبَيْلَ الفجر، عند موقف المركبة العموميّة.

ثمَّ تعود رسائله، وكلُّها رسائل متَّسمة بالسعادة. كان يغادر حزيناً، وفي نابولي تتَّقد ناره مجدَّداً.

17

مكتبة
t.me/soramnqraa

أزهر الخرشوف قبل أوانه، وملأ حدود الأرياف بأزهاره الكبيرة والبنفسجيّة في شهر أبريل من أعوامي الستَّة عشر.

«لم يعد شيءٌ قادرٌ على إيذائنا» تردُّد والدتي في كلِّ عام عند نموِّها. وهذه من إحدى المعتقدات السائدة في منطقة السيلا: تلك الأزهار الثخينة تُبعِدُ الشيطان، ومع حلول الربيع تمسي تهديدات الصقيع والثلج خلف ظهورنا أخيراً.

وصل بييترو ذات صباح من دون أن يُنبِئ عودته عبر الرسائل، وكان مضطرباً. طرق على الباب بطريقته التي لا يضاهيه فيها أحد، كان سيبقى يومَيْن فقط، وعليه أن ينطلق بحملةٍ لا يمكنه الإفصاح عنها بحرفٍ لأحد، صُحْبة أصدقائه جان باتّيستا فالكونه وبيزاكانه. وكان فريسةَ هيجانٍ لم أعهده عنه من قبل، يردِّد أنّ الأشياء في طريقها إلى التغيير بعد عصورٍ وعصور، وأنّنا لن نكون عبيداً أبداً. دعتْهُ أُمِّي للدخول غير مرَّة، لكنّنا بقينا عند الباب، أطرح عليه أسئلة دقيقة بينما يكرِّر أنّه ليس مخوَّلاً للحديث في الأمر، وأنّ المشاركين كلَّهم في المهمَّة يجب أن يكتموا سرَّها للغاية، وألّا يبوحوا بها حتَّى لأقرب المقرَّبين إليهم، «بل من المستحسن ألَّا يتحدَّث المرء في ذلك حتَّى في نفسه» قال.

«كلُّ مزارعٍ سيمتلك الأرضَ التي يعمل فيها مدى الحياة» ردَّدَ كأنّه

يطلق وعداً. «ستُلغى ضريبة الدقيق، وضريبة الملح. كلُّ شيء. سننعم بالاستخدام المدنيّ للأراضي. سنصبح أحراراً، يا ماري». كان يُخيفني، لم أرَ عينَيْه متَّقدتَيْن بغليانٍ شديد كهذا قطُّ، لم أره يتأجَّج من كلماته ذاتها. كنتُ أصغي إليه، لكنّي لم أُصدِّق شيئاً؛ فالأمور عندنا لن تتغيَّر أبداً، على حَدِّ قول والدي. حياتي نفسها تُثبِتُ هذا، متقوقعةً في تلك الغرفة للنسج والحياكة. التغيير يتطلَّب جهداً، في حين أنّ ما يعانيه والدي باحديداب ظهره على القمح، وما أُقاسيه ووالدتي بتدمير أبصارنا وأيدينا، لا يسمح لنا ببذل جهودٍ أخرى.

هززتُ رأسي.

«كلَّا. لن يتغيَّر شيء» قلتُ.

تلقَّى بيترو كلماتي باعتبارها إهانة، غمغم في نفسه، ولوَّحَ بما يعني إرسالي إلى الجحيم. لم يكن ذلك من خصاله، أكاد لا أعرفه.

«أنتِ لا تفهمين» اقتصر على القول. ومن دون أن يُودِّعني حتَّى، تركني هناك عند الباب.

في اليوم التالي، أخبرت إحدى جاراتنا أُمِّي أنّها رأت مساء أمس بيترو رُفْقة تيريزا على الدرب المؤدِّي إلى خارج البلدة. كانت واثقة من أنّها تيريزا، لا أحد غيرها تُسوِّل لها النَّفْس ارتداء ملابسها الصارخة. كانت خارجةً لنزهتها المسائيّة المعتادة، قالت شقيقتي، لكنّها ذهبت في الحقيقة لملاقاة بيترو.

صارت والدتي تراقبني وهي تُعذِّب الأقمشة، وترمقني بنظرةٍ ضاريةٍ تُذكِّرني باليوم الذي كادت تضع فيه إصبعها بالنار للحيلولة دون احتراق يدَيَّ بأحجار المدفأة المتلظِّية. كانت تعلم أنّني سأردُّ، وأنّ ردِّي سيكون

ضدَّ قطعةٍ أخرى منها، ابنتها الأخرى، ومع ذلك كان شعورها بالعدالة أشدَّ وأقوى.

ولكنْ، قبل أن أواجه تيريزا، كان ينبغي أن أتَّجه إلى خطيبي أوَّلاً، فسلكتُ الدرب نحو ماكيا، وكنتُ متأكِّدة من العثور عليه في المقهى. كان بييترو هناك فعلاً، ببزَّته العسكريّة، أزرارها الذهبيّة مفكوكة عند صدره، وسدارته تتدلَّى من سناد الكرسيّ، يلعب الورق جالساً إلى طاولة تحت العريشة.

لم يكن من داعٍ لمناداته، رآني أحد رفاقه أصعد المنحدر: فالتفت بييترو، ابتسم ولوَّحَ بذراعَيْه فرحاً، ثمَّ أشار لي بالانتظار. رمى الأوراق على الطاولة، اجترع كأسه ونهض. اعترض الآخرون، لكنّه أسكتهم بتلويحةٍ من يده.

كان على علْمٍ بكلِّ شيء، قرأ ذلك في وجهي.

أخذني من يدي وتمشَّينا على امتداد الطريق المفضي إلى خارج البلدة.

«الناس تتقوَّل في كازولي» قلتُ.

صَعِدْنا ما وراء الكنيسة الكبرى، في قمَّة ماكيا تقريباً ثمَّة حظيرةٌ لأحد أصدقائه. كان الباب الخشبيّ مواربا، وفي الزاوية بغلٌ بمحاذاة الجدار، مرهقاً من عناء اليوم؛ وكُتَلُ الرَّوْث الجافَّة على الأرض، بجانب حوافره. ومحيطه كلُّه مليءٌ بالبراز المتيبِّس منذ دهر.

«فليقولوا ما أرادوا، ليس لهم حُجَّة. أَلَا يمكنني أن ألتقي نسيبتي، متى طاب لي؟» كانت أنفاسه تفوح بالخمر، يتكلَّم باندفاع، ويتلمَّس جسدي بطريقةٍ جديدة، عجولةٍ ومُستَرَقَة، في أثناء دخولنا الحظيرة.

«ولماذا عليكَ أن تلتقي نسيبتكَ؟»

رفعني من إبطيَّ وقذفني على كومة التبن.

صرختُ، من الوثبة والفجاءة، ولكنْ، ما من أحدٍ هناك باستثناء البغل. كان القشُّ يخز ظهري، ورائحة الحيوان نتنة. فتح بييترو قميصي بحركةٍ واحدة، وَغَلَّ وجهه في صدري.

«كم أنتِ جميلة!» كان يقول ويضغط وجهه عليَّ ويُقبِّلني من كلِّ ناحية.

«قلْ لي ما الذي تفعله مع تيريزا حينما تلتقيان؟».

لكنّ بييترو دسَّ يده تحت التنُّورة، وأخذ يداعب فخذَيَّ العاريَيْن. ثمَّ صَعِدَ بها.

«ما الذي تفعلانه أنتَ وتيريزا؟» ردَّدتُ، وأنا أمسك معصمَيْه وأزيح يدَيْه.

«عليَّ أن أنطلق، يا ماريّا. سأمضي في الغد، ولا أعلم إن كنتُ سأعود أبداً».

وبدأ يطحنني بجسمه، حاولتُ أن أُفلت منه، لكنّه كان أقوى وقد غدا صلداً في تلك الآونة. قبَّلَ فمي، وخَدَّيَّ، وعنقي، وأُذُنيَّ بثورانٍ غير معهود. وكان يضغط بعنفوان أعوامه الحادية والعشرين على فضول أعوامي الستَّة عشر.

كان ثمَّة شيءٌ مرعبٌ في عينَيْه اليائستَيْن، شيءٌ يُذكِّرني بتلك الليلة حين أوقَفَ أبي يده على بُعد سنتمترات عن وجه أُمِّي، منذ سنواتٍ

طويلة. ليتني أدركتُ الأمر برمَّته، من عنف حركاته، ليتني أوقفتُهُ عند حَدِّه، ووَأدْتُ الشهوة.

لكنّه كان يُقبِّلني، يتلمَّسني ويُحدِّثني تحت وطأة غضبٍ جارفٍ ومُشوَّش، عن آنيتا غاريبالدي، زوجة القائد الذي قيل إنّه يصنع إيطاليا، ولا بدَّ أنّ صديقه بيزاكانه حدَّثه عنه بكثيرٍ من التفاصيل. كان يهرس صدري ويقول إنّ آنيتا امرأةٌ شجاعة، إذ لم يمنعها كونها حبلى ومصابة بالملاريا من الانطلاق من نيس صوب روما، مختبئة في عربةٍ لشحن بضائع. «ضمَّت شَعْرها بجديلةٍ واحدة، وقصَّتْها لترسلها إلى والدة غاريبالدي» كان يغمغم «تنكَّرتْ بزيٍّ رجلٍ، وانضمَّت للقتال بجانب زوجها الذي لا يمنح سوى الجوع والظمأ، في زمن الجمهوريّة الرومانيّة. لقد سطَّرا التاريخَ، يا ماريّا. هذان الاثنان معاً أثبتا للعالم بأسره أنّ كلَّ شيءٍ ممكن»، وكلَّما استرسل في الحديث صَعِدَ بيَدَيْه للبحث عن المحرَّم.

«هل كنتِ لتفعليها، أنتِ؟» سألني بنبرةٍ مجنونة «هل تودِّين القتال معي؟» كان يُحدِّق إليَّ بنظرةٍ متَّقدة كنظرة الوحش إذا أوشك على النفوق. «هل كنتِ لتفعليها، يا ماريّا؟»

أعتقد الآن أنّني في داخل تلك الحظيرة تصوَّرتُني للمرَّة الأولى مقيمةً في الجبال للقتال، مرتديةً زِيَّ رَجُل، وشَعْري مقصوصٌ بشفرة، مثل القدِّيسة مارينا عذراء بيثينة أو مثل آنيتا غاريبالدي.

وما زال بييترو يضغط جسده بجسدي، ثمَّ أخرج من جيب بنطلونه الخلفيّ سكِّين المطوى وورقة. وضع السكِّين على التبن، وفتح الورقة بهزِّها باليد الأخرى: ««يقول بعض الأشخاص: لا بدَّ للثورة أن تُولَد من

رَحِم الوطن. وهذا مفروغٌ منه. بيد أنّ الوطن مُكوَّنٌ من أفراد، وإذا ظلُّوا ينتظرون يوم الثورة بخمول، ودون أيِّ تحضيرٍ لها بتدبير المكيدة، فإنّ الثورة لن تندلع أبداً»». توقَّفَ وبَثَقَ نصل السكِّين وصوَّبه تحت عنقي. «*أبداً*، ماريّا. فهمتِ؟ *أبداً!* إلَّا أنّني مُدبِّرٌ وسأُقدم على فعلٍ خالدٍ عمَّا قريب». ترك حينذاك الورقة والسكِّين وفكَّ أزرار بنطلونه. «إنّني عاملٌ مُدبِّر» كان يضحك، بمفرده، كالمجانين، كالسكارى.

«مَنْ كتب هذه الكلمات؟» سألتُ.

«بيزاكانه» قال، وجحظت عيناه بَغتةً «مُدبِّر الإيطاليِّيْن جميعاً». كان مفتوناً بكلمات صديقه، التي ترشد يَدَيْه إلى المكان الذي أُحاول إبعاده عنه بقوَّةٍ تهمد أكثر فأكثر. وكان مفتوناً بجسدي، الذي يصبح تحت يَدَيْه دافئاً، ويقتاد كلماته.

«أنتَ مجنون» أقول له، مثلما كان ينعتُني.

«لولا الجنون لما أحدَثَ الإنسان شيئاً» يجيب بييترو «والإله أكبر مجنون ... لا بدَّ أنّه أكثر جنوناً من الخليقة كلِّها».

فيجذبني إليه، وأشعر أنّي بتٌّ له، وأسمح بأن يصير لي. كان جسدي، الذي لم يره من قبل ورآه إذ ذاك عارياً، يقتاد صوته، فريسةً لحُمَّى الهيجان المروِّعة؛ وكان صوته، وعضوه كذلك، يزهران جسدي.

لم نتحدَّث عن تيريزا بعد.

خرجنا من تلك الحظيرة متحوِّلَيْن.

18

لم نكتشف إلَّا لاحقاً أنّ بييترو كان ذاهباً إلى سابري، في منطقة شيلنتو، دون أن يُخبر أحداً بشيء؛ عازماً على ملاقاة مصرعه، فإذا به من بين القلَّة الناجين.

لقد شارك في السرِّ بحملةٍ مجنونة، قوامها عشرون مقاتلاً، انتقاهم صديقه بيزاكانه، عمليّة انتحاريّةً مُموَّلة من مصرفيٍّ من مدينة ليڤورنو، وهو أحد اللبراليِّيْن الساعين لإطاحة البوربون. في الخامس والعشرين من يونيو عام 1857، انطلقوا من نابولي إلى جنوة بذخيرةٍ شحيحة. وهناك اختطفوا مركباً بريديَّاً، «*كالياري*»، وأجبروا القبطان على تحويل مساره باتِّجاه بونتزا، حيث المعتَقل السياسيّ، وحيث رسوا مُلوِّحين بالعلم ثلاثيّ الألوان، وحرَّروا ثلاثمئة «مرصود» محتجزين منذ أن استعاد النظام زمام الأمور في أعقاب «الفوضى الضارية» عام 1848. ثمَّ توجَّهوا جميعاً نحو سابري، موقنين بأنّهم سيكتفون بإطلاق رصاصةٍ واحدة لاستنهاض حشودٍ غفيرة من الفلّاحين باسم الحُرِّيَّة وقيادتهم للزحف إلى نابولي لإسقاط الملك. أرادوا أن يصنعوا إيطاليا، مثلما كان غاريبالدي سيصنعها حقَّاً بعد عدَّة أعوام. لكنَّ اللحظة لم تكن حاسمة، والعالم لم يكن مهيَّأً، وعلى الرغم من أنّ تعفُّنَ المملكة وفسادَها وانحطاطَها ماثلٌ في كلِّ مكان، فإنّ رائحة الموت لم تَفُح بعد في كلِّ ميدانٍ وكلِّ زاويةٍ، بل وحتَّى كلِّ سرير؛ وهكذا لم يَجْنِ الرفاقُ سوى الغضب والموت. وقعوا في كمين جيش البوربون، الذي كان على رأسه حاكم سالرنو، لويجي

أيوسا، بعد أن أبلغ بعض «القبَّعات» والأشراف المحلِّيِّيْن. فسلَّحَ هؤلاء عمَّالهم ومزارعيهم، وبالابتزاز أرغموهم على المشاركة في الهجوم إلى جانب جنود فرديناندو الثاني.

قُتِلَ خمسة وعشرون على الفور من أصل ثلاثمئة محارب من حَمْلَة بييترو، ذبحاً بالمذار والمناجل والمحاصد والسواطير، وغيلةً برصاص البوربون. وأُسِرَ ما لا يقلُّ عن مئة وخمسين منهم.

أمَّا بييترو وجان باتّيستا فالكونه وپيزاكانه وجوفانّي نيكوتيرا، فاستطاعوا الفِرَار مع قرابة مئة رجل آخرين. ساروا طوال الليل على الهضبة، ثمَّ اجتازوا موريجيراتي وكهوف بوسنتو في اليوم التالي، والتجؤوا إلى ساندزا.

وما لبثوا أن تعرَّضوا للخيانة من جديد عند هبوط المساء.

كانوا يطلبون الماء لدى أحد الأبواب، والطعام لدى أحد المنازل، ثمَّ اختبؤوا في الريف. وإذ برجال الحرس المدنيّ يدهمونهم. وبدأ وابلٌ من الرصاص، لينتهي بكارثة. لقي پيزاكانه مصرعه، مثل جان باتّيستا فالكونه. أُلقي القبض على جوفانّي نيكوتيرا، وحُوكِمَ مباشرةً، في المحكمة الجنائيّة العليا في سالرنو، وأُدينَ بالسجن المؤبَّد في لافوسّا.

وحدَه بييترو نجا بأعجوبة. أُصيبت ساقه بالشظايا المتناثرة جرَّاء ضربة مدفع، وتظاهر بالموت: تضرَّجَ بدمائه ودماء رفاقه، اضطجع على أحد جانبَيْه، وزحف تحت جسد صديقه جان باتّيستا فالكونه. أصغى إلى نزعه الأخير، وحشرجة الموت الذي جاء ليأخذه.

وهرب عند الفجر قبل أن يلمحه الجنود، ويحملوا الجثث.

مشى بشقِّ النَّفَس سبعة أيَّام ومئتَي كيلومتر، يتسوَّل الطعام وينام في العراء، ويجرجر ساقه الجريحة والنازفة، التي داوتها كيفما اتَّفق امرأةٌ

صادفها في الطريق. حتَّى عثر عليه صاحب المقهى في ماكيا، عندما جاء ليفتح مقهاه مع طلوع الضوء. كان يُحتَضر، بِزَّته ممزَّقة، وشَعْره معجونٌ بالتبن، وعيناه مطفأتان.

أمسى بييترو نحيلاً إلى حَدٍّ كبير، يصعب التعرُّف عليه، وما عاد يبدو ذلك الشابُّ الذي مارستُ معه الحبَّ قبل ثلاثة أسابيع. كانت معالم الموت ماثلةً عليه وهو في السرير، كنتُ أنظر إليه وأحاول أن أفهم – من ملامحه المستسلمة، ومنبت شَعْره الغزير، وثَنِيَّة فمه، ووريده الذي ينبض ببطء في عنقه – كيف استطاع أن يُقدِمَ على فعلةٍ من هذا النوع. وكيف استطاع أن يخفي كلَّ شيء عنِّي. لكنّني أنا التي استخففتُ به، أعلم ذلك. لأنّ بييترو في تلك اللحظة، وهو يشارف على الموت، لم يبدُ لي أكبر ممَّا كان بوسعي أن أتخيَّل. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن كيف جرفتْهُ صداقاته في نابولي بعيداً، ولا كم تغيَّرت حياته خلال الأشهر التي أمضاها في الجيش، لكنّني كنتُ أرى ذلك عبْرَ الآثار التي يحملها في وجهه.

لم يعد الشابُّ المكتنز والمتدثِّر بغطاءٍ صوفيٍّ يشبه المَفْحَمَة التي عمل فيها. لقد تفجَّرَ آنذاك، أصبح هو نفسه بركاناً.

كنتُ أنظر إليه وأتساءل مَنْ يكون حقّاً.

«لقد بقيتُ على قيد الحياة وحدي ... يا لها من كارثة» كان يغمغم من حين لآخر عندما يصحو. وكانت أُمُّه فرانشسكا وأخته إيلينا، اللتان عاشتا بمفردهما في البيت في ماكيا منذ أن غادر إلى نابولي، تُبلِّلان جبينه وشفتَيْه، وكان بييترو بين أيديهما، على الرغم من كلِّ ما حدث يبدو طفلاً صغيراً، وعيناه منتفختان ومرهقتان. لم يكن بإمكاني النظر إليه إلَّا من بعيد، جالسةً على كرسيٍّ منزوٍ؛ لم نكن متزوِّجَيْن، فمن غير المسموح أن أقترب منه.

«لقد رحل الآخرون ... بيزاكانه ... جان باتّيستا ...» يهذي تحت وطأة الحُمَّى «جميعهم ماتوا ... جوفانيّ اعتُقِلَ، ونقلوه إلى لافوسّا ... هناك حيث يموت الجميع، سيموت هو كذلك، هناك يُعذِّبون السجناء ... يا لها من كارثة!» يردِّد.

كانت والدته تُلقِّمه الحساء علَّهُ يتناول شيئاً، ويعاوده طبيب ماكيا، الذي استخرج الشظايا من جسده، وعقَّمَ ساقه قَدْرَ ما استطاع. لم يكن نقله إلى المستشفى موضع نقاش: بييترو كان ثوريَّاً بالفعل من وجهة نظر المملكة. لو وقع تحت قبضتهم لأمطروه بالرصاص.

كان يستعيد قواه أحياناً، فيتكلَّم بوضوح: «التاريخ يُسطَّر هناك. لقد رأيتُهُ ... رأيتُ بهاتَيْن العينَيْن أنّه من الممكن تغيير الأوضاع، يا ماري». لكنّني لم أكن أرى التاريخ، إنّما منظرٌ مُدمَّرٌ وجامد. وكنتُ أرى خياناته، التي لم أنجح في نزعها من ذهني. لم نكن متزوِّجَيْن بالتأكيد، لكنّي لم أستطع التغاضي عن الشائعات التي تسري في البلدة حوله، وحول لقائه بتيريزا سرَّاً. «لقد رأوهما مراراً ومراراً» تتهامس العجائز «ومَن يدري ما الذي كانا يفعلانه ...؟».

كان يقال إنّ غاريبالدي يوشك على الوصول، وأنّ أفعاله باتت أسطوريّة، لكنّ الحقيقة هي أنّ تلك الأسطورة حُقِّقَتْ بفضل فتوحاته الغراميّة. تحدَّثَ الجميع عنه وعن آنيتا، وكان اللبيب يُرفِق اسم زوجته بعلامة القرون، مُلمِّحاً إلى النسوة التي أغواهنَّ القائد في كلِّ قارَّة، ومدينة، وبلد قاتَلَ فيه. ومن جهة أخرى، يقول الرجال إنّ الثورة لا يمكن أن يقوم بها إلَّا ذَكَرٌ حقيقيّ، والذَّكَرُ لا يكون حقيقيّاً إلَّا إذا جمع حوله كثيراً من النساء.

لم يُصارِحْني أحدٌ بالأمر، لكنّي كنتُ أراه جليَّاً في نظرات العجائز

بطرف العين عند أبواب الدُّور: يعلم الجميع أنّ بييترو ملاحَقٌ تجاسَرَ على النظام، ويكفي أن يشيَ به شخصٌ واحدٌ ليلقى حتفه. لم يره أحدٌ بعينَيْه، باستثناء صاحب المقهى، والطبيب، غير أنّ الأقاويل تنتشر في ماكيا أسرع من المياه الجارية، وفي غضون ساعاتٍ يعرف الجميع كلَّ شيء. لكنّ البلدة كانت تحميه. وفي المقابل تبني عليه أسطورةً على غِرَار أسطورة غاريبالدي: كانت ماكيا تريد بطلاً محلِّيّاً لها يحاكي بطل العالمين. وهكذا كسب بييترو صمتهم حيال فِرَاره، فيما كسبتُ علامة القرون التي ترفعها النسوة عند مروري.

غير أنّ الأدهى هو معاملة أمِّه فرانشسكا وأخته إيلينا لي كما لو كنت السبب وراء سلوك بييترو، وقد منعتاني بين عشيَّةٍ وضحاها من دخول البيت، حينما اشتدَّت تلك الشائعات.

«أنتِ منبوذةٌ في نظرنا» قالت إيلينا «لم يعد لكِ الحقُّ في المجيء إلى هذا البيت».

لا ينهال أهل البلدة بالتشهير إلّا على امرأة، والأخطر أنّ آثار التشهير لا تزول بعد، إنّما تتفاقم وتتدحرج على العائلة بأسرها. فقبل أيَّام قليلة أُلقي القبض على شابٍّ لبراليٍّ، ابن أثرياء أصحاب منشآتٍ زراعيّة كبيرة، لأنّه طبع منشورات مناهضة للبوربون تُمجِّد التجارة الحرَّة. التهمة في منتهى الخطورة، سيُعدَم الشابُّ فوراً. وبعد يومَيْن، ذهبت مزارعةٌ إلى الحرس الوطنيّ، يجرُّها أبوها عَنْوَةً، وهي في حالةٍ مزرية، وتذرف دمعاً، وادَّعت على الشابِّ بأنّه اغتصبها وسط أشجار الزيتون. كان الشابُّ ثريَّاً، ولو أنّه لم يتورَّط بالتآمر على النظام لفلت من الدعوى بسهولة، إلّا أنّ الأجواء كانت متوتِّرة آنذاك: حُكِمَ عليه بالإعدام رمياً بالرصاص في الساحة خلال شهرَيْن. اكتشفت الفتاة بعد أسابيع أنّها حامل، فَجَرَّها

أبوها من جديد، في يوم تنفيذ الإعدام، ووضعها بين يدَي المحكوم. عرضت عليه نفسها للزواج أمام البلدة كلّها تجنُّباً للفضيحة والعار، مطأطئة الرأس، تجهش بالبكاء. فوافق الشابُّ وهو على شفير الموت. «فليغفر لي الرَّبُّ على الأقلِّ». استُدعِيَ الخوريُّ بسرعة، لكي يعقد قرانهما، ويُجنِّبَ الفتاة وصمة العار، قبل أن يُعدَمَ الشابُّ.

ذات صباح تقدَّمتُ إلى بيت بييترو، وكان ما يزال في النقاهة. طرقتُ الباب، لكنّه بقي مغلقاً في وجهي. فخبطتُ عليه، ورحتُ أزعق، لا نتيجة.

«عليكِ أن تنصرفي» صرخت أُمُّ بييترو من إحدى النوافذ بقوَّة، لتضمن أن يسمعها كلُّ جيرانها «ليس مُرحَّباً بكِ هنا».

عدتُ كلَّ يومٍ طيلة أسبوع إلى أن أقنع بييترو بنفسه السيِّدة فرانشكسا، بكَيْل اللعنات والخبط على الحائط. ففتحت لي الباب حينذاك بتحفُّظ. كان بييترو واقفاً على قدمَيْه، مستنداً إلى رأس السرير، وعلى الغطاء كتابُ صديقه پيزاكانه حول ثورة الفلاّحين.

«فكِّرْ بما عليكَ فعله» قلتُ، دون أن أدخل «إمَّا أن تتزوَّجني، وإمَّا أن نتفارق. بوسعنا أن نتودَّع الآن أيضاً». رميتُ نظرةً شرسةً إلى السيِّدة فرانشسكا وإيلينا وصفقتُ الباب.

وفي اليوم التالي حاول بييترو أن يحرِّك خطواته الأولى، فساقه الجريحة باتت تحمله. توجَّهَ إلى صديقه القديم سالڤاتوري، وأخبره أنّه سيعود قريباً إلى العمل في المَفْحَمَة، عليه أن يبني أسرة.

19

وفي الأثناء كان شيءٌ مّا في جسدي يتفاعل. بتُّ واهنة، تنقطع أنفاسي حتَّى إذا صَعِدْتُ ثلاث درجات، وأتقيَّأ. ها هو المحظور لقد وقع، قلتُ في سرِّي.

عرفت أُمِّي بالأمر عن طريق تيريزا، إذ رأتْني ألتقط أنفاسي مستندةً إلى جدار الكنيسة، وأمست رهينةً لليأس من أجل ابنتها غير المتزوِّجة التي أضحت حُبْلَى، وستُنزِل الخراب بعائلتها.

إلَّا أنّي في تلك الأيَّام ذاتها انشغل بالي بهاجسٍ من نوعٍ مختلف، يقضُّ مضجعي إذا انضمَّ إلى هاجس الحمل. اتَّجه الحرس الوطنيّ لاعتقال الكونتيسة غولّو وزوجها، من دون سابق إنذار، مثلما حدث للمعلِّمة دوناتي من قبل. أُجريَت لهما محاكمةٌ سخيفة ومرتجلة في ثُكْنَة الحرس الوطنيّ، واستُدعِيَ كلٌّ من تيريزا وسالڤاتوري ليشهدا بأنّ الكونتيسة غولّو قد دبَّرت لنشاطٍ لبراليٍّ متمرِّدٍ طيلة أعوام، هدفه التآمر ضدَّ المملكة.

«الكونتيسة تتردَّد إلى بيت أوليڤيريو منذ أمدٍ بعيد» قالت تيريزا أمام القاضي «وتتردَّد إلى بيوت النسَّاجات كلِّهنَّ في المقاطعة. سمعتُها بأُذُنيَّ هاتَيْن وهي تدلي بتصريحات ضدَّ آل البوربون، وتنادي بوحدة إيطاليا. والدستور. والميثاق الألبرتيّ السردينيّ. وما يُسمُّونها حُرِّيَّة».

لم تتورَّع تيريزا البتَّة لإدانة خصومها السياسيِّيْن بالسجن أو الشنق،

وآنذاك وقد أصبحت فرداً من آل مانكوزو لفتت الانتباه لنفسها وعائلتها على أتمِّ وجه. قيل في البلدة إنّ الكونتيسة غولّو نظرت إليها وهي مكبَّلة اليَدَيْن من خلف قضبان قفص المحكمة، وثمَّة مَنْ يحلف أنّه سمعها تسألها عن الفستان الذي ارتدتْهُ يوم زفافها، كان مُفصَّلاً من حرير غولّو. أمَّا تيريزا، الجالسة على منصَّة الشهود، التفتت نحوها ببطء، ونظرت إليها على أنّها شيءٌ لم يعد ذا نفع.

بعد اعتقال السيِّد غولّو وزوجته، اتَّجه كثيرٌ من اللبراليِّيْن إلى المنفى. كانوا يغادرون في قلب الليل، دون أن يبوحوا بأمرهم لأحد، حتَّى لأصدقائهم الموثوقين. وبينما كانت المملكة تفرغ، كان الجميع في داخلها عدوّاً للجميع، وكلُّ فردٍ يخشى أن يخونه جاره، أو قريبه، أو أخوه في بعض المرَّات أيضاً، إذا تفوَّه بكلمةٍ تتعدَّى اللازم. فإن توجَّبَ علينا أن نصبح أبناء وطنٍ واحد، لصار جميعنا قابيل. وهكذا حدث أنّني وأُمِّي وجدنا أنفسنا، بين عشيّةٍ وضحاها، بلا عمل.

لم يعد لدينا ما يُؤكَل على مدار أسابيع، وقد غدا راتب والدي شحيحاً بعد رهن البيت، وانكسرت ساق سالڤو وأربعةٌ من أضلاعه، إذ سقط من على سُلَّمٍ، فما عاد بوسعه العمل. صمدنا بإنفاق مدَّخراتنا كلِّها، واستنفاد المعلَّبات وسجق الدم، والكستناء المخمَّر، ومؤونة الحبوب، وبقايا الطحين. ثمَّ حانت اللحظة التي كان أحد «القبَّعات» في البلدة يبحث عن مزارع، وباشرتُ العمل من دون حسبانٍ في حقول الدون آخيل ماتسيي، «جار» خالتي زلزال، فيما كانت آلام الحوض ونوبات الغثيان تُفقدني قواي.

كان الدون آخيل منذ زمنٍ يبيع الحرير لآل غولّو، وعندما هبَّت رياحٌ تجاريّةٌ جديدة تشجَّعَ، وبدأ يُصدِّرها من تلقاء نفسه. وهكذا، بعد أن

تفحَّصني من رأسي إلى قدمَيَّ ولم يسجِّل ملاحظات، وافق على تعييني لديه اعتباراً من اليوم التالي. ووجدتُ نفسي في فجر يوم أحد، من دون أيِّ خبرةٍ بالمجال، أحمل التوت المقطوف لتغذية دود القَزِّ. كان كلُّ مزارعٍ مسؤولاً عن نسقه، يحرِّك سُلَّماً خشبيّاً ثقيلاً من شجرةٍ إلى أخرى، يُقلِّم الأغصان، ويستعين بإزميلٍ صغير، لينزع من الجذوعِ قشرةَ اللِّحَاء الأولى التي ستُستَخدم لاحقاً لصنع الحبال الغليظة. وعندما تغدو الأوراق بدرجة الاخضرار المثلى تُقطَفُ واحدةً تلو أخرى، وتُعبَّأ في صرَّة. ثمَّ تُنقَل الصرر إلى منشأةٍ خشبيّة كبيرة، حيث يتولّاها رعاة الدود، وتُصفَّف الأوراق في الردهات، بحيث تجد كلُّ دودة قَزٍّ ما تقتات عليه. يُستَخلص من أوراق التوت الأبيض، الأنعم والأرقّ، حريرٌ شفيف؛ ومن التوت الأسود ذي الأوراق الخشنة والسميكة حريرٌ ثقيلٌ تُصنَع منه الأقمشة المخرَّمة والأشرعة. كنتُ أتأمَّل القَزَّ الصغير وهو يزحف ويقضم الأوراق، وأفكِّر في الأيَّام والأعوام التي ضيَّعتُها وأنا أنسج لعابه في البيت.

كان عملاً شاقّاً، في كلِّ يومٍ يرسله الله إلى الأرض، من الفجر حتَّى المغيب. وكانت أُمِّي تهزُّ رأسها أسفاً عليَّ في المساء، وكذا تفعل في الصباح عندما أغادر، وتخشى أن يقتلَني الحمل، وقد اعترضت على العمل بقواها كلِّها في البداية. وتبرَّعت بنفسها في المقابل، مرفوعة الهامة ومُكحَّلة العينَيْن ومحمرَّة الوجنَتَيْن، إذ أكثرت من مسحوق التجميل، لكنّ الدون آخيل أقرَّ بأنّها أكبر سنّاً من المطلوب. «لا تصلحين» قال بصوته الغليظ والبغيض «ابنتكِ أفضل». وكنتُ أطمئنها أنّني في حال كنتُ حُبلى بالفعل، فإنّ بييترو سيتزوَّجني، وسيُحوِّل بعض الدوقيّات من الجيش أيضاً. فسلَّمت أُمِّي أمرها في النهاية، وصلَّت لمريم العذراء، وأشعلت شمعةً في كلِّ ليلة تقرُّباً للقدِّيسة مارينا راهبة بيثينة.

«عليكِ أن تُضحِّي قليلاً، يا ابنتي» قال أبي مخفِضاً عينَيْه. خشيتُ

أن يدوم هذا العمل إلى الأبد، لم أتصوَّر وجود عملٍ أسوأ من النسج، إلَّا أنّه كان: العمل بالحرير أخفّ عناء بألف مرَّة من إنتاجه. وهكذا كنتُ أسير في كلِّ صباحٍ على الطريق التي سرتُ عليها حين كنتُ في بيت الخالة زلزال للذهاب إلى المدرسة، ولكنْ، بالاتِّجاه المعاكس. ساعةٌ على الدرب العشبيّ المؤدِّي من البلدة إلى سيلا، ثمَّ عشرون دقيقة أخرى على دربٍ حصويٍّ يطفح بالطين كلَّما أمطرت.

وكان سالڤاتوري وتيريزا يأتيان بين الفينة والفينة إلى عزبة الدون آخيل، على ظهر جوادَيْن مُتألِّقيْن. كنتُ أسمعهما يُخفِّفان العَدْوَ في البعيد، وكان طيفهما منحوتاً تحت الشمس الهابطة، في جَوٍّ يميل إلى البرودة أخيراً، ولم يبدوا لي أشدَّ عنفواناً وسعادة ممَّا كانا عليه حينذاك.

كانا يتوقَّفان عند الباب للتحدُّث مع الدون آخيل، ثمَّ تستأذنه تيريزا للتجوُّل بين صفوف الأشجار، يرافقها زوجها الذي يلحق بها وهو يعرج. وكانا ينظران في محيطهما، بينما أحاول الاختباء بين الأغصان. وعندما تراني تيريزا، مُتسلِّقةً على شجرة توت أسود، تشير إليَّ بإصبعها، ثمَّ تنصرف. وكان الدون آخيل في كلِّ مرَّة، بعد تلك الزيارات، يضاعف عملي. لم يُشفَ غليلُ تيريزا بالزواج والرفاه الذي نجم عنه. بل على العكس، أسكرتْها إمكانيّةُ الشرب من كأس السلطة ثانيةً. وكلَّما رأيتُها تذكَّرتُ أنّها تصون العهد الذي قطعتْهُ بتدمير حياتي ليس إلَّا، ولقد أفلحتْ في ذلك، أقول لنفسي.

كنتُ أعود إلى البيت على الدرب وأنا أبكي. يُراوِدُني الغثيان، فأتعشّى بقليلٍ من الخبز المغمَّس بالزيت والملح، وأستلقي على السرير، وأستسلِم للنعاس بينما يُكمل أبي وأُمِّي وڤنشنزا وأنجلينو وسالڤو عشاءهم. ثمَّ كانت ڤنشنزا تقترب منِّي وتُوشوشني ببعض الكلمات، فأستدير إلى الجانب الآخر، وأغفو في حين تغسل أُمِّي الأطباق.

ذات يوم، وكنتُ أعلى السُّلَّم الخشبيّ الثقيل، شعرتُ بألمٍ في ظهري، ثمَّ في بطني، وأحسستُ بأنّني تبوَّلتُ في ثيابي. فوقعتُ عن السُّلَّم ممرَّغةً بدمي، وفقدتُ الوعي. إن كان هناك من طفلٍ في أحشائي طيلة تلك الأسابيع والأشهر، لم يعد له وجودٌ حينذاك. جرحتْني إحدى رفيقات العمل من فخذي بسكّينٍ صغيرة، تحاشياً للفضيحة، فاختلط الدم بالدم.

نقلوني على بغلٍ، وأرجعوني إلى البلدة. وكان الدكتور باتشيلي، طبيب كازولي، ذو الشاربَيْن الكثَّيْن، هو الذي أنقذني، واستطاع أن يُوقِف النزيف في أوانه. «عليها أن تستريح» قال لأمّي «أُوصيكم بذلك» والتفت نحوي «لا عمل بالتوت بعد اليوم. أكثري من الحليب، واللحم من حينٍ لآخر».

لكنّي كنتُ لا أتقبَّل الطعام والعناية، إنمّا أبكي ليلاً نهاراً، ولا أنهض عن السرير. كنتُ أرى حياتي المدمَّرة: قد نخسر شيئاً لم يكن في حوزتنا إطلاقاً. لقد عدتُ إلى كينونةٍ لم أعد أعرفها. قد نشعر أنّنا في أرذل العُمُر حتَّى لو لم نتخطَّ الستَّةَ عشر عاماً بعد.

لم أُخبر بييترو بشيءٍ من هذا كلِّه. فبعد ثلاثة أسابيع استجمعتُ قواي وعدتُ لدى الدون آخيل ماتسيي. كان مُحترّاً، محتقن العينَيْن بالدم من شدَّة الإجهاد، نظر إليَّ، هزَّ رأسه ولوَّح بيده مثلما يفعل لطرد الذباب. ألححتُ، فأمسك معصمي وشدَّني بقوَّة إلى غرفة خاوية.

«إن لم تختفِ فوراً، استمتعتُ بمحاسنكِ أنا أيضاً» قال. كان فمه شبه مفتوح، وشفتاه مُبلَّلتان باللُّعاب. «لقد رأيتُ الدماء. ماذا تحسَبين؟!» حاول أن يمسكني، لكنّي ملصتُ منه. «سأفضحكِ أمام أهل البلدة كلِّهم، أيَّتها الفاجرة!» صاح.

هربتُ من العزبة وأنا على درايةٍ بأنّي لن أطأ فيها قَدَماً بعد.

وهكذا أمسيتُ بلا عمل، فما بقي لوالدي خيارٌ عندئذ، وأُجْبِرَ على فعل ما رفض فعله طوال حياته: أن يهجر أسرته ويذهب للعمل كمزارعٍ مقيمٍ في عزبة آل موريلّي.

كان سيسكن هناك، سيبات في الزريبة، وسيُرغَم على تدبُّر الماشية، والحليب، والجبن، ومعصرة الزيتون، والقمح، والطحين، وكلّ شيء، ناهيكَ بفلاحة الأرض. ولن تُؤذَنَ له العودة إلى بيته إلَّا مرَّةً في الشهر.

غادر من دون جلبة، بعد أن وضع بعض الثياب في صرَّة قماشيّة، وقبَّلَ كلَّاً منَّا على جبينه. وكان أنحف من أيِّ وقتٍ مضى، فلقد انتزع الجوع كرشه الصغير. نظرتْ إليه أُمِّي وهو يرحل مثلما نظرتْ إلى رحيل رافّايلي، ورحيل تيريزا. لم تكن تشاحن. ركض أنجلينو الذي شبَّ عوده خلف أبيه، فلحقتْ به أُمِّي، وأمسكتْهُ من ذراعه.

«سيعود قريباً، يا أنجي» كذبت.

كان والدي يعود في الليل، مثلما عاد العمُّ زلزال ليلاً إلى كوخ الخالة، مثلما عاد بييترو ليلاً من الجبهة، ومثلما كانت الأشياء كلُّها تحدث في المملكة ليلاً وفي الخفاء. يهرب والدي من العزبة لمجرَّد أن ينام بيننا بعض الوقت.

كان يدقُّ الباب برفق، وينظر إلى بيته متحرِّياً، لعلَّه يكتشف تغييرات.

لا تغييرات.

فينام بأمانٍ مضاعف.

وفي الثالثة والنصف يستيقظ ويعود لدى سيِّده.

20

إنّ الحبَّ في نظرنا هو شيءٌ لا نُعبِّر عنه إلَّا إذا كنَّا في خطر، لأنَّه غير موجود في الأحوال الطبيعيّة.

فلقد ظهر الحبُّ، سريعاً، في أسفل رسائل بييترو، عندما تجنَّدَ في الجيش، كأنّه لحظة وداع: مع حبِّي، بييترو. وتعاملتُ معه دائماً على ما كان عليه: رسالة خطر.

لم يشرح لي أحدٌ عن الحبِّ، ولم أعرف قواعده يوماً. «بالعصا والسكاكر يَشِبُّ أجملُ الأولاد» كانت والدتي تقولي لتبرير العنف، وهذا كلُّ ما في الأمر. كانت بعض العجائز لا غير يذكرون الحُبَّ، عندما نمرُّ أمام أبواب بيوتهنَّ المفتوحة: الحبُّ والموت، عندنا في منطقة سيلا، رفيقان لا يتفارقان.

في يوم زفافنا، وعلى الرغم من أنّ التقاليد لا تسمح بهذا، قدم بييترو إلى بيتنا وترك لدى ڤنشنزا علبة بيضاء صغيرة لأجلي، كتلك التي تُحفَظ فيها المجوهرات.

«خذي، أعطيها لأختكِ» قال «ولكنْ، قولي لها ألَّا تفتحها إلَّا عند انتهاء الحفلة»، ثمَّ انصرف.

أرادت والدتي أن تعرف على الفور ما الذي تحويه تلك العلبة بينما كانت تُسرِّح شَعْري وتنظر إليَّ وأنا واقفة بالفستان الأبيض. «ما أحلاكِ،

يا ابنتي» تقول «ليس لدينا في العائلة أجمل منكِ». ثمَّ التفتت نحو ڤنشنزينا. «افتحيها، يا ڤنشنزي، افتحيها ...» ألحَّت، مع أنيّ لم أشأ. لكنّ أُمِّي كانت تعرفني أكثر ممَّا أعرف نفسي، وتعلم أنّني كنتُ سأفتحها قبل المساء بالأحوال كلِّها.

«ماذا تخالين أنّه فيها؟» أقول لها، متظاهرةً بعدم اهتمامي «بالتأكيد لا تحتوي على خواتم بالأحجار اللامعة».

كان زفافنا أكبر حفلة شهدتها كازولي على الإطلاق.

أُقيم في عزبةٍ مهجورة من أملاك الدون دوناتو موريلّي، وقد أجَّرها لنا بسعر معقول، وحضر إليها المزارعون والعمَّال كلُّهم في كازولي وماكيا، وكان أحدهم يدنو من والدي بين الفينة والأخرى، ويسأله عن صحَّته وعمله كمزارعٍ مقيم.

لم يكن أبي بخير منذ مدَّة والحقُّ يقال، فالعمل في العزبة، ليلاً نهاراً، وبلا دقيقة استراحة، كان يقتله، ولا يزيده التفكير بالديون إلَّا ألماً. وجدت ڤنشنزا بين ثيابه التي يأتي بها إلى البيت للغسيل، منديلاً ملطَّخاً بالدماء وأرتْني إيَّاه. غسلتْهُ أُمِّي بعُجَالَة، ولم يتحدَّث أحدٌ بشأنه. غير أنّ أبي يومئذٍ كان يتمتَّع بصحَّة ممتازة، كأنّه في سابع سماء بعد أن رافقني إلى المذبح، فنظرت إليه أُمِّي، ولم تتمالك مشاعرها المتأثِّرة.

لم يرَ أحدٌ جوزيبّينا وبياجّو بكامل أناقتهما من قبل، فلقد فصَّلا لباسَيْهما عند خيَّاطةٍ من سيرّا بيداتشي، وجلبهما بييترو، واستسمحهما بتحمُّل النفقات. فوافق والدي طالما أنّها مدفوعةً من جيب صهره لا من جيب سيِّده. أمَّا والدتي، فاستغرقت أشهراً بتحضير الأشياء كلِّها، مستعينةً بنسوة البلدة، وربَّما لم يأكل أحدٌ في البلدة مثلما

أكل في ذلك اليوم: مكرونة الخبز البائت والأنشوفة وباستا الحمُّص، ولحم الماعز بعظمه، والنقانق والباذنجان المحشوّ، كلُّهُ مرشوشٌ بنبيذ بولينو الأحمر. وكانت السيِّدة فرانشسكا وإيلينا مبتسمَتَيْن ومشرقَتَيْن، مسرورَتَيْن أخيراً بأنّ الولد قد سوَّى وضعه، ولن يجرؤ أحدٌ في البلدة على فتح فمه بكلمة.

رقصنا وغنَّينا حتَّى ساعة متأخِّرة من الليل، دبكة التارانتيلا والڤيدانيدا. وبعد لتراتٍ ولتراتٍ من الخمر توجَّهَ المَدعوُّون إلى بييترو وربَّتوا على كتفه.

«مَنْ تزوَّجَ عروساً جميلةً غنَّى طوال عُمُره» قالوا له «زوجات الآخرين أجمل بكثير»، «لا حِدَاد بلا ضحك، ولا خطيبة بلا بكاء» وينشدون نشيداً تشفُّعيّاً.

ثمَّ انصرف الجميع واحداً تلو الآخر، في الساعات الأولى من الصباح. ظلَّ أبي وأُمِّي إلى النهاية، مع ڤنشنزينا وسالڤو وأنجلو. وما زالت ڤنشنزا تحدِّق إليَّ بمقلَتَيْن دامعَتَيْن، بينما شعر أبوَاي بالإحراج، عند خُلُوِّ المكان من الضيوف، متردِّدين في الإيذان لي بالذهاب. لم أعد أنتمي إليهم، بتُّ واحدةً من عائلة موناكو؛ فصارا ينظران إليَّ، وأنا بلباسي الأبيض، ويحاولان التأقلم مع فكرة أنّ ابنةً ستنقص من حياتهم اعتباراً من ذلك المساء. ثمَّ نهضت ڤنشنزا، عزيزتي الغالية ڤنشنزينا الشجاعة، وعانقتني بشدَّة.

«يليق بكِ هذا اللون، أتعلمين؟» قلتُ لها. كانت ترتدي فستاناً قديماً من الموسول الأحمر ارتديتُهُ قبل أعوام، وقد تشرَّخَ من قُدَّامِهِ، لكنّ والدتي رقَّعتْهُ بشكلٍ تامٍّ «يليق بكِ أكثر ممَّا لاق بي». ابتسمتْ

وبحثتْ بلسانها عن اللُّعَاب السائل على شفتها، مثلما كانت تفعل في صغرها.

وعندما أصبحنا بمفردنا، جثم بييترو على ركبتَيْه، وأمسكني من يد الخاتم.

«هل تسمحين لي برقصة؟» قال. كان يتظارف.

ما زال هناك طبَّال الطنبور وعازف مزمار القرية، جالسان على دكَّةٍ يدخِّنان سيجاراً. وهكذا رقصنا التارانتيلا الأخيرة، بإيقاعٍ بطيء، بمفردنا.

ثمَّ وشوشني: «هل جلبتِها؟»

كان يعلم أنّني لم أكن لأُقاوم، وأنّي فتحتُ العلبة. كان فيها مفتاح.

«أجل».

سلكنا الدرب الذي يتسلَّق إلى قمَّة الهضبة التي أنارها القمر، ووصلنا إلى ماكيا على الأقدام، في الليل.

كانت الجداجد تصرصر، وأحد الضفادع يثبت وجوده بجانب المستنقع.

وكان بييترو قد أعدَّ الإسطبل الصغير خلف بيت أُمِّه، وحوَّله إلى بيتٍ لنا.

«ها هو» قال حينما وصلنا أمام الباب «والآن افتحي».

كان حقيقةً إذن: لقد غيَّرتُ عائلة.

21

هذا وقد أخذت الأوضاع في المَفْحَمَة تتدهور، بالتزامن مع ما أشيع في ربوع سيلا عن وصول غاريبالدي قريباً.

تشجَّعَ بعض العمَّال والمزارعين حينذاك، وبادروا إلى الإضراب. من بين هؤلاء زملاء بييترو: أوصاهم بالانتظار ريثما يقترب غاريبالدي بالفعل، لكنّهم لم يُصغوا إلى تحذيراته. نجحت مساعيهم مدَّة ثلاثة أشهر، بوغِتَ سالڤاتوري مانكوزو على حين غفلة أو لعلَّه خشي هو الآخر من أنّ الأشياء ستتغيَّر حقّاً. إلّا أنّ الحدث الوحيد الذي وقع فعلاً هو أنّ مفاحمه المنتشرة في سيلا الصغرى وسيلا الكبرى، خمدت جميعاً في آنٍ واحد في أثناء ليلةٍ عاصفة، بسبب إضراب مَنْ يتولَّى أمرها.

اعتُبِرَ ذلك دلالةَ شؤمٍ مرعبة، ناهيكَ بما تتوعَّده من بؤسٍ وشقاء: لا يذكر أحدٌ أنّه سمع عن مَفْحَمَة انطفأت من قبل. شبَّت النيران في المداخن النحاسيّة والمواقد الحطبيّة بعد أن أضرم أحد المضربين اللهب زيادةً عن المطلوب؛ أراد تجفيف الحطب أو إذكاء الجمر، وربّما تقصَّدَ إشعالها نكايةً. فاحترقت خمس عشرة مَفْحَمَة من أصل عشرين. وكانت أعمدة الدخان تظهر للعيان من بلدات السيلا كلِّها وهي تتصاعد لتُغطّي السماء، بدت أنّها نهاية العالم، كارثة كبرى غير مسبوقة.

تقدَّمَ سالڤاتوري إلى الغاب ذات صباح، متبوعاً ببعض مرافقيه

ومَزهوَّاً مثلما كان في يوم عرسه وأكثر. «حجم الخسائر هـ-هائل. وانعدام الثقة بالمستقبل كـ-كبير. ومَن يدري ما إذا كنَّا في إيطاليا الموحَّدة تحت حُكْم البيمونتيِّيْن سنستخدم الفـ-فحم لتشغيل القاطرات أم سيفرضون علينا إحدى الخزعبلات الفر-فرنسيّة؟» قال للعمَّال. وأسهب في الحديث، أسهب مُطوَّلاً، فيما كانت الخلاصة أنّ مَنْ يودُّ البقاء عنده، فعليه أن يرتضي بنصف الراتب الذي تقاضاه حتَّى تلك اللحظة.

وهكذا كان بييترو، مثل الجميع، بعد مظاهرة المضربين تلك، يعود إلى البيت بمالٍ أقلّ وغضب أكثر. وكنتُ أحاول أن أجعله يبتسم، ولكنْ، عبثاً. وما كان لشيءٍ أن يُحسِّن مزاجه سوى قراءاته. كان اثنان من رفاقه الضبَّاط السابقين في نابولي اللذَيْن حافظا على مودَّتهما تجاهه، يرسلان إليه ظروفاً، فيها كُتُبٌ مضمومةٌ بخيط القُنَّب، مرَّةً كلَّ شهرَيْن، بموعدٍ محدَّد.

وكانت الكُتُب مصفرَّةً ومهترئة، تصل ضمن أوراقٍ مبعثرة من مجلَّة قديمة منتوشة الزوايا، تُدعى «بوليتكنيكو». فيقضي بييترو لياليه في القراءة على ضوء الشموع التي تُستَهلك مثل النبيذ، وكلَّما طلع الصبح نظر إليَّ مغموماً.

«نحن على الأخضر(*)، من جديد» يقول مشيراً إلى قاعدة الشمعة التي اخضوضر فتيلها في نهاية عمود الشمع. كانت الدوقيّات ما تلبث أن تنفد، وعليه أن يختار بين النبيذ والقراءات. فكان يختار القراءات، ويملأ القبب الحجريّة بتلك العبارات: «يجدر بالشعب أن يتسلَّم زمام حرِّيَّته»، «الحُرِّيَّة نبتةٌ متعدِّدة الجذور»، «التحليل، يولَد عَبْداً للطبيعة،

---

*) تعبيرٌ إيطاليٌ شائع ويعني: «نحن في الحضيض، نحن مفلسون». وقد نقلناه حرفيّاً في هذا السياق للحفاظ على طرافة التشبيه، إذ يشير بييترو إلى اللون الأخضر في فتيل الشمعة، وهي في نهاياتها بما يطابق التعبير الدارج عن الإفلاس والوصول إلى الحضيض. (المترجم).

وينشأ عَبْداً للمجتمع»، «في نزاعات الحياة، المنطق هو الفنُّ المتبادل للآلام جميعها». لكنّه كان يقرأ ويتعمَّق خصوصاً في كتابَيْن عزيزَيْن عليه: مجلَّدَيْن من تأليف صديقه پيزاكانه، يُقلِّبهما بييترو بين يدَيْه كما لو أنّهما رفاتٌ أو رسائل إلهيّة. وكان يضعهما على رفِّ المدفأة بحيث يبرز الغلاف، ويفتحهما على غير تعيين باستمرار، كأنّ الصفحات تُحدِّثه بصوت صديقه. ثمَّ يجلس وقتاً طويلاً في تأمُّل النار، وكان ينجح دائماً في تهريب بعض الحطبات بالجراب متحدِّياً الحرَّاس.

«ستغدو أعمى بهذا الشكل» أقول له، لكنّه لا يسمعني. كان ينتفض واقفاً، أو يُوقظِني ليقرأ عليَّ فقرة، كما لو أنّ مصيرنا مُعلَّقٌ بها، بل ومصير كالابريا كلّها، وإيطاليا التي لم تكن موجودة بعد.

إنّ البؤس هو السبب الأساسيّ، والمنبع الدائم لأمراض المجتمع كلّها، والهوَّة المفتوحة التي تبتلع فضائله كلّها. البؤس يشحذ خنجر المجرم؛ ويُعهِّر المرأة؛ ويُفسِد المواطن؛ ويخلق تُبَّعاً للاستبداد. وإنّ العاقبة المباشرة للبؤس هو الجهل. فالبؤس والجهل هما الملاكان الوصيّان للمجتمع الحديث، هما الدعائم التي يتحصَّن بها دستوره. وطالما أنّ الوسائل الضروريّة للتربية واستقلاليّة العيش المطلقة غير مضمونة، تبقى الحُرِّيَّة وعداً زائفاً.

«الأمر مُعلَّقٌ بنا!» يهتف «كلُّ شيء يعتمد علينا!»، فيأخذني وينهضني على قَدَمَيَّ، بعينَيْن لامعَتَيْن وصافيَتَيْن، بذراعَيْن قويَّتَيْن وظهرٍ مكسور. وينتهي بنا المطاف إلى ممارسة الحبِّ على طريقة الحيوانات، كان بييترو مفعماً بحماسةٍ عنيفةٍ وحالمةٍ لا أقوى على الانغماس فيها حتَّى العمق. ثمَّ يغفو، وأظلّ أصغي إلى أنفاسه طويلاً، عاجزةً عن معانقة النعاس.

كان تعيساً، وقد حدث أن ضربني للمرَّة الأولى في تلك الآونة.

عندما كان يتقاضى راتبه، والنبيذ موجود، يشرب ويأكل بشراهة ويعود إلى القراءة، فالخمر يُوقِد قراءاته وروحه. كان ينظر إليَّ – متَّسخةً، وأُشمِّر عن أكمامي حتَّى مَرْفِقَيَّ، وأكشف القميص عن صدري، بسبب غليان القِدْر، وشَعْري أشعث، نسخةٌ عن أُمِّي – فيهزُّ رأسه أسفاً.

«أنتِ لا تفكِّرين إلَّا في هذه الأشياء التافهة» يقول، وعيناه محزَّزتان بالدم، كأنّه يتحوَّل.

«لا يمكنكَ التفكير ما لم تأكل» أُجيب.

لم يكن يعلم أنّني في النهار عندما يخرج من المنزل أتناول الكُتُب وأحفظ مقاطع بأكملها عن ظهر قلب، ألتهمها دون أن أُشاركه التفاؤل بالمستقبل. كنتُ أواري تشاؤمي كي لا نتصادم، وقد حدث أنّني ألمحتُ إلى رأيي، فكان ردُّه في منتهى السوء. «تريدين حرماني من الأمل» قال «وإذا غاب الأمل ماتت الأفكار، ولا مستقبل بلا أفكار. سنموت، مثلما وُلدنا، كالكثير من الديدان إن تعلَّقَ أمرنا بكِ. كالكثير من الديدان المقرفة».

تجهَّمَ وامتلأ غضباً عميقاً، وانقطع عن الكلام أيَّاماً، فوضعتُ كلَّ شيءٍ موضعَ الشكوك كما حدث في عشيّة حملته مع پيزاكانه. كان ينظر إليَّ، ويفكِّر أنّني لستُ من مستوى آنيتا، أو إنريكيتا المقاتلة الجسورة رفيقة پيزاكانه، التي هجرت زوجها من أجله وتسبَّبت بفضيحة، وقاتلت إلى جانبه في فترة الجمهوريّة الرومانيّة، وهذا ما أودى بها إلى فقدان الجنين الذي كان في رَحِمِهَا. وذات مساء، على السرير، لم أستطع كتمان السرِّ، فتشجَّعتُ وبحتُ له همساً في أُذُنه أنّني كنتُ حُبلى بابنٍ له،

وفقدتُهُ. لقد استهنتُ بتعاسته. «كان سيرث عينَيْكَ» قلتُ بصوتٍ منخفض، كالمجنونة. فحدَّقَ إليَّ بييترو غير مُصدِّق. نهض، واستشاط غضباً، وكان ثملاً بالخمر، فاتَّهمني بأنّني أخفيتُ عنه الأمر، وأنّني قذرة، وأنّني حبلتُ بالطفل من رجلٍ آخر. ثمَّ أخذ مشروباً من الخوان، وصبَّ منه كأساً، وهدأ لبعض الوقت. «إنريكيتا على الأقلِّ، فقدت الجنين وهي تحارب» قال، جالساً إلى الطاولة، ورأسه بين يدَيْه.

ولو أنّ المنزل تهدَّمَ فوق رأسي لما تألّمتُ بقدر ما آلمتْني كلماته. لكنّها كانت الحقيقة، فقدتُ الجنين وأنا أعمل *ليس إلّا*. «فقدتُهُ لكي أبقى وراء الدون ماتسيي» أجبتُ، واثقةً من أنّني أخطأتُ بكلِّ شيء في حياتي.

اقترب بعينَيْه اليائستَيْن والبذيئتَيْن مثلما حين يجامعني، وكنتُ قاعدةً على السرير، فضربني ورائحة المشروب تنبعث من أنفاسه. صفعةٌ جافَّة، قاسية، بيده الغليظة كخشب الكستناء، أوقعتْني عن السرير. لم أشعر بالألم على الفور، كان الذهول سبَّاقاً. لا يمكن أن يكون قد فعلها، لا يمكن أن أكون واقعةً على الأرض، أنفي وفمي ينزفان. لكنّه كان ينظر إليَّ من الأعلى كما لو كنتُ دودةً يستطيع أن يهرسها. ابتلعني العالم حينها، وانتهى كلُّ شيء. كانت أُمِّي قد قالت لي لا يجوز أن أُصدِّق أيَّ رجل. زوجي من الأعلى يصيح أنّه مُشمئزٌّ من فكرة أنّني مجرَّد ماريّا، وأنّني مجرَّد مزارعة. حمَّلني مسؤوليّة الخواء الذي يقاسيه، والذي يعتقد أنّه لا يستحقُّه، فلا بدَّ أن يعاقبني عليه. كان في عينَيْه ويده الخشبيّة عنفٌ رابضٌ منذ قرون، مترسِّبٌ منذ أجيال، عنفٌ يغلي في بحيرة قلبه السوداء، وينتظر زوجةً لينفجر. قسوةٌ لا يحقُّ له أن يُفرِّغها على أُمِّه أو على شقيقته، وكان يُخزِّنها من أجل القادمة الجديدة.

اعتذر بييترو في اليوم التالي، مستعطفاً، بأدمعٍ تسيل على خَدَّيْه. «فقدتُ رشدي، سامحيني». لكنّني أدركتُ بدءاً بذلك اليوم أنّه يتوجَّب عليَّ الأخذ بالحسبان، فعلاوةً على الضراوة التي ألتقيها في الخارج، هناك ضراوةٌ تنشأ في أسرتي نفسها، كالداء الذي ينهش من الداخل. عدنا للنوم معاً منذ ذلك اليوم، لكنّنا كَفَفْنَا عن تشارك الأحلام نفسها. كنتُ أنظر إليه في الصباح: بييترو هو بييترو، ولم يعد بييترو.

وبعد، في مايو عام 1859، توفيِّ الملك فرديناندو على حين غِرَّة، وورث ابنه فرانشسكو الثاني عرش المملكة دون أن يُسعف الوقت أحداً لاستيعاب ما حدث.

وسرعان ما أطلق الثوريّون على الملك الجديد تسمية شيشيلّو؛ وكانت الألسن تتناقل لقب الفتى، مثلما تناقلت لقبه الثاني، لازا، إذ قيل إنّه مولعٌ باللازانيا. وكنّا نتضاحك ونقول إنّه لولا زوجته لظلَّ شيشيلّو حبيساً في غرفته يبكي من الصباح حتَّى المساء، إذ لم يكن مشهوراً بصفته مقاتلاً باسلاً. غير أنّ الأوضاع تردَّت سريعاً في عهد الملك الجديد. كانت النمسا، حليفته التاريخيّة - في عصر الطغيان واستعادة السطوة - قد خسرت الحرب ضدَّ مملكة سردينيا التي يحكمها آل سافويا، فضمَّتْ الأخيرةُ مقاطعةَ لومبارديا بها. وقيل إنّ فيتّوريو إيمانويلي الثاني سيوعز لبطل العالمين بالانطلاق لغزو الجنوب في أيِّ لحظة وإكمال دمج إيطاليا كلِّها. وما إن تربَّعَ شيشيلّو على العرش، رأى أنّ نهايته وشيكة، فلجأ إلى سدِّ الثغرات. وباتت المملكة برمَّتها جسداً على شفير الموت ينازع في الرمق الأخير.

وهكذا تلقَّى سالفاتوري، على الرغم من عرجه، نداء الالتحاق بقوى جيش البوربون، الذي يُعِدُّ للتصدِّي لغزو الشَّمَال. لكنّ سالفاتوري لم

يكن لديه أدنى نِيَّة للمخاطرة بحياته فداءً لشيشيلّو، فقدم ذات مساء إلى منزلنا. طرق الباب بقوَّة، وكاد أن يخلعه. وكان معه مرافقان.

«التحِقْ عوضاً عنِّي» قال لبييترو بنبرةٍ فظَّة، دون أن يتلعثم. هناك قانونٌ في الواقع يتيح للمرء أن يتجنَّد بديلاً عن رجلٍ آخر مقابل حقيبة مليئة بالدوقيّات فضلاً عن الراتب الذي سيتقاضاه في فترة الخدمة.

«عليَّ أن أُفكِّر» أجاب بييترو.

«افعلْ ما تشاء» قال سالڤاتوري «أنا أيضاً سأُفكِّر بمَنْ أُبقيه على جدول الرواتب وبمَنْ أُسرِّحه من المَفْحَمَة».

ثمَّ صفق الباب وانصرف.

ومنذئذ صار بييترو أشدَّ توتُّراً. فمنذ أن ضربني لم نعد نتلامس، ولم نعد نتحادث، لكنّي أدركتُ أنّه يتوق للالتحاق بالجيش ثانيةً، من أجل النقود، ولأنّه كان متلهِّفاً للانغماس في الحرب، متلهِّفاً للتخلُّص من ماكيا ومن شظف العيش الذي كنَّا فيه، متلهِّفاً للاحتراق، وربَّما للموت. وكنتُ في سرِّي أريد ذلك أنا أيضاً. كنتُ أرغب في أن يذهب إلى الحرب لإحراق قِيَمِه عوضاً عن إحراقها عليَّ، وأن يتحدَّى الموت، لا يهمُّني إن فعلها في الجانب الخاطئ، والمُعارِض لصفِّ التحرُّر من الدكتاتوريّة.

وهكذا ظلَّ بييترو أسبوعاً في تلك الحال، يعمل في المَفْحَمَة من الصباح حتَّى المساء، ويتوقَّف هناك في الليل أحياناً، وعندما يكون في البيت لا ينام. وفي إحدى تلك الليالي حاول أن يقول شيئاً، إذ يعلم أنّ النوم يجافيني أنا الأخرى، لكنّه تراجع.

وفي المساء التالي، على العشاء، استسلم.

«المَفْحَمَة تمدُّني بنقودٍ أقلّ في كلِّ مرَّة. وإن لم ألتحق فإنَّ سالقاتوري الكلب سيطردني. ثمَّ إنّه من عائلة مانكوزو، فرعٌ من آل موريلّي، وهؤلاء لا يتورَّعون عن الأذى. سأفعلها من أجل بعض المال ...» سكت «لكنّي سأنشقُّ حالما يصل غاريبالدي، وسأنضمُّ إلى الثورة».

انطلق بعد ثلاثة أيَّام.

كان يرتدي كنزةً مفتَّقة وسدارة جيش البوربون المعوجَّة التي لا يدري أحد كيف صمدت في عمق الصندوق منذ أعوام معركة سابري.

22

بدأ العالم بالتغيُّر فعليّاً في ربيع العام 1860، وارتفعت الوتيرة في الصيف أيضاً. إن كان هناك لحظةٌ تدهورت فيها الأمور على منحدرٍ لا يتوقَّف، فهي في تلك الفترة بلا شكٍّ. عندما ستنفجر الأشياء كلُّها – فكَّرتُ وأنا أطبخ لي وحدي، أو وأنا في السرير الخالي – فستنفجر في وجهنا، بعد قرونٍ لم يتحرَّك خلالها شيءٌ سوى الذباب في البيوت.

في أجواء الغموض في أثناء تلك الأسابيع، نشأت هيئات حفظ النظام، وهي لجانٍ سرِّيَّة مؤلَّفة من نبلاء وأشراف ووجهاء يُعلنون ولاءهم التامَّ للملك على الملأ بينما يُدبِّرون في الخفاء من أجل وحدة إيطاليا. وكانوا يجمعون «المرصودين» المرغمين على المنفى، والذين وجدوا الشجاعة شيئاً فشيئاً للعودة إلى بلداتهم، ومنازلهم، مدفوعين بحَدْسٍ يُخبرهم أنّ الأشياء ستتغيَّر حتماً.

وفي الثلاثين من أبريل كتبت الجريدة السرِّيَّة كوريري دي نابولي أنّه يجب على «المرصودين» والعمَّال أن يتَّحدوا لتأسيس وطنٍ جديد. أحدثت تلك الصفحة الأولى جدلاً واسعاً. النبلاء والمزارعون في صفٍّ واحد: فكرةٌ هزليّة، مجنونة، بدت صعبة التحقيق حتَّى تلك الآونة، لا يمكن إلَّا التهامس بها خفيةً داخل البيوت. إلَّا أنّ الكلمات الأخرى، «يجب أن يتَّحدوا»، كانت تنتقل من فمٍ إلى فم كالنبيذ الطازج، وتُسكِر الفلَّاحين. سنصبح جميعاً سواسية، كانوا يَعِدُوننا. وفي الخامس من

مايو، عندما بتُّ وحيدةً منذ مدَّة طويلة ولا أنباء تَرِدُني عن زوجي منذ أسابيع - غادر بييترو في صمت، وما كان انعدام التراسل بيننا إلَّا إطالةً لسكوتنا - وفي نشوة ذلك النبيذ، أبحر غاريبالدي من كوارتو، في مقاطعة ليغوريا، صوب مارسالا، رُفْقة ألف متهوِّرٍ، مثلما سنتهوَّر نحن ما بعد الاتِّحاد، خلال أعوام الحرب الأهليّة، عازمين على الاحتراق كالشُّهُب.

وإذ رسوا في صِقِلِّيَة، وجد الألف مقاتل أنفسهم في مواجهة عشرين ألف جنديّ ومئة وسبعين سفينة حربيّة، فضلاً عن ثلاث بواخر محمَّلة بالمدافع. لكنّهم كانوا يشعرون أنّهم لا يُقهَرون، وهذا صحيح، فاستطاعوا المرور، بشكلٍ لا يُصدَّق، وفي منتصف مايو أعلن غاريبالدي نفسه دكتاتور صِقِلِّيَة. وأصدر في بالرمو مرسوماً ثوريّاً: الأراضي العامَّة البلديّة والحكوميّة، ستُقسَّمُ بالتساوي على المزارعين الذين يَفلحونها. هذا ما كنَّا ننتظره منذ دَهْر. كانت العدالة، المحمولة على أجنحة الدكتاتور، تُبشِّر بالوصول إلينا أيضاً يوماً مّا، وكانت ستكنس كلَّ شيء كالزوبعة. كانت أجمل الأوهام. هُرِعتُ كالممسوسة إلى كازولي لإنباء أُمِّي وإخوتي، لكنّ الأخبار وصلتْهم مُسبَّقاً عن طريق والدي، الذي انتهز خيبة الكونت موريلّي ونال نهار إجازة ليقضيَ بعض الوقت مع زوجته. لم يُصدِّق أحدٌ ما الذي وقع على بُعْد أميال قليلة عنَّا. ولم تَخْلُ إقطاعيّةٌ أو بقعةٌ أو حقلٌ إلَّا وتعانق المزارعون الكالابريّون فيها وهتفوا بالفم الملآن، للمرَّة الأولى بلا خوف: «نحن أحرار! انتصرنا! ولَّى زمن العبوديّة!»

إلَّا أنّ الانتظار كان واجباً، انتظارٌ طويلٌ، لحظةٌ ينبغي انتظارها مدَّةً لا تنتهي، وقد لا تحين أبداً. الشيء الوحيد الذي كان موجوداً، في حقيقة الأمر، هو الحماس، والحماس إذا حَلَّقَ بنا أعَمَى بصائرنا. وهكذا اكتفى

العُثُّ بمرسومٍ واحدٍ، ليُصاب بالرمد، وبدأ الغاريبالديّون منذ تلك اللحظة يجذبون المزارعين مثلما يفعل المغناطيس بالشظايا المعدنيّة. غاريبالدي هو مُحرِّرنا، الإله المُنزَّل لتخليصنا من حياةٍ طويلةٍ، كابدنا فيها الاضطهاد.

وفي تلك الأيَّام تحديداً عاود بييترو مراسلاته، وفي تلك الأيَّام أيضاً غلبتْني الفرحة فقرَّرتُ أن أسامحه، بعد أشهرٍ على تلك الصفعة. لم أجب قطُّ على أعذاره التي قدَّمها في ذلك الصباح، لكنّي فعلتُها آنذاك حين قرأتُ رسائله.

كنتُ أستنبط توقُّده بين السطور، لأنّه لم يكن ليخاطر بكشف أمره من قِبَلِ الرقابة البوربونيّة التي تخترق الرسائل كلّها.

أرأيتِ أنّنا كنّا على حقٍّ؟ كان يكتب، كما لو أنّ الحرب قد كنست لحظات صمتنا كلّها. *أنا وأنتِ كنّا مجانين، ماريّا، لكنّ المجانين ينتصرون حتّى عندما ينهزمون. أنا وأنتِ سننتصر، يا ماريّا الصغيرة. أنا وأنتِ معاً.*

فكنتُ أردُّ، لأنّه كان حيّاً ومنذ مدَّةٍ لم أعد أتمنَّى موته. أجبتُ أنّ الأمور في ماكيا على ما يرام، وأنّ أُمَّه وشقيقته إيلينا ينتظرانه، وأوصيتُه بتفادي المخاطر، وأنّني وهو مجنونان بالتأكيد. كان يكتب كلمات غرام. يشعر أنّه سيعود، وبشكلٍ مفاجئ، قبل أن يُجنِّدوه ضدَّ غاريبالدي، وأنّ ذلك سيحدث قريباً: كان يكتب أنّ مئةً وثلاثين ألفاً عددُ جنود شيشيلّو الذين يتجهَّزون للزحف المعاكس، من نابولي نحو الجنوب، للقضاء على ثورة القمصان الحُمْر.

ظنَّ فرانشسكو الثاني أنّه سيُهدِّئ المزارعين، فأعلن في الخامس والعشرين من يونيو عن الدستور، وأفسح المجال لحرِّيَّة صحافة زائفة،

مثلما فعل والده قبل أعوام؛ وقد استخفَّ بالشعب مثل أبيه، مُوقِناً بإحكام السيطرة عليه. وهكذا انتشر مانفستو الكاتب النابوليّ لويجي سيتمبريني، بشكلٍ سرِّيٍّ إنّما بسرعةٍ كانت تُعدُّ في الماضي مستحيلة، يسخر فيه من تلك الامتيازات الممنوحة. حتَّى الأُمِّيُّون كانوا يتداولون تلك الورقة من يدٍ إلى يد، ثمَّ تُخفَى في جيبٍ أو تَؤُوْل إلى الحرق، بعد أن حفظوا محتواها عن ظهر قلب، وأمسوا يتلونها في الحانات، والمزارع، والغابات، والبيوت.

إن سلَّمتْكُم الحكومة سلاحاً، فخذوه. وإن كان هناك صحافةٌ حرَّة، فاكتبوا وقولوا بكلِّ شجاعة أنّكم تريدون تأسيس إيطاليا. وإن أُتيح لكم أن تتجمَّعوا، فتجمَّعوا. باختصار، احصلوا على كلِّ سلاحٍ يمنحونه لكم، ثمَّ وجِّهوه ضدَّهم.

أن نُوِّجه كلَّ شيء ضدَّ ما كنَّا عليه حتَّى تلك اللحظة. أن نتسلَّح ضدَّ أنفسنا. هذا ما كان أحدنا يقوله للآخر إبَّان تلك الأسابيع. وهكذا، وفي تلك الفترة تحديداً، كما لو أنّها إشارةٌ من القَدَر، عادت المعلِّمة دوناتي مع مَنفيِّيْن آخرين – عاد أفضل جزءٍ منِّي.

تلاقينا بالمصادفة، في الساحة في ماكيا، وكادت إحدانا لا تعرف الأخرى للوهلة الأولى. كانت تُعاوِدني في البدء خلال الأحلام مثل انتعاشة، ومع مرور الوقت أصبحت أشبه بالحدس، حضورٌ بهيٌّ يجعلني أستيقظ صافية الذهن. كنتُ أمشي رُفْقة حماتي فرانشسكا، والسلَّة بيدي، للذهاب إلى السوق. خرجت المعلِّمة فجأةً من أحد الأزقّة، ترتدي فستاناً حريريَّاً أخضر، وكانت نحيلةً للغاية. عظام مَنْكِبَيْها تحت الشال حادَّة الأطراف، وذراعاها هزيلتان، ووجهها كأنّه جمجميّ. لم نلتقِ منذ خمسة أعوام، لكنّها بدت ثلاثين عاماً. لقد اضطربت في لافوسّا،

وتبدَّت آثار التعذيب حتَّى في مشيتها، كانت تمشي متَّكئة إلى عكَّاز وتبتسم بمفردها، وتُسدِّد عينَيْها إلى الأرض، بنظرة مَن أضاع كلَّ شيء. تصادمنا، وكادت تسقط من شدَّة الضربة.

ساندتُها عفويَّاً، خلتُ أنّها عجوز، ونظرت كلٌّ منَّا في عينَي الأخرى للحظةٍ طويلة. وسرعان ما أخفضت أنظارها مجدَّداً، إذ لم تعرفني، لا بدَّ أنّ الزواج غيَّرني كثيراً أنا أيضاً. على أنّ لتلك المرأة شموخاً ذكَّرني بعنبة الثعلب، وأيَّام الاثنَيْن التابعة لحِقْبَةٍ منقضية، زاخرة بالأحلام، والحُرِّيَّة، والمشاريع. إنّها هي، ناديتُها، فلم تعرفني إلَّا حينذاك، كأنّها تستفيق من غيبوبة. لكنّها رسمت ابتسامةً مريرة.

«لقد كبرتِ» قالت بصوتٍ رقيق، رافعةً يدها كما لو أرادت الحنوَّ عليَّ. ثمَّ سألت عن أخباري، وإن كنتُ ما أزال «أُطبِّق ذكائي على كلِّ شيء». رويتُ عن الزواج، عن بييترو، عن الخدمة العسكريّة، عن مُثُلِه العليا، وعن أحلامنا، قلتُ شيئاً عن القراءات التي لم أنقطع عنها، بسرقة كُتُبه النفيسة. توقَّعتُ أنّ تلك الأحاديث ستُسعدها، لكنّها تركتْني أتحدَّث وفي النهاية رفعت العكَّاز وصوَّبتْهُ بمشقَّةٍ نحو مركز الساحة، حيث كان زوجها بانتظارها.

«سيعود قريباً، عزيزكِ بييترو» قالت.

ثمَّ اتَّكأت إلى العكَّاز بثباتٍ أكبر، وبلغت القاضي دوناتي بخطواتٍ متثاقلة. تركتْني هناك أتساءل عن مآل ماضيَّ.

كانت الجرائد في تلك الأسابيع تُغيِّر أسماءها مثلما نُغيِّر الحطب في المدفأة. فالجريدة النابوليّة «ديوراما» أصبحت «إيطاليا»؛ وصدرت جرائد جديدة مثل «الوطنيّ»، «غد إيطاليا»، «الرأي الوطنيّ»، «إيطاليا

الجديدة». استولى غاريبالدي، بعد بالرمو، على ميلاتسو في غضون أيَّام: كانت الموجة لا يمكن رَدْعها، توشك على إطاحة كلِّ شيء.

وحينذاك بدأت الخيانة.

تلك هي الأسابيع التي أخذ كثيرٌ من البوربونيِّيْن بتغيير ردائهم، ودمائهم، وجِلْدهم، وتغيير إلههم، عندما استشعروا ككلاب الصيد سقوط أسرة فرانشسكو الثاني، التي ستُسقِط معها سلطاتهم، وممتلكاتهم، وامتيازاتهم، وحياتهم نفسها. ليس النبلاء والأشراف فحسب، إنّما الضبَّاط، والكرادلة، والأساقفة، والكَهَنَة، والعطَّارون، وكلّ مَنْ يحوز على أدنى سلطان أو منفعة أو صلاحيّة أو مصلحة؛ بل وحتَّى الأدميرال ڤاكّا، قائد الأساطيل العسكريّة البوربونيّة، تخلَّى بين يومٍ وليلة عن سفنه، وبدأ يتردَّد إلى منتديات اللبراليِّيْن السرِّيَّة التي كان يدهمها في السنوات الأخيرة. عانق حماةُ المُحافَظة بنادقَ الثورة على حين غِرَّة. ها هي إيطاليا، تبادَرَ إلى ذهني وأنا أشهد ذلك الفلتان المتزعزع، ها هو سبب أنّنا مدانون بحربٍ متكرِّرة من أجل الحياة، الأخ ضدّ أخيه، والوالد ضدّ ابنه، وهذا ضدّ ذاك، والكلُّ ضدّ الكلِّ. كنتُ أشهد مثلما كان الجميع يشهد ولادة شعبٍ من البوم، وهذا الشعب سيكون الشعب الإيطاليّ. كنَّا طيوراً تتقنَّع، وتعيش بتعلُّم فنِّ الطعن بالظهر، والغيلة في الظلِّ، وسلب الآخرين حتَّى فتاتهم. كنَّا انتهازيِّيْن، ننقض عهودنا وننفي الحقائق. لا يساوي القَسَمُ شيئاً بالنسبة إلى بومة، ولا حتَّى الرّبّ، بل إنّ البابا نفسه ترك الإيطاليِّيْن يتذابحون مُخضِعاً الصليب ومذابح الكنائس لمصالحه. ما الذي يساويه الإله بلا أرضٍ يمارس عليها ألوهيَّته؟

وبينما بالضبط كانت الثورة تصل إلى مقاطعة بازيليكاتا، قبل أن يرسوَ غاريبالدي في القارَّة؛ وبينما بالضبط كانت الهيئات السرِّيَّة تُشكِّل

مجموعاتٍ مسلَّحة ويجتمع في كورليتو برتيكارا تلك البلدة الصغيرة مئاتٌ من المتمرِّدين، مسلَّحين ويرتدون القمصان الحُمْر ويُلوِّحون بالأعلام ثلاثيّة الألوان؛ وبينما بالضبط كانوا يزحفون إلى القصر البلديّ، ويطيحون بالرموز البوربونيّة، ويُقسِمون على ولائهم لڤيتّوريو إيمانويلي الثاني وجوزيبّي غاريبالدي؛ وبينما بالضبط وقَّعَ كاتالدو نيتي حاكم ناحية بوتنزا في 18 أغسطس بياناً يُقرُّ فيه نقل السيادة وخزانة المال إلى القصر البلديّ بما يُولِّد انطباعاً للمرَّة الأولى أنّ السلطة تنتقل *بالفعل* إلى يد الشعب؛ وبينما بالضبط تخلَّى رئيس المحكمة المدنيّة عن وظيفته ونقل العمدةُ والمستشارون التمثيل إلى حكومةٍ مؤقَّتة؛ في تلك الساعات بالضبط – بينما كانت الأخلاقيّات تتحلَّل، والقيم تتفسَّخ، والمعتقدات تتصدَّع – تُوفيِّ والدي، في صمت، وحيداً، في عزبة الدون دوناتو موريلّي، حيث عمل طيلة أعوامٍ مزارِعاً مقيماً.

23

جاؤوا بالجثمان إلى البيت على عربةٍ يجرُّها بغل، وكان الجثمان مغطَّىً بمُلاَءَةٍ قصيرة لا تستر شيئاً. أبي هناك، بلا حَرَاك، رحل في الليل بسبب وعكةٍ مباغتة جرَّاء العمل المضني، وقلَّة الطعام، والديون، والبُعْد عن العائلة، في حين اتَّسع نطاق الثورة التي لم يؤمن بها إلى حدٍّ بعيد. كنتُ أنظر إليه، مُضاءً بنور الشموع في الغرفة، حيث أكلنا ونمنا على مدى عُمُرٍ بأكمله، وحيث كانت بعض نسوة البلدة آنذاك جالساتٍ وظهورهنَّ مسنودةٌ إلى الجدار يرتِّلنَ الأدعية ويبكينَ؛ دنوتُ من أُذُنه وهمستُ فيها. «كنتَ على حقٍّ، يا أبتِ» قلتُ له «الأشياء عندنا لا تتغيّر إلَّا لكي لا تتغيَّر أبداً».

في يوم الجنازة، 19 أغسطس 1861، وبينما كنَّا نحن أبناؤه نحمل النعش على أكتافنا، كان غاريبالدي يرسو في ميليتو پورتوسالڤو. وعندما أنزلنا التابوت في الأرض اللعينة التي حرثها والدي، وتمنَّى حتَّى نهايته أن يمتلكها، محاطين بأهل البلدة كلّهم دون حضور الابنة الكبرى، كان جنود الجيش البوربونيّ في الساعات نفسها تماماً يُلقون أسلحتهم بشكلٍ عفويّ، مجذوبين كالعُثِّ نحو الوهج السرابيّ الذي أشعلتْهُ وعودُ المحرِّر، وتشكَّلَ جيشٌ من أرتالٍ مسلَّحة مؤلَّفٌ من رجال الحرس الوطنيّ الخَوَنَة، والجنود البوربونيِّيْن المنشقِّين، والمتطوِّعين الغاريبالديِّيْن، والفلَّاحين، والخوارنة وتلامذة اللاهوت. وبينما كانت فرقة كازولي تعرف

ألحان التشييع، كانت تلك الأرتال تدخل القرى مصحوبةً بأنغام الفِرَق المحلِّيَّة؛ يحتلّون مباني الحكومة وفي أيديهم أسلحة، ويتلون مرسوم سقوط الأسرة البوربونيّة ويتولّون السلطة. «باسم غاريبالدي وڤيتّوريو إيمانويلي الثاني».

كانت أُمِّي منهارة، ما انفكَّت تُردِّد أنّها من دون زوجها بياجّو لن تتحمَّل الصعاب، وأنّ الحياة من دونه لا دافع لها. وكانت ڤنشنزا إلى جانبها، تشدُّ من أزرها، وهي تشهق بأنفها وتُكفكف دمعها. وعندما هبط التابوت اضطرب سالڤو، وحاول منعهم من دفنه، بلا جدوى.

وهكذا، في حين أهالوا التراب على التابوت، كان الجنرال البوربونيّ الذي لم يتبقَّ غيره، الجنرال غيو، يقاتل مع عشرة آلاف رجل، ويتنقَّل على ضفاف نهر كوراتشي، عبثاً يحاول دحر المستقبل.

وبينما كان سيِّد والدي، دوناتو موريلّي، البومة الإمبرياليّة والزعيم السابق لأصدقاء ملك البوربون، آتياً إلى بيتنا بعد الجناز دون أن يخلع القبَّعة، لكي يُذكِّرنا بأنّ دَيْنَ الرهن لا يسقط بوفاة الوالد وأنّ أبناءه من بعده سيُضطرُّون إلى تسديده حتَّى الفلس الأخير، كان أخوه ڤنشنزو البومة الإمبرياليّة مثله، في تلك الظهيرة نفسها، يُبدِّل جِلْده نهائيّاً، ويُعترَف به لبراليَّاً. فطالبتْهُ الهيئة المناوئة للبوربون في كوزينتزا – التي تسلَّلَ إليها مَنْ كانوا سيصبحون قريباً أسيادنا الجدد الشَّمَاليِّيْنْ – أن يجمع المنشقِّين عن الفصائل الملكيّة، وأن يضبطهم في ميليشيا نظاميّة، وأن يوزِّع عليهم الرتب العسكريّة. لم يتردَّد ڤنشنزو موريلّي لحظةً واحدة وقال نعم: ففي سبيل الحفاظ على كلِّ شيء لم يتوانَ في قيادة حربٍ ضدّ بيته نفسه، وأُنجزَت بذلك عمليّة التحوُّل من بومةٍ بوربونيّة إلى بومةٍ ساڤويّة. بقي الآن بذلُ جهدٍ يسيرٍ لإخراج التمثيليّة المعتادة، والتضحية

بكثيرٍ من الشبَّان ذوي القِيَم المثاليّة. ثمَّ سيعود كلُّ شيء مثلما كان عليه في السابق.

وفي تلك الفترة تحديداً، انشقَّ بييترو مثل آلاف العُثّ وعاد إلى المنزل. في ليلة الثامن والعشرين من أغسطس، بعد مرور تسعة أيَّام فقط على دفن والدي، دقَّ بييترو الباب بطريقةٍ غير معهودة عنه: ثلاث دقَّات طفيفة.

لم أكن أنام، أو فلنقل إنّ نومي مُتقلِّب، كالعادة منذ مغادرته ووفاة أبي. ظهر بعينَيْن جاحظَتَيْن وهائمَتَيْن كمَنْ سار طوال أيَّام بلا طعام، باتت جُبَّته فضفاضةً على جسده النحيل، يعتمر السدارة على رأسه، وخُرجاً على كتفَيْه بدا ضخماً. لم يكن بييترو، إنمّا العمُّ زلزال حينما كان يبرز من الظلمات.

وقبل أن يأكل شيئاً، وقبل أن يشرب شيئاً، وقبل أن يسأل عن أيِّ شيء، حملني إلى السرير، وجامعني. وفي الأثناء، كنتُ أبكي، لأنّي لم أعرفه، ولأنّي تعبتُ في الوثوق به من جديد، ولأنّه كان حيَّاً وعائداً. مثل شبحٍ في جنح الظلام، أرجعني بييترو إلى الأرض. كانت لحظة، ارتدينا فيها الثياب، وأكلنا شيئاً ساخناً، واغتسلنا واسترحنا قليلاً، جنباً إلى جنب على الفراش ذاته.

«يا للراحة!» قال بييترو «أكاد لا أذكرها».

قُبلةٌ عجولة، ثيابٌ نظيفة، وها هو ينطلق قبل الفجر نحو جبهة نهر كوراتشي، ليؤدِّي دوره ضدّ الجنرال غيو، ويصبح غاريبالديّاً، وينخرط في تنفيذ مكيدة آل موريلّي عن جهلٍ كُلِّيٍّ.

«سنلتقي قريباً، يا ماريّا» قال عند الباب، عندما بدأت السماء

تتكشَّف. «وسنكون أحراراً، سنكون إيطاليِّيْن». قبَّلَ يدي وجبيني، واختفى مثلما ظهر منذ سُوَيْعَات.

بعدها بليلَتَيْن، 30 أغسطس، كان عيد ميلادي الذي تزامن مع زلزالٍ رهيب هزَّ المقاطعة بأكملها. انهار برج الكنيسة، وبعض البيوت أيضاً.

«عندما تسقط مملكة، تتزعزع أركان الأرض» كنَّا نقول ونحن نتجوَّل وسط الأنقاض.

وفي تلك الليلة ذاتها، لم أكن لأعلم أنّ بييترو أوَّلَ الزلزالَ على أنّه فأل خير، فخرج بحملة استكشافيّة مع طليعةٍ من ستَّة رفاق من المعسكر الذي كان يتربَّص فيه. وبعد مسيرٍ طويل، برزت مخيَّمات جنود البوربون في الظلام. لم يتروَّ بييترو، إنّما صاح «يحيا غاريبالدي!» وانقضَّ على العدوِّ باحثاً عن التشابك المباشر. لكنّ الأعداء، حالما سمعوا تلك الصيحة، رفعوا أذرعهم إلى السماء، استغنوا حتَّى عن شرف المواجهة، وألقوا أسلحتهم أرضاً. كان الجيش البوربونيّ – كسائر المُدُن والبلدات في المملكة – مُنهَكاً جرَّاء الفساد المستشري، يتضعضع من الداخل، وقد باغتتْهُ الثورة العارمة التي دفعت الجنود إلى الفِرَار أو الالتحاق بركبها.

قصَّ عليَّ بييترو أحداث ليلة الزلزال الغريبة والظافرة بنفسه، برسالةٍ مُطوَّلةٍ تركها في مقهى ماكيا أحدُ زملائه الذي انتقل إلى كاتانزارو. وذلك في حين كان لدى البومة دوناتو موريلّي جهاز تلغراف ميدانيّ، استخدمه غاريبالدي للإبراق إلى آل ساڤويا النصرَ الكالابريَّ الأوَّل.

قولوا للعالم بأسره، إنّني بعزيمة رفاقي الكالابريِّيْن
البواسل حيَّدتُ سلاحَ عشرة آلاف جنديٍّ يقودهم الجنرال

غيو. وكانت غنائم الهزيمة اثنتا عشرة مدفعيّة ميدانيّة، عشرة آلاف بندقيّة، ثلاثمئة حصان، وعدداً كبيراً من البغال، وعدَّة حربيّة هائلة. بشِّروا نابولي والأماكن كلّها بهذا النبأ السارّ.

ج. غاريبالدي

وفي الحادي والثلاثين من أغسطس، في منتصف النهار تماماً، أطلَّ الجنرال من شرفة قصر موريلّي، القصر نفسه الذي تزوَّجت فيه تيريزا، والذي أُهين فيه أبي.

كنتُ هناك أنا أيضاً في ذلك اليوم، كنَّا هناك جميعاً، بؤساء السيلا ومزارعيها، بأنوفٍ شمَّاء، نترقَّب كلمات الجنرال. وكنَّا نعلم، مثلما قيل في كلِّ زقاقٍ وشارع، أنّ ذلك الخطاب سيُغيِّر التاريخ. كنَّا ننتظره منذ الأزل، بل خُلِقت دماؤنا من ذلك الانتظار، وجنوننا البطوليّ وضراوتنا اليائسة، وإرادتنا النازفة والانتحاريّة التي اختمرت بالصبر. كان عطشُ الأرض مكتوباً بأسماء عوائلنا – أوليڤيريو، مَنْ كانوا يقطفون الزيتون؛ تيرّاتسانو: مَنْ كانت ظهورهم تنكسر من الكَدِّ بالمحراث؛ زاپّاري: مَنْ كانوا لا يُتقنون إلَّا استعمال المجرفة؛ پيكورارو: مَنْ كانوا يتولّون أمر الماشية – وكانت الأرض تنتظر منذ عصورٍ لتنفجر.

خرج الجنرال، بلحيته الطويلة وشَعْره الأشقر، وقميصه الأحمر، معتزّاً بنفسه، وإلى جانبه البومة الإمبرياليّة الدون دوناتو موريلّي، طويل القامة وداكن البشرة ملتحفاً ببردةٍ طويلة.

وقال غاريبالدي وسط صمتٍ خياليّ: «مَنْ سيحمل السلاح، ويساند الثورة وإيطاليا الموحَّدة تحت حُكْم ڤيتّوريو إيمانويلي، أعده وعداً قاطعاً

بإعادة تقسيم الأراضي. وبتنصيف سعر الملح والدقيق. وبإلغاء الضرائب البلديّة. وبتشريع الاستخدام المدنيّ للأراضي. سيتاح لكم التحطيب، والصيد البحريّ، والصيد البرِّيّ، وجني الخضروات والفواكه بصفتكم مواطنين أحراراً».

دوَّى صخبٌ مجلجل. كنَّا نحن، شعرنا آنذاك أخيراً بأنّنا موجودون. ها هو، لقد لُفِظَت الكلمة، واعتباراً بتلك اللحظة ما عاد الرجوع إلى الخلف ممكناً. يشهد على ذلك قذف القبَّعات الجيَّاش والمبالغ فيه نحو السماء، مع الهتاف الفَرِح.

«يحيا! يحيا! يحيا غاريبالدي!» كنَّا نصيح متعانقين أنا وسالڤو وڤنشنزينا وكارميلينا وطونيو وسائر الحضور. «تحيا الحُرِّيَّة! يحيا الغد!»

أهكذا تنتهي العبوديّة؟

ولكنْ، بينما كانت تلك العهود تنتقل من لسانٍ إلى لسان، وبينما كانوا بسرعة الريح يُعبِّئون خمسين ألفاً من إخوتنا وأقاربنا وآبائنا وأزواجنا تأهُّباً للانطلاق والفناء من أجل قضيّة إيطاليا الموحَّدة، كان البومة الإمبرياليّة دوناتو موريلّي يُعيِّنُ نائباً مؤقَّتاً للدكتاتور على يد غاريبالدي المقدَّسة ذاتها. وإذا كان هو البومة، فنحن إذ وَضَعْنا تلك الشرفة نُصب أعيننا كنَّا الوعول والأيائل التي تجمد إزاءَ ضوء القنديل الخافت.

24

كانت الحرب ستستمرُّ، وعلى بييترو أن يلتحق بقطيع الوعول الجدد للعودة إلى الأراضي الكالابريّة، ومقاطعة كامبانيا، وتيرّا دي لاڤورو، والوصول إلى نابولي لمحاصرة العاصمة وإطاحة شيشيلّو.

كان يكتب إليَّ في المساء، وتصلني رسائله عبْر شبكة المتطوِّعين المنتشرين في أصقاع الجنوب كلِّه، أسرع من خدمة مكتب البريد التابع للمملكة. ومرَّةً أخرى كان الحبُّ يبرز من بين الكلمات، ومن قلب الخطر.

كوزينتزا، 31 أغسطس 1860

صغيرتي ماريّا،

مرَّت سبعة أيَّام منذ أن انطلقتُ ضمن هذه الحملة الشاقَّة وغير المنظَّمة، وصار التعب لجوجاً. فلقد مشينا في جبالنا، حاملين على أكتافنا ثلاثة قوارب. هل تصدِّقين؟ حملنا ثلاثة قوارب على الجبل. عيَّنوني في فوج سيرتوري، كنتُ متميِّزاً بفضل العامِّيَّة التي أتوسَّط بها بين الحطَّابين والرعاة. هناك جبليّون من الشَّمَال معنا أيضاً، لومبارديّون وپيمونتيّون على وجه الخصوص، يتسلَّقون الجبال جيِّداً، لكنّهم لا يفهمون أيَّ كلمة ممَّا يتحدَّث به ناسنا. «إنّني معجبٌ بزِيِّ أهل الجبال الكالابريِّيْن حقَّاً!» قال غاريبالدي شخصيّاً في الأمس،

بعد جولة التفقُّد. ماريّتي، أودُّ أن أُخبركِ بأشياء جميلة فقط، لكنّ الحقيقة هي أنّنا نفتقر إلى كلِّ شيء. كان عليكِ أن تري كيف زوَّدنا إخوتنا الكالابريّون بالأحذية (كثيرٌ من رجالنا بلا نعال، إمَّا أنّها اهترأت أو أنّها ضاعت)، والبنطلونات، والقمصان، وأدوات المطبخ، والبارود والرصاص، والأسلحة، والأغطية، والبغال، والخيول. هي هكذا هذه الحرب: على جانبٍ جيشٌ بمئة وعشرين ألف جنديّ مزوَّدين بالعتاد اللازم، وعلى الجانب الآخر نحن الذين لا تدفعنا سوى المُثُل العليا لنقاتل بأمعاءٍ خاوية. ورغم هذا، ما بين أمعاءٍ ممتلئة وأمعاءٍ خاوية – كم مرَّةً قلناها أنا وأنتِ؟ – تنتصر الأمعاء الخاوية.

هل تصدِّقين أنّنا استطعنا فعلها؟ كلُّ ما عشنا من أجله يتحقَّق. الحادي والثلاثون من أغسطس 1860، قصر موريلّي: فلنسجِّل هذا اليوم! هل تتصوَّرين فرحة المرء بكونه جزءاً من موجةٍ لا تُقهَر؟ لو كان بيزاكانه بيننا لانعقد لسانه ذهولاً. والآن أُودِّعكِ، إنّهم ينادونني. سأكتب إليكِ دائماً، كلَّ مساءٍ إن استطعتُ.

مع حبِّي

عزيزكِ

بييترو

***

كوزينتزا، 1 سبتمبر 1860

غاليتي ماريّا

أنباءٌ قليلة لكنّها جليلة، لأنّ الوقت هنا في المعسكر طاغية. لم أمتْ

بعد، بل أشعر أنّني حيٌّ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. يؤسفني أنّني مضطرٌّ في هذا الفوج إلى ملازمة الدون آخيل ماتسيي، الذي عملتِ تحت إمرته في حقل التوت، يتعجرف بأنّه ثوريٌّ رغم أنّه يجهل كيف تُمتَشق البندقيّة من الجانب الصحيح. الجميع هنا عندنا يعدُّونه على حقيقته: انتهازيّ اللحظات الأخيرة، لا يجيد إلَّا ركوب عربة المنتصرين. ومن المفترَض أن يلقى حتفه عاجلاً أم آجلاً برصاصةٍ من رصاصنا، نظراً إلى حجم الكراهية التي يبثُّها.

رسا جنرالنا سيرتوري في سابري مع أربعة آلاف رجل، سينطلقون باتِّجاه سالرنو مقسَّمين على رتلَيْن، بقيادة الجنرالَيْن ميديتشي وكوزيتز. لأنّ شيشيلّو، ملكنا المحبوب، قد أمر أن تتمركز قوَّاته في باغاني ونوتشيرا، على بُعْد أربعة عشر ميلاً عن نابولي، هناك حيث أنشأ المقرَّ العامَّ. تجمَّعَ عشرون ألف جنديّ داخل العاصمة في غضون يومَيْن. إنّنا في أوج اللحظة، يا ماريّا. سنكون في نابولي عمَّا قريب، وسنستولي على المدينة عمَّا قريب، وسنطرد الملك لازانيا. لن تكون سهلة، آمل أن أبقى على قيد الحياة. صلِّي من أجلي، حتَّى لو لم يرقْ لكِ ذلك.

كم جميلٌ لو أنّكِ كنتِ معي هنا، في المساء، عندما نخيِّم ونتسامر، وندخِّن (مَن لديه نصف سيجار)، ونتناسى لوهلةٍ عظمةَ ما نوشك على إنجازه، كنتِ ستسمعين اللهجات كلَّها، لا لهجات القادمين من الشَّمَال فحسب، إنّما لهجات العالم بأسره. تصلنا أوامر بالإنكليزيّة، ثمَّ إيعازٌ بالألمانيّة أو الهنغاريّة (ثمَّة الكثير من الهنغاريِّيْن، شبَّانٌ أشدَّاء ومتأهِّبين، يرجون أن يحرِّر الجنرال وطنهم من ربقة النمساويِّيْن)، هنا إجابةٌ بالإسبانيّة المتناغمة، وهناك ردٌّ بالدنماركيّة المبحوحة. باختصار، العالم كلُّهُ يقاتل من أجلنا.

أستميحكِ، حان وقت الطعام، سنكون محظوظين إن استطعنا تغميس كسرة خبز بقليلٍ من المرق.

انقلي قبلاتي الكثيرة إلى أُمِّي، واحتفظي لنفسكِ من القبلات قَدْر ما تشائين.

مع حبِّي

عزيزكِ

ب.

***

كوزينتزا، *2 سبتمبر 1860*

غاليتي الصغيرة ماريّا

لقد فاقت الوقائع الرائعة الآمال كلَّها. الملك غادر نابولي في الخامسة ظهراً على متن فرقاطة إسبانيّة، وعلى الرغم من المساعي لم تشأ أيُّ سفينة حربيّة أن ترافقه. هل تتخيَّلين، يا ماريّا؟ في تلك المدينة الشاسعة والصاخبة لم تُدَوِّ أيُّ صيحة، ولا أثر لأيِّ تعاطفٍ إبَّان تلاوة بيان قائد الشرطة الذي أعلن عن مغادرة الملك. أسرةٌ حاكمةٌ تسقط بعد مئة وستَّة وعشرين عاماً والدكاكينُ تفتح أبوابها، والشعب ينصرف إلى شؤونه كأنّ شيئاً لم يقع. سننطلق الآن على متن باخرة. سنكون في نابولي خلال ساعاتٍ قليلة لنحارب سبعين ألف جنديّاً تركهم شيشيلّو في حامية المدينة. ولكنْ، هناك نبأ واردٌ عبْر برقيّةٍ إلينا نحن الجنود، وقد هزَّ مشاعر الشعب النابوليّ وأثار حماسهم: غاريبالدي سيدخل المدينة في يوم 7، سيصل إليها بالطريق الحديديّة

من سالرنو على متن قطار منتصف النهار. سيكون الإعلان رسميّاً إذن: سنكون أحراراً من العبوديّة.

ماريّا، لا تُضيِّعي الوقت. أُرفق لكِ مع هذه الكلمات نقوداً لتذكرة المركبة. اقفزي على مركبة الغد بلا تردُّد. لقد حانت اللحظة الحاسمة! سترين نابولي، سترين غاريبالدي، وسترينني. سأنتظركِ مساء اليوم 6 في المحطَّة. سأعرفكِ على الفور لأنّكِ ستكونين أجمل الجميلات؛ وستعرفينني من القميص الأحمر والبندقيّة الكبيرة ذات السبطانَتَيْن. أعتقد أنّني خلال أسابيع الحرب تغيَّرتُ كثيراً حتَّى إنّي لم أعرف نفسي. أرى الجوع في خدود رفاقي، وأشعر به في خَدَّيَّ. لكنّنا سنكون سعداء. نابولي لنا! لي ولكِ.

مع حبِّي
عزيزكِ

بييترو

ملاحظة: لا تشغلي بالاً، فلقد نسَّقتُ مبيتنا في بيت أحد رفاق السلاح أيَّامَ الخدمة العسكريّة.

25

صَعِدْتُ المركبة العموميّة في الصباح الباكر، وبعد ثلاث ساعات، وصلتُ إلى كوزينتزا. كانت المدينة كأنّها في احتفال، محرَّرةً ومبتهجة، ينبعث منها عنفوانٌ هائل.

أمَّا المركبة المتَّجهة نحو نابولي، فلم تكن تنطلق إلَّا في الثانية عشرة: كانت عربةً تغصُّ بالشبَّان الذاهبين مثلي لمشاهدة دخول غاريبالدي العاصمة بأُمِّ أعينهم، «ليكونوا حاضرين بينما يُسطِّرُ التاريخ». لكنّ الرحلة حتَّى ناحية باولا كانت عذاباً، وذلك لانعدام الطُّرُقات والجسور. توجَّبَ على المركبة التي تجرُّها أربعة خيول أن تسير على دروب صدَّعتْها حوافر الحمير، وعلى حوافِّ أنهارٍ بلا حواجز أحياناً. توقَّفنا مرَّتَيْن بجانب أكواخٍ رديئة قائمة على أوتاد خشبيّة، وقد تقيَّأتُ روحي مثل آخرين، وتعرَّضتُ لنوبات الغثيان والارتجاج. كانت رحلةً مريعة. صفَّرَ الحوذي، فلبَّاه عابران بثيابهما الممزَّقة، وحصلوا على قروشٍ قليلة، فنقلوا العربة بخيولها أوَّلاً، ثمَّ المسافرين واحداً واحداً، بمَنْ فيهم الحوذي، على أكتافهم، إلى الضفَّة الأخرى. وبعد ذلك مضينا بسهولةٍ كبرى، وسلكنا الطريق الرسميّة عند سابري، وهي الطريق العسكريّة التي تتسلَّق هضاب شيلنتو. كنَّا نتوقَّف للغداء وللعشاء لنأكل أطعمة مجففة لتهيئة المعدة، فيما شرب بعض الرجال الميسورين من النبيذ قليلاً. وبعد ثلاثة أيَّام وصلنا إلى نابولي.

كان بييترو بانتظاري في محطَّة المركبة. تعانقنا، أجل لقد تغيَّر، أجل

كان نحيلاً للغاية، لكنّه كان سعيداً برؤيتي، وقد تحوَّلَ خلال العمليّة التي كرَّسَ نفسه لها، فأصرَّ أن يأخذني بجولة في المدينة، على الرغم من تأخُّر الوقت. لكنّي كنتُ مُنهَكَة من الرحلة، فذهبنا مباشرة إلى بيت رفيق سلاحه السابق. وكانت زوجته امرأة بدينة وفي منتهى اللطف والترحيب؛ انتظرتْنا مع زوجها، ولم تنم، بل كانت بهندامٍ أنيق، وشَعْرٍ مُسرَّح. وكان البيت منيراً بنجفَتَيْن جداريَّتَيْن، ورحنا نتحادث بصوتٍ خفيض في الممرِّ، لئلَّا نُوقِظ الأولاد. وعندما بتْنا بمفردنا، لم يعطني بييترو الوقت حتَّى لنزع ملابسي.

وفي الصباح التالي خرجنا في ساعةٍ مبكِّرة: ساحة بليبيشتو، كيايا، والبحر. كانت هي المرَّة الأولى التي أراه، أغمض بييترو عينَيَّ عند منعطفٍ، ثمَّ كشف عنهما، فانقطعت أنفاسي لدى رؤية تلك الوساعة الفضّيّة، كأنّ البحر ميدانٌ مجهولٌ بيني وبين العالم، كان بمثابة دعوة، ووعد، وخطورة. وسرعان ما فكَّرتُ أنّه النقيض للجبال، فتلك راسخة، عملاقة وآمنة. غير أنّ المدينة كانت مزدحمة بالناس المستعدِّين للاحتفال، يتبادلون التحيّة بإيماءاتٍ بالرأس واضحة وابتسامات عريضة، مثلما حين يكون المستقبل على بُعد خطوة، ولا ينبغي إلَّا المبادرة إليه. عُلِّقَت على المباني بيارق وأعلام عليها صليب آل سافويا؛ وفي كلِّ زاوية، وسارية، وحائط، بل وحتَّى في الأرض على امتداد الأرصفة أُلصِقَ بيان غاريبالدي:

> *يا أبناء الشعب، كلِّي إجلالٌ ومحبّةٌ وأنا أتقدَّم إلى هذا المركز النبيل والأغرِّ والآهل بالسكَّان الإيطاليِّيْن، والذي عجزت عقود الاستبداد عن إذلاله، فلم ينحنِ ولم يجثم صاغراً في حضرة الطغيان.*

إنّ الوفاق هو أمَسُّ ما تحتاج إليه إيطاليا، لتوحيد الأسرة الإيطاليّة العريقة؛ واليوم سهَّلت العنايةُ الإلهيّةُ الوفاقَ، حيث أجمعتِ المقاطعات كلُّها بشموخٍ على إعادة بناء الوطن: ولقد أكرمتْ بلدَنا بمنحنا ڤيتوريو إيمانويلي من أجل الوحدة، فلا يسعنا، اعتباراً من هذه اللحظة، إلّا أن نُسمِّيَهُ الأب الحقيقيّ للوطن الإيطاليّ.

أُكرِّر، الوفاق هو أولى ضرورات إيطاليا. وعليه، فإنّ الخصوم السابقين، الذين يريدون الآن بكلِّ صِدْقٍ أن يحملوا حجارتهم لبناء الصرح الوطنيّ، سوف نحتضنهم إخوةً لنا.

وفي النهاية، فإنّنا إذ نحترم ديار الآخرين، نريد أن نكون أسياداً في ديارنا، شاء عتاة الأرض أم أبوا!

جوزيبّي غاريبالدي

كان الجنرال سيصل في الظهيرة بالقطار من سالرنو، رُفْقَة العمدة وقائد الحرس الوطنيّ ووزير داخليّة روما. وهكذا مشينا أنا وبييترو نحو شارع طليطلة، ضمن سيل الناس، في الساعة الثانية عشرة. كان التيَّار البشريّ سريعاً، ومهيمناً ورائعاً. وكلَّما تنبَّهَ أحدهم في الجمهرة أنّ بييترو واحدٌ من الغاريبالديِّيْن أفسَحَ له المجال أو هُرِع نحوه وصرخ ليشير إليه على المارَّة، وعانقه واحتكَّ به وشدَّه من جُبَّته. وكان بييترو يبتسم للجميع ويحمِّلني البندقيّة، الثقيلة جدَّاً حتَّى إنيّ اضطررتُ إلى إسناد مقبضها على الأرض، ويسمح لهم بفعل ما يريدون، سعيداً مثلما لم أره من قبل: يضحك على كلِّ ملامسةٍ بالكتف، وكلِّ نكتة، وكلِّ سؤال، وكلِّ قبلة.

«إنّها زوجتي» يقول «تلك المرأة التي تحمل السلاح»، فيلتفت الجميع نحوي، ويُقبِّلونني أيضاً، ويُهنِّئونني ويصافحونني. «تبدو وديعة، لكنّها شرسة» يقول بييترو ضاحكاً.

وفي لحظةٍ معيَّنة، أطلقت البواخر خمساً وعشرين ضربة مدفع: إشارةً لوصول غاريبالدي على طريق بيلييرو، على متن عربةٍ بدت صغيرة وسط ذلك الحشد من الناس. كان الأشخاص في كلِّ مكان؛ فلّاحون قدموا من الأرياف، منهم مَنْ يحمل بنادق الخردق القديمة ومَنْ جاء بمنجله، ومَنْ بمذراته، ومَنْ بأيدٍ عارية، ومَنْ بقدورٍ ومغارف لإحداث الضجيج، يصيحون جميعاً: «يحيا غاريبالدي!»، «تحيا إيطاليا الواحدة!»، «يحيا ڤيتّوريو إيمانويلي!». الجميع بلا استثناء يرتدي ثياباً حمراء، حتَّى لو اقتصر ذلك على منديلٍ يلفُّ العنق، وكانوا متكدِّسين في الشرفات، وعند أبواب المقاهي، وعلى أسطح العربات والبيوت، والفتية يتسلَّقون أعمدة الإنارة، والأصغر سنَّاً على سرج حصان أحد جنود الحرس الوطنيّ. وكلُّ واحدٍ يحاول الالتحام بصحبه، كي لا يضيعَ ويُضيِّعَ أثرهم وسط الزحام.

وإذ ذاك أطلَّ الجنرال من شرفة القصر الذي كنَّا نتوجَّه بأبصارنا إليه جميعاً، وفي البدء كان هناك ضجَّةٌ مدوِّية ومجلجلة وخياليّة، كما لو أنّ باخرةً تنفجر، حتَّى إذا رفع الجنرال ذراعه ساد الصمت.

وفي تلك اللحظة ابتسم كما لو أنّ تلك الابتسامة لأيِّ أحد وله وحدَه، نفخ صدره واستهلَّ قائلاً بصوتٍ جبَّار: «لطالما وثقتُ بمشاعر الشعوب. وعندما كانت مجازفتي تُتَّهمُ بالتهوُّر، فإنَّ قائل تلك الكلمات لم يكن يدرك معنى التضافر الذي يحظى بالإجماع، والوفاق، وعفويّة المواطنين

كلّهم: التضافر المنتصر والغالب في أعتى المجازفات وأشجعها!». علا الهتاف مجدَّداً، مصحوباً بتصفيقٍ لا ينتهي.

عانقني بييترو ودموعه تنهمل على خَدَّيْه، ثمَّ ظهر في الحشد صبيٌّ لا يبدو أنّه تجاوز الخمسة عشر أو الستَّة عشر عاماً، وتبيَّنَ لي أنّهما صديقان وفيَّان.

«فسكوفو!» صاح بييترو ما إن رآه، بينما كان الدكتاتور يواصل خطابه.

كان الصبيُّ، ذو الثياب الرثَّة كبقيّة الغاريبالديِّيْن، يفسح لنفسه وسط الجمع، متأثِّراً هو الآخر، ويحمل بوقاً في يده.

رفع بوقه حين رآنا. «موناكو!» صرخ «يا له من احتفالٍ جليل! مَنْ كان يتوقَّع!» جاء نحونا، وتعانقنا كأنّنا نعرف بعضنا بعضاً منذ دهر. وحالما انتهت خطبة غاريبالدي قال بييترو: «اعزفْ لنا شيئاً مّا يا فسكوفو!»

وهكذا نفخ الصبيُّ روحه في البوق، والتفت إليه الجميع في محيط مئة متر. كان موهوباً بحقٍّ، فبينما عزف اختفى في آلته، لِما كان عليه من صِغَرٍ ونحف. وأصبح البوق مركز الساحة، يرفع ذلك النصر الجماعيّ إلى السماء. كان فسكوفو لقيطاً، احتضنه الغاريبالديّون في صِقِلِّيَة، وقد اكتشف في الموسيقى وسيلةً للعيش أكثر من إيطاليا. لكنّه قال لبييترو: «اكتشفتُها في إيطاليا أكثر من البوق. وربمّا سأعثر على عملٍ في نهاية المطاف، سأصبح عازفاً في فرقة».

كانت تلك الأنغام الحزينة تملأ الساحة، في حين انصرف الدكتاتور عن الشرفة، وكنتُ مثل الجميع أشعر بالانتماء إلى روحٍ أكبر منَّا تُوحِّدنا وتهزُّ عواطفنا، لم تكن تلك موسيقى عاديّة، إنمّا صرخة أُمَّةٍ وليدة –

شعرنا بذلك جميعاً. بفضل نفخ فسكوفو أحسستُ للمرَّة الأولى أنّني إيطاليّة. كنَّا معاً جميعاً، أسياداً ومزارعين وعسكريِّيْن وأشرافاً، يتراءى لنا الحُلْم ذاته. وفيما أنا أُفكِّر بهذه الأشياء كنتُ أنظر إلى ذلك الصبيّ الأمرد والأشعث، فأراه - ومَنْ يدري لماذا؟ - كالابن الذي لم نُرزَق به أنا وبييترو بعد.

في المساء، أُضيئت المدينة بالاحتفال.

حُمِلَ الرماة على الأكتاف احتفاءً بجهودهم، على امتداد شارع طليطلة، وأجرت أربع آلاف عربة مسيرةً استعراضيّةً، وأنارت بأضوائها الكاشفة، وكانت ممتلئة بالحسناوات اللواتي لففنَ أعناقهنَّ بالأعلام والشالات ثلاثيّة الألوان. لكنّ بييترو كان مُلزَماً بالإبحار، كبقيّة رفاقه؛ يتعيَّن عليهم الذهاب إلى كاپوا، لمتابعة المعركة وإلحاق الهزيمة النهائيّة بالجيش الملكيّ اللائذ بحصن غايتا.

وهكذا، اتَّجهنا إلى الميناء شيئاً فشيئاً.

هناك، كانت البواخر موصولةً باليابسة بوساطة معابر خشبيّة مترنِّحة. عرف أحد الزملاء بييترو من على إحدى البواخر.

«هيه!» صاح بلهجةٍ لم أسمع بها من قبل «جئتَ بحبيبتكَ!»

أمسك بييترو وجهي بيدَيْه عندئذ.

«سنلتقي قريباً، يا صغيرة» قال «حتَّى ذلك الحين، ستكون ماكيا محرَّرة، وسنحصل فيها على ما هو لنا. انتظريني، لأنّكِ سترينني ذات يومٍ قادماً مثل رجلٍ حرٍّ».

ثمَّ سار على المعبر، والبندقيّة على كتفه وتكاد تضاهيه طولاً.

توقَّفَ في المنتصف، استدار ورفع ذراعه.

ففعلتُ مثله.

كنتُ أعرف طريق العودة إلى بيت صديقه، وكنتُ في الصباح التالي سأستقلُّ المركبة نحو كوزينتزا.

26

سوپرا ڤالّي، 7 أكتوبر 1861

ماريَّتي،

إنّني حيٌّ. في سانتا ماريّا، في سانت أنجلو، في سان ليوتشو، وعلى الجبهات كلّها، انتصارٌ بعد معركةٍ دامت عشر ساعات. في الجهة اليسرى، ما بين مضائق كاستل مورّونه، أحكم الرائد برونزيتّي خِنَاقه على البوربون بنصف كتيبة، في حين كانوا يفوقونه عدداً بستَّة أضعاف. لقد مات، مع كثيرٍ من رجاله، لكنّ العدوَّ لم يمرّ. ليتني أشرح لكِ كيف ننعم بالراحة، نحن الذين نجونا. حتَّى الجنرال سيرتوري، القائد الأعلى لقوَّاتنا، يستريح قليلاً. أتعلمين يا ماريّا كم أُجِلُّ هذا الجنرال؟ كأنّني أرى فيه أباً لم يكن لديَّ في حياتي. ويبدو لي أنّه من ناحيته يعاملني كما لو كنتُ ابناً له. تعلمين أنّه لو أمرني لانطلقتُ كالرمح الثاقب ووصلتُ حتَّى آخِر الدُّنيا.

ولكنْ، أين تذهب أرواح قتلانا، يا ماريّا؟ ما فتئتُ أطرح هذا التساؤل على نفسي. صحيحٌ أنّ الموت في ساح القتال لا يبدو أنّه موت. مجرَّد شيء بين أشياء لا تُحصى. هناك قتلى من جيش البوربون يرقدون في بِزّاتهم الرماديّة، وما تزال أمارات الضراوة ماثلةً على وجوههم الصامتة. رجالٌ بُدُنٌ ومربوعون، بتلك البدلات الأنيقة. ومَنْ لمس

أزقاقهم قال إنّها ما زالت شبه ممتلئة بمشروبٍ روحيّ. لا بدّ أنّهم أكلوا وشربوا جيِّداً، قبل المجيء إلى المعركة ضدَّ رفاقنا الصائمين. حفر أحد البوربون في قمَّة جبل مونتي كارلو خندقاً صغيراً، وسوَّرَهُ بجدارٍ من أحجارٍ جافَّة، من الوارد أنّه صنيع أحد صغار الرعاة. تمركز فيه، ولم يكن من السهل تحييده، حتَّى إنّه ظلَّ هناك بمفرده عندما فرَّ رفاقه. اضطُررنا إلى قتله كما لو كان وحشاً كاسراً، لأنّه لم يكفّ عن قنصنا. وها هو الآن راقدٌ بطمأنينةٍ كمَنْ أنجز واجبه، على جانب القلب ويبدو أنّه نائم. اصطفَّ طابورٌ طويلٌ لرؤيته، لكنّ الجميع نظر إليه باحترام. ما أسعد أن ينتهي المرء هكذا، على أن يموت من الشيخوخة في فراش! أليس هذا ما كنَّا نقوله أنا وأنتِ؟

عزيزكِ إلى الأبد،

بييترو

بيد أنّ بييترو، في أثناء خوض القتال، لم يكن يعلم أنّ الأشياء في البلدات التي خرج منها لم تكن على ما يرام مثلما كان يعتقد، وأنّ العالم لم يكن ينقاد بسهولةٍ إلى الطريق التي بدت أنّها مُعَدَّةٌ مُسبَّقاً، وأنّ معاركنا نحن الوعول سرعان ما محت آثارها قوى البوم المضادَّة. لم يتغيَّر لدينا أيُّ شيء – لا شيء على الإطلاق – وفي الحقيقة لم يتغيَّر شيءٌ في أيِّ مكان. تقسيم الأراضي العادل لم يدخل حيِّز التنفيذ. إلغاء الضرائب لم يُفعَّل. الاستخدام المدنيّ للأراضي لم يتحقَّق. بقي كلُّ شيء على حاله قبل وصول المحرِّر، كأنّ شيئاً لم يقع، كأنّه كان مجرَّد إيهامٍ رائعٍ لم يدم أطول من مدَّة حفلة.

لم يتحرَّك سوى الأسياد، الذين عادوا لتقاسم الأعمال والمحسوبيّات والملكيّات ما بينهم. ومع موجة عودة «المرصودين» عادت أسرة غولّو أيضاً، باعتبارهم بوماً لبراليِّيْن ومحرِّرين، وبعودتهم استعدتُ عملي نسَّاجةً على الأقلّ.

إلَّا أنّ شيئاً مّا قد بدأ يتحرّك بشكلٍ لا يُصدَّق، من جهة الأرض تماماً، ومن دون تحريضٍ خارجيّ هذه المرَّة. ففي كثيرٍ من البلدات، على امتداد الجنوب، نظَّمَ الفلاَّحون أنفسهم، وحملوا المناجل والمحارث والمَذَار. كانوا يريدون معرفة السبب الذي حال دون صون العهود التي أطلقها غاريبالدي من شرفة قصر موريلّي. وهذا ما وقع في كازالدوني، بجوار بينيڤينتو، وفي بونتلاندولفو، حيث ترعرعت أختي عند الكونت تومّازو موريلّي وزوجته روزانّا. تمرَّدَ المزارعون على جنود جيش ساڤويا، الذين احتلُّوا الجنوب بصفتهم محرِّرين، في حين كانوا يحرسون ممتلكات الأسياد في وجه غضب الشعب. هجمت جموع الفلاَّحين، بأيدٍ عارية، يصرخون إلى السماء، ويحملون المنجل بيد والمسبحة بيدٍ أخرى. تحمَّستُ كثيراً عندما وردني النبأ، الذي كان ينتقل من قرية إلى أخرى، وسرعان ما وصل من تيرّا دي لاڤورو إلى قطّاع كالابريا الأدنى. كنتُ أتصوَّر أولئك الفلاَّحين أبطالاً. أبطالاً حقيقيِّيْن. لكنّ الجنود، على النقيض منهم، كانوا مُسلَّحين بالبنادق، وأخذوا يطلقون النار. وبعد إطلاق النار بدؤوا بالقتل. والقتل، والقتل.

فانفجر الغضب حينذاك. استمرَّت الاشتباكات العنيفة طيلة أيَّامٍ بلياليها، وإذ وقع الفلاَّحون فريسةً لشراسةٍ متجذِّرةٍ وعمياء، فذبحوا أربعين جنديَّاً. وبعد ثلاثة أيَّام – المدَّة التي استغرقتْها الموجة للتعبئة، كتلك الأمواج الكبيرة التي رأيتُها في مرفأ نابولي – جاء القِصاص: عاد

الجيش الملكيّ، بقيادة الجنرال تشالديني آنذاك، إلى كازالدوني وبونتلاندولفو، مع ثلاثة آلاف رجل، ودمَّروا البيوت والعُزَب والكنائس والأنزال والأسواق.

كان الجنود، ببِزّاتهم الأنيقة سماويّة اللون، يدخلون كلَّ مكانٍ مقدَّسٍ أو دنيويّ، بخلع الأبواب، والكوى، والنوافذ، ويسرقون كلَّ ما تقع أيديهم عليه: التماثيل الخشبيّة والمذابح الرخاميّة العائدة إلى القرن الثامن عشر، ولوحات لوكا جوردانو، والشمعدانات الذهبيّة، والثريّات النحاسيّة، ومنحوتات المَرمَر المنقوش عليها شعار بونتلاندولفو، ونذور الكنيسة الكبرى في سان سالفاتوري. وفي النهاية، جمع تشالديني ألف مزارعٍ اختارهم عشوائيّاً من بين المظلومين الذين توسَّلوا الرحمة، انتزعهم من بيوتهم، من أحضان أُمَّهاتهم وزوجاتهم، وأعدمهم بالرصاص في الساحة الكبرى، على مَرأى أهل القرية. وتساقطت الأجساد المتورِّمة كالسنابل المحصودة. وبعدئذ، وبلا اكتراثٍ بالأطفال الذين يهربون من كلِّ جانب، والشيوخ العالقين في البيوت، والنساء اللواتي يحملنَ الرُّضَّع، أضرموا النيران في كلِّ شيء، وأبادوا بلدَتَيْن عن بكرة أبيهما، لطمس الأدلَّة على القِصاص. هذا هو منهج جيش ساڤويا: محو ذاكرة الثورة. بحيث لا يتسنَّى لأيِّ أحدٍ، أبداً، أن يتَّخذها أنموذجاً. ذنب هذه الناس أنّهم سألوا عن سبب البشارة التي أرسلت خمسين ألف شابّ للفناء، وسلَّمت الجنوب لآل ساڤويا. لكنّ تلك لم تكن سوى البداية، بل كانت الأحداث تتحضَّر في تلك الأسابيع: فتح البوم أعينه في الليل توّاً.

أعاد جوفانيّ، ابن الدون طونيو صاحب الدكّانة، نقيشة النَّذر إلى بيتنا.

عثر عليها في بينيڤنتو، بين ركام الخردة في بازار ثُكْنَة يسوع، حيث

انتهت الأغراض المنهوبة من الكنيسة الكبرى في بونتلاندولفو. وما لبث أن عرفها، بفضل أيقونة الراهبة مارينا عذراء بيثينة، باعتبارها الأيقونة المطابقة للتي رآها في صغره في بيتنا. وهكذا فتحها، فوجد في داخلها الرسائل التي كتبها والدي بخطِّه القَلِق، على مدى الأعوام، مع أُمِّي لابنتهما التي اضطرَّا إلى منحها للتبنِّي.

طلبت منِّي ڤنشنزا المجيء إلى البيت، وأرتْني الرسائل وهي ترتجف بعض الشيء. كانت والدتي على أريكتها كالعادة، وبينما كنتُ أُمرِّرها إليها واحدةً تلو أخرى كانت تنظر إليَّ وإلى الدمية المعلَّقة على المدفأة.

ما انفكَّت هي ووالدي، طيلة المدَّة التي أمضتْها تيريزا عند عائلة الكونت موريلّي، يكتبان إليها رسائل مشبعة بالودِّ، ولم تجبْ عليها يوماً. وبدءاً بفترة معيَّنة، بعد أن ولدتُ وكانت شقيقتي في سنِّ الثانية عشرة، صارت الرسائل كلّها تحوي رجاءً بقبولي معها أنا الأخرى، الابنة الصغيرة التي يرغب الكونت في أخذها إليهم. لكنّ تيريزا لم تشأ قطُّ.

"بإمكانكم البقاء معاً، وستحصل أختكِ ماريّا على لحياة الهانئة الي لديكِ. بإمكانها تدرس، وتحصل عى مستقبل لا يمكنا أعطاؤه لها هنا" - تلك كلمات أبي، بخطِّه المرتعش. - "*وستكونان اثنتين، أنيستين*". كان والدي يكمن في تلك الأوراق حقّاً، كما لو أنّه لم يرحل، كنتُ أرى عينَيْه، ومن خلال أخطائه الإملائيّة أسمع صوته. لم أكن لأتصوَّر أبداً أنّه فعل شيئاً من هذا النوع، هو الذي كان ممتلئاً بالعمل والواقعيّة. إلَّا أنّ الآباء يُخفون عن أبنائهم كثيراً من الأشياء. كنتُ أراهما في تلك اللحظة، مُنحنيَيْن على الأوراق، أُمِّي تملي وأبي يكتب. نظرتُ إلى أُمِّي، كانت تبتسم. ثمَّ قرَّر الكونت موريلّي أن يتبنَّاني بالأحوال كلّها، فكفَّت تيريزا عن الطعام، والنوم، وحتَّى عن الكلام. كانت تخبط الأرض بقَدَمها،

وتتصرَّف كالمجنونة، ترمي في الهواء أيَّ شيء يقع في طريقها. أمسكت بالدمية الخزفيّة التي اشتراها لي الكونت وزوجته وحاولت أن تحطِّمها. وها هي هناك، معلَّقةً على المدفأة، بحدقةٍ مقلوعة، بلا ذراع وبلا أنف.

وفي المرَّة الوحيدة التي ذهب أبواي للقائها، أعادت لهما تيريزا تلك الرسائل، كلَّها. فما كان من أبي وأُمِّي قبل الرجوع إلَّا أن توقَّفا في كنيسة سان سالفاتوري في بونتلاندولفو، الذي قيل عنه إنّه يصنع المعجزات، فصلَّيا له لعلَّ تيريزا تُغيِّر فكرتها، وأودعا عنده نقيشة النَّذْر للراهبة مارينا عذراء بيثينة مع تلك الرسائل كلّها التي كتباها. وفي النهاية حقَّقت الراهبةُ النعمةَ بالفعل، حتَّى لو أنّ الكونت وزوجته ذهبا إلى نابولي ليلقيا مصرعهما فيها، ولم يتسنَّ لهما أن يتبنَّياني. وآنذاك عادت أيقونتا الراهبة المطابقتان إلى رفِّ الخوان، مثلما كانتا عليه قبل أن أُولَد.

تيانو، 27 أكتوبر 1860

ماريّتي،

لقد شهدنا في الأمس على هذه اللحظة التاريخيّة: الجنرال سلَّمَ إيطاليا بيد ڤيتّوريو إيمانويلي. مساء أمس، ما برحنا نتحادث ما بيننا، وقد وهنت قوانا، كيف يبدو لنا أنّنا نعيش قبل ستُّمئة عام، عندما جاء كارلو دانجو من روما إلى هنا مباركاً من قِبَلِ البابا الذي باعه تاج مانفريدي، تاج أراضينا الجنوبيّة؟

ما زال مشهد اليوم حاضراً أمام عينَيَّ. منزلٌ أبيض عند مفترق طُرُق، رجالٌ خيَّالةٌ بجُبَّةٍ حمراء وآخرون بجُبَّةٍ سوداء، الجنرال مترجِّلاً تحت أشجار الحور التي بدأت تفقد أوراقها. وفجأةً، تُقرَع الطبول، الفرقة

الملكيّة البيمونتيّة، والجميع على صهوات خيولهم. ثمَّ خَبَب خيول مرَّةً أخرى، وبعض الأوامر، والجميع يهتفون: «يحيا! يحيا الملك!». استطعتُ من موقعي أن أرى غاريبالدي وڤيتّوريو يتصافحان، وسمعتُ التحيّة الخالدة: «تحيّة إلى ملك إيطاليا!»

كنّا في منتصف النهار، يا ماريّا. وقد صنعنا إيطاليا. كان الجنرال يتحدَّث مرفوع الهامة، والملك يداعب عنق زريابه. من المؤكَّد أنّ هواجس مزعجة جالت في ذهن الجنرال، لاحظتُ ذلك مثلما لاحظه الجميع. ومن المزعج أيضاً أنّه تموضع في ميسرة الملك عندما انصرف الأخير بعيداً. حتّى جنرالي الطيِّب سيرتوري، الذي أودُّه كثيراً، كان مطأطئ الرأس. في هذا الصباح لم يذهب غاريبالدي لتناول الفطور مع الملك. قال إنّه فطر مُسبَّقاً، لكنّه أكل فيما بعد خبزاً وجبناً في رواق كنيسة صغيرة، محادثاً أصدقاءه ومحاطاً بهم، مذعناً. ولِمَ الإذعان؟ يتبادر إلى ذهني أنّ ما حدث لا يُبشِّر بالخير، وأنّنا قاتلنا في هذه الحرب من أجل غاياتٍ أخرى. إلَّا أنّها مجرَّد حوارات نُجريها ما بيننا، في المساء، عندما يغلبنا التعب، لأنّ لا أحد يقدر على التحديق إلى شمسٍ وليدة. ما عداكِ، يا صغيرتي المحاربة ماريّا. في كلِّ ليلةٍ أحلم أنّني أُعانقكِ. انقلي قبلاتي لأُمِّي، وقولي لها إنّنا انتصرنا. إنّ ابنها انتصر!

عزيزكِ،

بييترو

***

نابولي، 2 نوفمبر 1860

ماريّا، غاليتي،

اليومَ عيَّنني الجنرال سيرتوري شخصيّاً، مع كامل الشرف، برتبة ملازم بفضل استحقاقات الحرب. لن أكون أسعد من ذلك، أعود إلى البيت حيَّاً، بوسام الشجاعة، وقد بُنِيَتْ إيطاليا.

وفي هذا اليوم نفسه، دوَّى المدفع في البعيد. كانوا يقصفون كاپوا، ونحن لم نعد هناك. ليس أمام رجال مدفعيّة ڤيتّوريو إيمانويلي الكثير ليفعلوه، فحامية شيشيلّو لا تنتظر إلَّا سبباً معقولاً للاستسلام. لكنّ الكولونيل غريتزيوتّي قالها للجنرال منذ يومَيْن: «سيصل البيمونتيّون وسيلقون قنبلَتَيْن، وتستسلم المدينة. ثمَّ سيقولون إنّ كلَّ ما فعلناه نحن لولاهم لما ساوى شيئاً». وهل تعلمين بما أجاب غاريبالدي؟ لقد سمعتُهُ بأُذُنَيَّ هاتَيْن. «فليقولوا ما أرادوا. فنحن لم نأتِ من أجل المجد». وأنا يا ماريّتي، لا أريد من المجد جراماً واحداً. أمَّا من العدالة، فأريد أطناناً، لأنّنا نحتاج إلى ترميم عصورٍ من الظلم. وأنا وأنتِ لا ينبغي أن نعيش كالأسياد، ولا حتَّى كالعبيد، فكالعبيد عشنا بما فيه الكفاية.

سأنصرف، فالقنديل ينطفئ، والقمر اليوم ليس أكبر من ظفر. انظري إليه أنتِ كذلك، وفكِّري فيَّ.

عزيزكِ

بييترو

27

وُلِدَت إيطاليا في السابع عشر من مارس عام 1861، وسرعان ما أدرك الجميع أنّ ما بدت لهم ثورة لم تكن سوى تمثيليّة.

كنتُ أعلم أنّ بييترو حينما سيعود كان سيجد الأوضاع في تلك الفترة مثلما لم أمتلك الشجاعة اللازمة لإخباره بها في رسائلي. فالحقيقة أنّ كلَّ شيء صار أسوأ ممَّا مضى، وكانت المُدُن والقرى تغرق في دمارٍ أعمى وبطيء، والشقاء يعمُّ الأماكن كلَّها، فيما نحن نزداد عبوديّةً.

أصبح دوناتو موريلّي سيِّداً لا على منطقة سيلا فحسب، إنمّا على كالابريا بأكملها، قطّاعها الأدنى والأقصى على حَدٍّ سواء: ظلَّ مقنَّعاً يتحيَّن اللحظة المواتية، وحالما سنحت الفرصة كشف عن وجهه، وجرَّ وراءه حلفاءه القدامى. وهكذا عادت العوائل التقليديّة إلى الإمساك بزمام الحُكْم: آل مانكوزو، آل غولّو، آل فالكونه، آل باريزيو، آل ماتسيي. لا شيء تغيَّر: الطريقة المُثلى لإفشال أيِّ ثورة هي المشاركة بها. غدوا آنذاك وحدهم المتحكِّمين بالتجارة مع شَمَال إيطاليا. لأنّ عوائل «القبَّعات» الذين ظلُّوا على ولائهم للبوربون، أو الذين لم يشاؤوا التبدُّل إلى بومٍ في الوقت المناسب، كانوا على شفير الإفلاس بالفعل. فعلى سبيل المثال، صهري سالڤاتوري مانكوزو لم يعد يبيع فحمه في نابولي، إنمّا في تورينو: بات المورِّد الوحيد الذي يعتمد عليه البيمونتيّون في

الطلبيّات التي تضاعفت ثلاث مرَّات. وكذلك فعل آل غولّو بأنسجتهم، وآل ماتسيي بدود قَزِّهم، وآل موريلّي بأخشابهم وقمحهم وفولاذهم ومنتجاتهم المعدنيّة. كانوا جميعاً يزدادون ثراءً.

شرع سالڤاتوري برحلات طويلة إلى ما كان اسمها في الماضي مملكة سردينيا، وغالباً ما اصطحب معه تيريزا. كانا يعودان مهندمين بآخِر ما وصلت إليه صيحات الموضة في الشَّمَال، وفي كلِّ مرَّة شيطنة جديدة، يختالون بها على مَرأى الجميع بلامبالاة مفتعلة: صور مطبوعة لقِمَم الألب أو القصر الملكيّ في تورينو؛ آلة لغلي القهوة «بأوراق الترشيح»؛ تلسكوب يُمكِّن من إحصاء الحفر التي على سطح القمر؛ نظّارة، أو (*lunettes*) كما يسمُّونها هم بالفرنسيّة؛ ولعبة عائليّة تتكوَّن من تسعين رَقْماً وألواحٍ من خمس عشرة خانة: التومبولا. كان الناس يتحدَّثون عن تلك الأغراض بإعجابٍ وحسد، أمَّا أنا، فلم تُثِرْ فيَّ أيَّ شعور، لا بارداً ولا ساخناً، إنّما بدت لي محض تفاهات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذات يوم التقيتُ بالمعلِّمة دوناتي أيضاً.

تقاطعت نظراتنا بينما كان كلٌّ منَّا يمشي على الجانب المقابل من الشارع. وقد عرفتُها فوراً في تلك المرَّة، كانت قد تعافت، بل بدت أنّها لم تكن في حال أفضل ممَّا كانت عليه، وهكذا رفعتُ ذراعي للتحيّة. رأتْني هي الأخرى، لكنّها أشاحت أنظارها قبل أن أتمكَّن من عبور الشارع. طأطأت رأسها، وتشبَّثت بذراع زوجها، ونأت بنفسها. وما برحتُ أفكِّر في ذلك المشهد لأيَّام. كانت المعلِّمة بالنسبة إليّ أمّاً ثانية، لذا جرحني سلوكها. وهكذا رحتُ أتحرَّى في الأنحاء إلى أن أدركتُ السبب: فبعد أن وُلِدت إيطاليا، بدأت عائلة دوناتي، كسائر

البوم الآخرين، تتغذَّى على جرذان الزباب والخلدان والسناجب والنموس والهداهد التي كنَّا على شاكلتها. فلقد عُرِضت عليها وزوجِها إمكانيّةُ التجارة بالفولاذ بالتشارك مع آل موريلّي، وسرعان ما وافقا. عدتُ أُفكِّر بخطاباتها، وكلماتها المهموسة، والأوقات التي أمضيتُها معها في البيت، والسفر إلى كاتانزارو، وصرتُ أشعر بالكراهية تجاه نفسي، لأنّني وثقتُ بها، وصدَّقتُ طيلة تلك السنوات أنّني لن أنجو إلَّا بتعاليمها. فأين انتهى المطاف بـ «ياكوبو أورتس»، وما مآل ماتزيني و«أدلكيس»، وما الذي حَلَّ بمُثُلِ المساواة والعدالة؟ لا بدَّ أنّها كانت، كالأشياء الأخرى، مجرَّد خدعة واهية، وكلمات جميلة فارغة. بيد أنّ الإقرار الأصعب هو: إذا تحوَّلت حتَّى المعلِّمة دوناتي إلى بومة، بعد أن زُجَّت في السجن بتهمة التحريض، فهذا يعني أنّه لم يبقَ أحدٌ نُعوِّل عليه لإنقاذنا حقّاً. نحن الإيطاليّون الحقيقيّون إذاً، أقول في نفسي. نحن - شبَّانٌ مثل بييترو خاضوا الوغى طواعيةً في سبيل أن تُولَد إيطاليا بالفعل - لا هم.

عندما عاد بييترو من الجبهة، جريح الكتف، لم يعامله أحد باعتباره محرِّراً أو بطلاً، مع أنّه عاد ظافراً وبوسام شرف معلَّق على ما تبقَّى من قميصه الأحمر.

بات محبطاً.

وكانت ماكيا، كالبلدات المحيطة بها، غارقةً تحت أعين الجميع في خرابٍ صامت، ويصير محسوساً مع مرور الوقت: براز، قيء، قمامة تملأ أطرافَ الطُّرُقات وداخل البيوت التي لم يعد يهتمّ بأمرها أحد. فإذا كانت المملكة البائدة لا تفكِّر بنا البتَّة، فإنّ إيطاليا الوليدة ترفضنا. ومَنْ كان يلتقي بييترو في الشارع، كان يبتسم له ابتسامةً ظرفيّة، وحالما يتجاوزه يهزُّ

رأسه أسفاً، بخلاف ما كان يحدث كلَّما عاد في إجازة. فهو ومَن مثله كانوا المسؤولين على تعاسة أهل الجنوب المتجدِّدة، هم أولئك الخمسين ألفاً الذين سلَّموا المملكة بأيدي ساڤويا، وكالابريا بأيدي آل موريلّي.

مرَّت الأيَّام وما تقبَّلَ بييترو الوضع، ولا ورفاقه الآخرون العائدون أحياء من الحرب. ازداد فقراً أيضاً. فالمتطوِّعون، عوضاً عن كسب المال، كانوا يُنفقونه، لشراء الجزمات والبنطلونات، وبندقيّة من راعٍ أو فلَّاح، والتوابيت التي يدفنهم بها رفاقهم.

ولكنْ، بعد مضيِّ أسابيع ضاق بييترو ذرعاً من بقائه على تلك الحال، شابكاً يداً في يد، مع أنّه رغب في أيِّ شيء عدا العودة إلى العمل عند سالڤاتوري. «بوسعنا أن نصمد بعض الوقت بما أتقاضاه من عملي عند غولّو» كنتُ أقول له، لكنّه لم يشأ أن يُصغي إليَّ حتَّى. كان يبحث في الدكاكين، والعُزَب، ولا يتلقَّى إلَّا صَفْق الأبواب في وجهه.

وهكذا اضطرَّ إلى الذهاب إلى بيت سالڤاتوري، مصحوباً بي، وكَتِفه مضمَّدة، والسدارة في يدَيْه، للمرَّة الثانية.

تركنا الخادم الذي جاء ليفتح لنا ننتظر على الأعتاب مدَّةً لا تنتهي، أمَّا سالڤاتوري، فتقصَّدَ ألَّا يُدخِلنا وتدنَّى للوقوف عند الباب.

رمى بييترو بنظرةٍ متكبِّرة، وسأله ما الذي أتى به، من دون حتَّى أن يحيِّيه.

«عليَّ أن أعمل» أجاب بييترو، وهو يُلوِّح بالسدارة.

«وماذا تريد منِّي؟»

ما عادا صديقَيْن، ما عادا شيئاً. بالنسبة إلى سالڤاتوري، كان بييترو مهزوماً، حتَّى لو عاد ظافراً ومتقلِّداً وسام الشجاعة: هزمتْهُ الوقائع، ولعلَّه يجد العزاء في ذلك الوسام. أمَّا سالڤاتوري، فكان منتصراً من دون أن يُحرِّك عضلة واحدة، وبات يشعر أنّه مواطنٌ إيطاليٌّ عظيم. في حين أنّ بييترو قد انهزم، رغم قتاله، وكان يشعر أنّ إيطاليا تنبذه.

بينما كاد سالڤاتوري يعود إلى الداخل، دسَّ بييترو ساقه في الباب كي لا ينغلق. إنّ الاحتقار الذي نظر به سالڤاتوري إلى الضمادة المتبدِّية من تحت قميص بييترو المفتوح والبالي، كان احتقار الوقائع إزاء المُثُل العليا، إزاء الكلمات، هو احتقار المعطوبين للمعطوبين. ظهرت تيريزا من خلف زوجها، ترمقنا بعينَيْن لامعَتَيْن، حَيَّتَيْن. ففكَّرتُ أنّنا سنخسر دائماً. سنخسر. دائماً. إلَّا أنّ سالڤاتوري منح العمل لبييترو في النهاية، حتَّى لو كان الأجر أقلَّ من المرَّة الماضية.

«لقد خسرتُ أموالاً كثيرةً لكي تتجنَّد عوضاً عنِّي، ثمَّ انشققتَ للانضمام إلى غاريبالدي» قال «اِرْضَ بما أجود به عليكَ إذاً!»

وهكذا عاد بييترو، بكَتِفٍ ما تزال جريحة، إلى الشيء الوحيد الذي يجيد فعله: عاد إلى الغاب للعمل فحَّاماً.

وبعد شهرَيْن، جاء ساعي البريد في صباح يومٍ مّا. وعندما يأتي ساعي البريد، فالأنباء ليست سارَّة أبداً.

وبالفعل، أبدى استياءه وهو يحمل للمرَّة الرابعة مظروفاً أصفر، وعليه ختمُ مكتب الحرب إيَّاه، وشعار مملكة إيطاليا.

كان بييترو عائداً للتوِّ من المناوبة الليليّة: كان يمضي في البيت أقلّ

وقت ممكن، يعمل بلا انقطاع، يحاول قَتْل نفسه بالعمل، ما دام لم ينجح بفعلها في الحرب. جلس إلى الطاولة، وفتح المظروف بالسكِّين التي لا تفارق جيبه.

ظلَّ يتمعّن في تلك الورقة المصفرَّة ويقلِّبها بين يدَيْه: بطاقة الاستدعاء للخدمة العسكريّة، كان ڤيتّوريو إيمانويلي يجنِّد الغاريبالديِّيْن العائدين إلى منازلهم أحياء.

استدعاءٌ جديد لتجنيدٍ جديد، لحربٍ جديدة. وهذه المرَّة إلى جانب مَنْ خانونا. فبعد استدعاءَيْن اثنَيْن في ظلِّ البوربون، وحربٍ انتصر بها مع الغاريبالديِّيْن، استُدعي آنذاك من قِبَلِ جيش مملكة إيطاليا. هذا هو الواقع، الذي عرفناه بوصفه ضرورةً ومِن ثمَّ مأساة، وحينذاك يتبدَّى بوصفه مهزلة.

«لا يمكنني أن أعيش هكذا» قال «هل يريدون حياتي؟ فليأخذوها. فليأتوا إلى هنا ويقتلوني».

وما لبث أن كفَّ عن المطالعة، وحتَّى عن الكلام في البيت؛ إذ إنّ العمل الشاقَّ في المَفْحَمَة إضافةً إلى نبأ الاستدعاء كانا يستنزفان قواه؛ وكان يتطوَّع للمناوبة الليليّة لمجرَّد ألَّا يبقى في البلدة، حتَّى لو كلَّفه ذلك أن يستيقظ على تطاير الشرر في كلِّ ساعة، لكي يراقب الجمر.

كان يكره أهل البلدة، ويعدُّهم خوَنَة، ويكره بيته أيضاً، وعائلته، كان يكره الجميع. أمَّا المكان الوحيد الذي يجد فيه النعيم، فهو الغاب، عالمه المغلق.

إلى أن حلَّ مساءٌ، كنتُ أغسل فيه الأطباق التي تعشَّينا بها، فنطق بييترو.

«عمَّا قريب، سيأتون للبحث عنِّي واعتقالي بتهمة الفِرَار. سيأتون لسوقي إلى پيمونته، ويحبسونني في سجن فينيستريلّه. لكنّي لن أعود جنديًّاً عند آل ساڤويا الأوغاد أبداً. لا يمكن لأحدٍ أن يتجنَّدَ أربع مرَّات».

وفي الصباح التالي، ومن دون أن يُخبر أحداً بشيء بمَنْ فيهم أنا، هجر البلدة إلى الغاب. كان ينوي الانخراط في عصابة قطَّاع طُرُق.

كان سيخوض الحرب ضدَّ أولئك الذين خانوه، وكانوا حينها يبحثون عن موته.

28

صرتُ أذهب إلى الغاب لكي أتنفَّس، منذ أن رحل بييترو.

كان هناك صنوبرةٌ أرزيّة باسقة، معوجَّة وداكنة، نَمَتْ فوق نتوءٍ صخريّ، وصمدتْ في وجه الصواعق طيلة قرون، وكان لها ندوبٌ عميقة وأغصانها الأقدم محطَّمة، لكنّها في كلِّ ربيع، مع عودة الشحرور لبناء أعشاشه، كانت تتَّشح بأوراق صفراء وحمراء تُوقِظ عشق الزرياب.

في صغري، حين كنتُ أراها رُفْقة خالتي زلزال، مَحنيَّةً ووحدانيَّة فوق ذلك الجُرْف، كنتُ واثقةً من أنّها نشأت من بذرةٍ خبَّأها أحد السناجب عند أبواب الشتاء. كانت تلك الشجرة عهداً مُصاناً. ثمَّ حين كنتُ أراها وبييترو على الجبهة، لم يكن بوسعي سوى التفكير بجنديٍّ معطوب وجريح، لكنّه ما يزال على قدمَيْه. كنتُ أذهب إلى هناك، في تلك الآونة. أقطع الغاب وأصعد إلى قمَّة الجُرْف، أتسلَّق بين إبر الصنوبر المتلألئة تحت الشمس، وأجلس منفرجة الساقَيْن على الشقِّ ما بين غصنَيْن، وأدع الضوء يضرب وجهي.

كنتُ أحمل السلَّة معي، وأعود إلى البيت مثلما فعلت الخالة زلزال مراراً، محمَّلةً ببعض الحطب المسروق: أغصانٌ وثمار صنوبر يابسة لإشعال النار. وفي الليل أتَّجه إلى حقل قمحٍ في الوادي لالتقاط السنابل، وأجمع الفُطْر والكستناء، وأصطاد السلمون المرقَّط من مجرى السيل. كنتُ آخذ، بالسرقة، ما هو لي.

وعندما يعود الربيع، تسطع الشمس الحارَّة، فأستدفئ بها. وكانت أسراب الزرياب والشحرور وديك الغاب ونقَّار الخشب الأحمر تعود إلى ربوعنا؛ وتتفتَّحُ أغصان شجر التامول على اخضرارٍ رهيف، عند مشارف الغاب.

وكان يحدث أن يظهر بيترو على حين غِرَّة، ليتزوَّدَ بالمؤن أو ليمارس الحبَّ. يصحبه في بعض الأحيان أحد رفاقه، يُدعى ماركيتّا، ويبقى في انتظاره مختبئاً طوال الوقت خلف سياجٍ واطئ ليس ببعيد. كانا يحملان الحطب، والكستناء والفُطْر، ويغادران بقِنِّيْنَة نبيذ، وضروبٍ من الجبن والنقانق.

ثمَّة قانونٌ يبرز للعلن مع قدوم الربيع، وهو أقوى منَّا، أقوى منِّي، من بيترو، من آل موريلّي وإيطاليا، أقوى من العالم، قانونٌ يعيد الأمور إلى نصابها في كلِّ عام. مع أنّ السِّلْم في الواقع غير طافٍ على السطح مثلما يبدو: فكانت موجات تمرُّد الفلاَّحين التي اندلعت في بونتلاندولفو، تصل أيضاً إلى بقاع كالابريا، وبازيليكاتا، وصِقِلِّيَة، وكابيتاناتا، وآبروتسي، وتيرّا دي لاقورو. يتسلَّح المزارعون بالمِذْرَاة، ويستردُّون حقَّهم بالاستخدام المدنيّ للأراضي الذي وعدهم به غاريبالدي. يحتلُّون المزارع ويُقسِّمونها ما بينهم بالتساوي. فتبدأ الصدامات. يرسل الحاكم موريلّي رماته، فيلقى المزارعون مصرعهم بالعشرات، وتُسوَّى بيوتهم بالأرض، وتُحرَق قراهم. كانت تلك حرباً بين مُضطَهَدِيْن ومُستَبِدِّين، حرباً أهليّة، ويجب على أحدٍ مّا من مناطقنا أن يخوضها.

لكنّي كنتُ أشعر أنّ مكروهاً، بل حدثاً مريعاً، سيحلُّ بي *أنا* في القريب العاجل.

لم تردني أنباءٌ عن بييترو، ولا هو عاد منذ مدَّة، ففقدتُ الشهيّة، وأمست الكوابيسُ الرهيبة تزورني في المنام: أحلم أنّني محاصرة، أصيح ولا يصدر صوتٌ من فمي، أتعرَّض لاتِّهاماتٍ في البلدة على أفعالٍ لم أقترفها، ذنبي الوحيد أنّني زوجة بييترو.

فأستيقظ جفلاً، أزرب عَرَقاً. كانت تلك نُذُر شؤم. وبالفعل، بعد مدَّة قصيرة، حدث أنّ الحرس جاؤوا إلى البيت ذات صباح، واقتادوني.

كنتُ أنسج، وقد وضعتُ الخضروات وقطعة من لحم الخنزير في القِدْر لغليها، إذ كان لزاماً عليّ أن آكل شيئاً مّا، ناهيكَ بأنّي كنتُ أرجو دوماً أن يدخل بييترو بين لحظةٍ وأخرى ليأخذ المؤونة، ويحملها إلى العصابة.

خلع الجند الباب، حاولتُ أن أقاوم، لكنّهم كانوا أربعة، كبَّلوني بالأصفاد دون إعطائي الوقت لأتكلَّم، ودون أن ينبسوا بأيِّ كلمة. ثمَّ جرُّوني من شَعْري إلى الخارج.

كانت الأجراس تقرع العاشرة في تلك اللحظة، أطلَّ الجيران – من نافذة، من كُوَّة الباب، ومن خلف ستار. لم يفتح أحدٌ فمه، فيما كان أربعة أولاد يلعبون وسط الدرب بكرة من الخِرَق، توقَّفوا متحجِّرين ينظرون إلى مرورنا.

«ماذا تريدون؟» صحتُ بالحرس «ماذا تريدون من امرأة فقيرة ووحيدة؟»

لكنّ قائدهم لم يُكرِّر سوى أنّهم يُنفِّذون أوامر فوميل، الكولونيل الموفد إلى كالابريا لشنِّ الحرب على رجال العصابات.

رفعوني على حصان، تحت أعين نصف البلدة، وانطلقنا على امتداد الطريق الخارج من ماكيا. وبعد المقبرة سلكنا درب كانّافينو، في قلب الغاب، وكان جبل غوارابينو ينظر إلينا؛ ثمَّ اتَّبعنا درباً حتَّى تشيليكو، قرية الرعاة. وحين وصلنا، انعطفنا إلى داخل دير سان دومينيكو، الذي استولى عليه فوميل، واتَّخذه مقرّاً عامّاً له.

كنتُ منهكة. لم أستطع الترجُّل عن الحصان، الأمر الذي اعتبره أحد الحرس حركةَ عصيان. فأخذ يضربني، لكنّ القائد أوقفه. أنزلوني بالقوَّة واقتادوني إلى باحةٍ مطوَّقة بسلسلةٍ من الأبواب الخشبيّة التي تفضي إلى جدارٍ طويل.

في الحائط المجاور لباب ما ستكون زنزانتي ثمَّة محرابٌ مزوَّدٌ بنقيشةٍ للقدِّيس دومينيكو: له عينان طيِّبتان، وطيرٌ صغيرٌ مستندٌ إلى يده اليسرى، ينظر إليه كما لو يُشجِّعه على الطيران.

وحينذاك فكُّوا قيودي ودفعوني إلى ما كان في الماضي غرفة نوم إحدى الراهبات. إنّ الجنون الذي كان في الخارج، في ما كان اسمه المملكة وصار إيطاليا، دخل إلى حياتي.

قفلوا الباب قفلاً مزدوجاً وانصرفوا.

فوق الباب هناك يسوعٌ خشبيٌّ مصلوبٌ، يسفعه شعاع الشمس الوحيد المتسرِّب من فتحة صغيرة، أقرب إلى السقف، في الحائط المقابل. اعتادت عيناي الظلام، فتبدَّت لي غرفةٌ ضيِّقة، وفراشٌ وسريرٌ محطَّم في أحد جوانبها.

لم يأتِ أحدٌ للتحدُّث إليَّ طيلة ثلاثة أسابيع، لا أحد شرح لي سبب نومي على ذلك الفراش الفائح بالبول والرَّوْث، وفي تلك الزنزانة الرطبة

وغير الصحِّيَّة. قاومتُ الجنون وذلك بالتفكير بالأشياء المتماسكة في حياتي، بأُمِّي، بڤنشنزينا، بسالڤو، بأنجلينو. كان الحرَّاس يفتحون البَوَّابة مرَّتَيْن باليوم، ويتركون لي طست ماء وطبق حساء. لكلِّ حارسٍ أسلوبه في الدقِّ. كان أحدهم شاباًّ، يقول «صباح الخير» عندما يفتح؛ أمَّا الآخر، فيدقُّ على الخشب ويرمي الطبق أرضاً وهو يخور. فكان الطبق ينكسر أحياناً، وينقلب دائماً. فأجلس القُرْفُصَاء وألعق بقايا الحساء عن الأرض.

ثمَّ جاؤوا لاستدعائي في ظهيرة أحد الأيَّام.

رفسوني إلى الباحة، وما لبث الضوء أن أبهر عينَيَّ فجأةً. لكنّ شجر اللوز كان مزهراً، ورحيقه يملأ الهواء بعد زمنٍ لا ينتهي، فانتزع منِّي ابتسامة، حملت الريحُ تويجاته البيض والحمر إلى تحت أقواس الممرِّ. كانت الشمس تهبط، والسماء التي لم أرها منذ أسابيع كانت باللون الأزرق الملكيّ.

احتلَّ فوميل الغرفة التي لا بدَّ أنّها كانت لرئيسة الدَّيْر، هناك أيضاً يوجد يسوعٌ مصلوب، ضخم، على الجدار خلف المكتب. وكان الكولونيل مشهوراً بعنفه، لكنّه عندما رأيتُه بدا رجلاً ضامراً وهزيلاً، جبينه العريض مكلَّلٌ بشَعْرٍ قليل، ولحية، وعيناه متقاربتان في وجهٍ مدبَّب. عندما دخلتُ أشار إليَّ للجلوس، وظلَّ الحارسان واقفَيْن ورائي. ثمَّة بابٌ مغلق على يمين المكتب، يرقبه حارسٌ ثالث.

«وهكذا فأنتم زوجة بييترو موناكو» قال الكولونيل، بلُكْنةٍ بيمونتيّة. لم أردّ. «فلنستمع قليلاً ... منذ متى لم تري زوجكم؟» تابع.

ومن جديد، لم أردّ.

ضربني أحد الحارسَيْن على كتفي، فسبَّبَ لي ألماً أصمَّ وصيحةً لاإراديّة: «أوه!»، فإذا فوميل يرفع ذراعه.

«منذ متى لم تري زوجكم؟» ردَّد.

«لا أذكر».

«ماذا قلتُم؟»

نظرتُ إليه. «لا أذكر» قلتُ.

«آه، لا تذكرون ...».

وضع فوميل عدسَتَيْن على أنفه، وقرأ شيئاً من ورقة.

«وكيف لا تذكرون؟ ربَّما لا رغبة لديكم في الحديث». شرد قليلاً. «إذ يتَّضح عندي أنّ زوجكم فارٌّ، انتقل للعيش في الجبال، ومن هناك يدكُّ مواقع رماتنا».

رفع العدسَتَيْن ونظر إليَّ بعينَيْه الغائرَتَيْن الدقيقَتَيْن.

«ما رأيكم، سيِّدة موناكو، هل أنا على صواب أم باطل؟»

«باطل» أجبتُ.

ابتسم فوميل، ثمَّ أسند ذراعَيْه على الطاولة، وقدَّمَ جذعه إلى الأمام. «مع أنّ هناك شخصاً مستعدّاً ليحلف بأنّني على صواب».

التفتَ نحو حارس الباب وأشار له.

فانتفض الرجل مباشرةً، وخرج.

عاد بعد قليل، تسبقه امرأة.

كانت أنيقة، ترتدي معطفاً من جوخٍ أخضر داكن، وأقراط متلألئة ووجهها مجمَّلٌ بالمساحيق. كانت تتحرَّك بأسلوب مألوف. نظرتُ إليها جيِّداً وهي تقترب.

إنّها تيريزا. لم أُصدِّق ما رأتْهُ عيناي. ما الذي تفعله شقيقتي تيريزا هناك؟

أشار الكولونيل مجدَّداً، فجلب الحارس كرسيَّاً.

جلست تيريزا، بهدوء، إلى جانبه.

«سيِّدة موناكو، هل تعرفون هذه المرأة؟» سألني الكولونيل.

لم أردّ.

«برأيي أنّكم تعرفونها» قال.

كيف من المعقول أنّ تيريزا كانت هناك إلى جانب مَنْ يغزو أراضينا؟

وضع الكولونيل عدسَتَيْه ثانيةً، وراح يقرأ قائمة طويلة من أسماء بلداتٍ وقرى وجبال السيلا: تحرُّكات بييترو في الأسابيع الأخيرة، منقولةً بدقَّةٍ مرعبة. كيف استطاعوا معرفة كلِّ شيء؟ كان يعرف أيضاً أنّه سيهبط عمَّا قريب للتزوُّد بالمؤن، وتحدَّثَ عن عزبةٍ في وادٍ يفضي إلى كهف الدّبّ، في غابة غالّوباني.

«إن تعاونتم معنا، فأنتم حُرَّة ابتداء من اليوم» قال فوميل.

ولكنْ، لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن تلك الأشياء كلِّها.

رفعتُ عينَيّ إلى تيريزا. كانت تحدِّق إليَّ بتعبير المنتصر، يحيط بها نور الظَّفَر. كنتُ أعرف تلك النظرة. هي التي أوشت به، أدركتُ ذلك سريعاً. باحت بكلِّ ما تعرفه لجنود ساڤويا. ولا بدَّ أنّها التقت بييترو أكثر من مرَّة منذ أن اتَّجه إلى الغاب. أكثر ممَّا التقى بي.

أعطاني فوميل وقتاً للتفكير والحديث.

«جيِّد» قال في النهاية، بمقابل سكوتي.

ثمَّ التفت إلى الحرَّاس.

«أعيدوها إلى الزنزانة. ولا تُسدوها أيَّ خدمة».

كانت تيريزا تتبعنا على بُعد أمتار، سمعتُ كعبها الذي طقطق على بلاط الباحة.

وبعد أن فتح الحارس باب الزنزانة، تحدَّثت تيريزا: «هل سمعتُم ما قاله فوميل؟ لا تسدوها أيَّ خدمة».

فدفعني الحارس بأسلوبٍ فظٍّ، وعوضاً عن الانصراف لحقني وصفق البَوَّابة خلف ظهره.

وبينما كان رفيقه يُقفل الباب قفلةً مزدوجة، أمسكني ذاك من معصمَيَّ، ودفعني ليُلقيَني على السرير.

وصار فوقي على الفور، يحاول أن يُنزلَ بنطلون البِزَّة.

وحينذاك استيقظتُ، واستردتُ قواي التي خارت على مدى أسابيع. لم يكن ذلك الحارس رجلاً غريباً، إنّما هو بييترو عندما يلتقي تيريزا خُلْسَةً.

أخذتُ أُرفِّس، بشدَّة، فسقطت سدارة الشابّ؛ كنتُ أصيح، وأستجدي الرحمة، وأتوسَّل، لكنّها ليست سوى أعذارٍ للانتفاض بقوَّةٍ متزايدة. وهكذا، بينما كان يُنزِل بنطلونه، تمكَّنتُ من تخليص ذراعي.

رحتُ أخدش وجهه، كالممسوسة، وأمطره بصفعاتٍ كيفما استطعتُ، فانحنى ليحمل يدَيْه إلى أنفه. أفلتُّ ركبَتَي، وسدَّدتُ إليه ضربة موجعة، وسط فخذَيْه. سقط على جانبه، كالدمية المتحرِّكة إذا تقطَّعتُ خيوطها. هوى على الأرض بارتطامٍ مُدوٍّ، وما زال رازحاً.

وقفتُ على قدَمَيَّ حينها وسدَّدتُ إليه الركلة الأولى على ظهره من الأعلى، بأقوى ما استطعتُ، ثمَّ ركلة أخرى، وأخرى، وأنا أستجمع الغلَّ الذي لم أُفرِّغه يوماً، ثمَّ ركلة على الرأس من جديد، كنتُ أرفسه دون أن أنظر إليه، كما لو أنّي عزمتُ على قتله. وربَّما كنتُ سأفعلها حقَّاً لولا أنّ رفيقه فتح الباب.

نهض ذاك بمشقَّة.

«وحدها الحيوانات التي مثلكِ تستطيع مجامعتكِ» قال بصوته الأجشِّ، وهو يبصق على الأرض.

كانت تيريزا الخائنة في الخارج، متربِّصة، وخيالها مُظلَّلٌ في الضوء. بقيتْ هناك طوال الوقت خلف الباب تستمتع بهلاكي.

29

أفرجوا عنّي بعد أربعين يوماً، في الصباح. وكان الحرّاس قد كفُّوا عن المجيء إليَّ، يأتونني بالطعام والماء، ثمَّ ينصرفون. أمضيتُ تلك الأيَّام رهينةَ حُمَّى فاتكة، وما فتئتُ بين النوم واليقظة أتخيَّل لقاءات الغرام بين بييترو وتيريزا. كيف سوَّلت لهما أنفسهما، طيلة ذلك الوقت كلِّه؟ كيف تجرَّأت شقيقتي على خيانتي بهذا الشكل، وكيف تجرَّأ زوجي؟ لكنّي فكَّرتُ أنّهما نبذاني منذ البداية، منذ تلك اللقاءات المسائيّة في مقهى البوربون.

دخل الحرَّاس ذات يوم وأعلنوا أنّني حُرَّة. ظننتُ أنّها مصيدة، وحاولتُ أن أصدَّهم، لكنّهم لم يفعلوا شيئاً سوى ترك الباب مفتوحاً بانتظار أن أخرج. تردَّدتُ مثلما يتردَّد السجين المذعور من الحُرِّيَّة.

كان الضوء باهراً، راقبوني حتَّى مخرج الدَّيْر، وكانت الشمس في أواخر مايو عالية، تثقب السماء لمناداة الصيف. والطريق إلى ماكيا طويل، لم يكن في حوزتي حصان أو بغل وبالكاد تحملني قدماي نظراً إلى ندرة الطعام في تلك الأشهر. اجتزتُ الغاب على الدرب نفسه الذي قطعناه في الذهاب، ودخلتُ البلدة مُنهَكَةً، وبأعجوبة، بعد خمس ساعات.

إلَّا أنّ نبأ الإفراج عنّي وصل قبلي – ومَنْ يدري كيف، لعلَّه عَبْر مزارعٍ

أو راع – لأنّ ماركيتّا، صديق بييترو الصدوق، جاء إلى البيت في ظهيرة اليوم نفسه.

كنتُ جالسةً القُرْفُصَاء على السرير، أشدُّ على ركبَتَيَّ، بعد أن تناولتُ طبقاً من الخبز والهِنْدِبَاء والنقانق الذي أعدَّتْهُ حماتي فرانشسكا. وكنتُ أفكِّر في بييترو، وفي تيريزا، وبدا لي أنّني أخطأتُ في كلِّ شيء، من حياتي ومن الدنيا.

صبَّ ماركيتّا كأس نبيذ وأخذ قطعة جبنٍ أزلتُ العفن عنها، ثمَّ انصرف بعيداً. الرسالة هي أنّ بييترو يريد رؤيتي بعد بضعة أيَّام، 27 مايو، عند النبعة خارج البلدة. كنتُ تحت المراقبة بالتأكيد، وَفْقاً لماركيتّا، ورجال فوميل يعرفون أنّي سألاقي بييترو. لا بدَّ أن أتوخَّى الحذر كُلِّيّاً.

كان بييترو مختبئاً خلف شجرة زيتون عريضة، تلمع قصبة بندقيَّته تحت قمرٍ يكاد بدراً، وتتبدَّى قبَّعته التي من جوخٍ أسود. تلاقينا مع ماركيتّا، حيث تفسح الطريقُ المجالَ لحقل الزيتون، وقد صحبني إليه، ثمَّ عاد للمراقبة.

لقد تغيَّرَ بييترو منذ أن بدأ حياته داخل الغاب، لحيته طويلة وعيناه غائرتان ومتحرِّيتان، أكاد لا أعرفه. أرعبني بروده، وجعلني أتجمَّد.

«ماري» ابتسم، أضاء أحدبُ القمرِ أسنانَهُ البيضاء. داعب وجنَتَي، بأصابعه الغليظة وكفَّيْه الخشنتَيْن. «لقد آذاكِ السجن» قال. صوته أيضاً بات جوفيّاً.

تنحَّيتُ عنه، لم أشأ أن يمسَّني بيدَيْه اللتَيْن خانتاني. فهم ذلك، لأنّه حاول أن يأخذني برفق، فرفعني لأجلس وسط الجذوع المعوجَّة. ولكنْ، كان عليَّ أن أتكلَّم قبله. رفعتُ يدي لصَدِّه.

«إنّهم يعرفون تنقُّلاتكَ» قلتُ «تيريزا تتعاون معهم، وهي التي أخبرت فوميل بالتفاصيل. لقد تلاقيتُما مرَّاتٍ عديدة خلال هذه الأشهر، عرفتُ كلَّ شيء».

«الغادرة!» صاح.

حدَّق إليَّ، ثمَّ نظر إلى القمر. «بضع مرَّات ...» اعترف، وكان في الأثناء يفتِّت حَفْنَة من التراب في قبضة يده «هي التي جاءت تبحث عنِّي، بحُجَّة تزويدنا بالمؤونة. كنَّا نلتقي ...» رمى التراب الذي في يده بعيداً. «ثمَّ سألتْني عن تحرُّكاتنا، لكي توصل إلينا الأغذية».

كنتُ بالاستماع إلى اعترافه بالتقائها أصبح كأحد تلك المخلوقات الدقيقة التي تزحف على الأرض. خجلتُ من نفسي لأنّني صدَّقتُهُ دوماً رغم كلِّ شيء، خجلتُ من سذاجتي. «لقد خانتْكَ» قلتُ «وأنتَ خُنتنِي».

«أنتِ جميلة، يا ماري. في قلب الغاب أنسى جمال وجه زوجتي». أراد أن يرويَ ظمأه.

لكنّي ما كنتُ لأسمح لبييترو بعد أن يقتادني، من كوكبي المتصحِّر، عبْر دروبه السرِّيَّة، إلى أرضه. أقصيتُهُ عنِّي.

وفجأةً ظهر ماركيتّا من خلف شجيرات.

«الحرس قادمون» قال «هيَّا، هيَّا!»

تلعَّنَ بييترو، ارتدى قميصه وصدريَّته بعُجَالَة ونهض.

وجَّهَ إليَّ نظرة أخيرة، ثمَّ اختفى بين شجر الزيتون متَّخذاً طريق الغاب.

وللعودة إلى البلدة، اتَّبعتُ درباً لا يمكن للحرس الوطنيّ معرفته، لأنّه موغلٌ في الحقول. كنتُ أعلم أنّ سالڤاتوري كان مسافراً إلى تورينو، وهكذا عوضاً عن العودة إلى البيت، حين وصلتُ إلى ماكيا، سلكتُ الطريق المؤدِّي إلى تيريزا. لقد حانت اللحظة؛ الوقائع هي التي دفعتْني إلى ذلك الحَدِّ، لا أنا.

طرقتُ المقبض، فلم يجبْ أحد. طرقتُ مجدَّداً بعد قليل، بقوَّةٍ أشدّ.

تناهى صوتها من الداخل.

«بييترو؟»

كانت تنادي على زوجي.

«بييترو، أهذا أنتَ؟» سألتْ، من جديد، بنبرةٍ مستعطفة، يُتقنها الخَوَنَة. لا بدَّ أنّ الفجور أحالها غبيّة.

لم أردّ، ففتحت الباب، ووجدت نفسها قُبَالَتي.

لمعت نظرتُها بما يكشف عن تفاجُئها. «ماذا تريدين؟» كانت تنظر إليَّ بعينَي البومة.

«أدخليني».

راحت تنوح مستنجدةً، تستغيث بالحرس، بالصوت المختزن كلّه في جسمها، تصرخ كمَنْ تلبَّسَها الشيطان أنّ زوجة قاطع طريق اقتحمت بيتها، ولا بدَّ أن يُلقَى القبض عليها.

دفعتُها إلى داخل البيت.

«اخرسي، الآن!» صرختُ.

شعرتُ بالضراوة تتعاظم.

لقد عانيتُ، عانيتُ، مراراً، مراراً، طوال حياتي. ولكنّي بينما كنتُ أعاني، انتبهتُ حينذاك أنَّ جزءاً منِّي كان يتجهَّز لذلك اللقاء. كان الانتقام يتمثَّل بالغضب الجيَّاش الذي أعانني على فتح البَوَّابة على مصراعَيْها، وبالطريقة الجديدة التي بها نظرتُ إليها، والتي كانت تُدهِشُني أنا أيضاً. كنتُ أنا ذاتي، مع أنّني كنتُ أتحوَّل. لم أعد أخاف منها. بل كنتُ أرمقها وأريد أن تجيبني لماذا أهانتْ عائلتها؟ لماذا عزمتْ على خرابنا؟ لماذا لم تحضر جنَّاز أبيها؟ أردتُ أن أعرف متى استغنت عن الدماء التي تسري في عروقنا لتستبدل بها دماء أخرى، لا لها ولا لنا. كان ذلك البيت الكبير جدَّاً، والثريّ جدَّاً، والمختلف عن كلِّ ما ملكناه أبداً، برهاناً على فكرتي.

ظلَّ الباب مُوارِباً، وصلتْ إحدى الخادمات من خلفنا إثر سماع صياحها.

«سأستدعي الحرس» قالت وركضت بعيداً.

ألقت تيريزا نفسها على البَوَّابة لإغلاقها، بحيث لا يسعني الهرب. لم تدرك أنّني ما عدتُ راغبةً بالهرب.

«لن يُفرجوا عنكِ هذه المرَّة» زأرتْ «ساذجة مغفَّلة. سيفعلون بكِ كلَّ ما يبتغون هذه المرَّة».

انقضَّتْ عليَّ بَغتةً، وأمسكت عُنقي.

«لماذا تكرهينني ... مذ رأيتِني؟» حاولتُ أن أتكلَّم بصوتٍ مشروخ،

بينما كانت تزيد خناقها عليَّ «لماذا أردتِ ... الاستئثار بكلِّ شيء ... لكِ وحدكِ؟»

لم تردّ، إنّما صارت قناعاً شرِّيراً من المتعة.

استطعتُ أن أُمسك بشَعْرها فشددتُهُ بعزم، بكلِّ ما أُوتيتُ من قوَّة، حتَّى انتزعتُ منها صرخة ألم. وضعتْ يَدَيْها على رأسها، فملصتُ منها.

«أعلم أنّكِ أنتِ التي بعتنا لفوميل ... وأنّكِ وراء اعتقالي ... وخيانة بييترو».

بتنا واحدةً في مواجهة الأخرى، عدوَّيْن مستعدَّيْن لفعل أيٍّ شيء.

غارت عينا تيريزا في حدقتَيْهما، وتلوَّنت بالصُّفْرة؛ وأصبح رأسها المضغوط على عنقها يندمج بكتفَيْها وذراعَيْها.

«وبييترو أيضاً يعلم أنّكِ بعتِه. أطلعَني على كلِّ شيء. كلِّ شيء».

كانت ذراعا تيريزا تنفتحان، وتصبحان أجنحة مريَّشة وبيضاء. اعوجَّ فمها بقهقهةٍ بائسة، مثل المنقار المعقوف والمدبَّب لبومةٍ إمبرياليّةٍ عملاقة.

مدَّت ذراعها، وأمسكت بسكِّينٍ زراعيّة باترة من فوق صندوق. وأصبحت عيناها مدوَّرتَيْن وصلبَتَيْن وصفراوَيْن، وراحت ترفرف جفنَيْها بسرعة الوميض.

اقتربت وسدَّدت إليَّ طعنة.

أحسستُ بوخزةٍ مُفاجِئة على خاصرتي، كانت الشَّفْرة قد لامستْني

بالكاد. ثمَّ بسطت جناحَيْها، لتتأهَّب للطيران، طيران مجنون، تنفض أجنحتها بكلِّ اتِّجاه. لطمتْني على ذراعي بإحداهما، فراودتْني وخزة ألم.

وبنفضةٍ مباغتة دفعتْني تلك البومة إلى الجدار، وخنقتْني من حلقي، ووضعتْ حَدَّ الشَّفْرة تحت ذقني.

«أنتِ لا تساوين شيئاً» كانت تقول، بعينَيْها المصفرَّتَيْن الجاحظَتَيْن «عَبْدةٌ جاهلة»، وكلَّما تحدَّثتْ، بأنفاسها الشيطانيّة ومنقارها المعقوف، قرَّبتِ الشَّفْرة على لحمي. شعرتُ أنّها بدأت تغرُّني، والسكِّين تتغلغل.

سأموت عمَّا قريب، أدركتُ هذا، مقتولةً على يد شقيقتي.

«إنّني حرَّة ...» همستُ عندئذ، بما تبقَّى لي من صوت «حرَّة».

استجمعتُ قواي للتخلُّص من قبضة الريش تلك، وانتزعتُ السكِّين منها، ثمَّ دفعتُها إلى جدار المدفأة.

استطاعت الحفاظ على توازنها، بل كانت رشيقةً، بحيث أمسكت بالمسعار، وغرستْهُ بسرعة البرق في خاصرتي. فكانت غُصَّة الوجع ضارية.

لكنَّ السكِّين غدت بين يَدَيَّ حينذاك.

فحدث ما حدث، على نحوٍ غير متوقَّع. شبَّ حريقٌ هائلٌ في باطني، أعمى بصري. وجدتُ نفسي مسلوخةً، عزلاء، بمواجهة درعٍ لا يُقهَر. كان خُطَّاف المسعار قد طعن اللحم الحيَّ، وكشف عن نارٍ تستعر تحت اللحم: ما كنتُ أراه هو أنا، هو الصورة الحقَّة عن ذاتي الّتي لم أعشْها يوماً. كنتُ سنديانةً عرفت تضحية الجفاف، لكنّها في تلك اللحظة

صارت قادرة على الانفجار، حرَّةً نحو السماء، بأغصانٍ طويلةٍ مستعدَّة للامتلاء بالأوراق والأزهار ثانيةً.

فطعنتُ.

وطعنتُ، وطعنتُ.

ومرَّةً أخرى، وأخرى، وأخرى، برؤيةٍ ضبابيّةٍ ونارٍ حارقة.

طعنتُ من أجل المرَّات كلِّها التي أحسستُ فيها بأنّني كائنٌ مسلوخٌ ورقيق، كيانٌ ممزَّق الأوصال، امرأةٌ بلا معنى وميتةٌ بالأساس. ذلك الغمُّ كلُّه الذي اختزنتُهُ في صدري لوقتٍ طويل. ما الذي منعني من تفريغه؟ ما الذي حال دون أن أشعر باختزانه؟

قاومتْ تيريزا، ثمَّ سقطتْ على الأرض خائرة القوى وانكمشتْ على نفسها، فيما اتّسعت بركة الدماء تحتها.

تركتْها البومة الإمبرياليّة وحيدةً، وحلَّقت بعيداً، ولم يبقَ منها سوى تلك الوضعيّة المستهجنة.

كانت جميلةً، آنذاك، مثلما لم تكن من قبل، استرختْ تقاسيم وجهها بسلامٍ أخيراً، مشرقةً مثل الأشياء التي ترحل.

أمَّا أنا، فغدوتُ شرسة من دون أن أنتبه، مثلما يغدو المرء هَرِماً أو مجنوناً. هل قتلتُ؟ أكان لزاماً عليَّ تسجيل اسمي بين أسماء العدوِّ؟ ركضتُ إلى البَوَّابة، أزحتُ المزلاج، وهربتُ إلى الخارج.

اتَّجهتُ صوب الغاب متَّخذةً الدرب العشبيّ الذي لن أرجع عليه أبداً.

الجزء الثالث

في الغاب

30

إنَّ الموت هو الذي يمنح العظمة، فمن بعده لا وجود لشيء. أمَّا الولادة، فلا، الولادة معجزة، في حين أنّ للموت تفسيراً ممكناً على الدوام.

هل بإمكانكَ قتل أحدهم تسري في عروقه دماؤكَ نفسها؟ - ما لبثتُ أجترُّ تساؤلاتي وأنا أتوغَّل في الغاب. لقد اقترفتُ أقْدَمَ الخطايا، لكنَّ الغاب كان يُنسِّمُ على عُنقي وظهري ويلفُّني بدثارٍ خفيٍّ، إلى أن أحْكَمَ انغلاقَه على كَتِفَيَّ. أكان الذنب فيَّ، وفي عائلتي، وفي ما غدت عليه المملكة، أم في إيطاليا؟ هل كنتُ أتحمَّل المسؤوليّة وحدي أم ينبغي تقاسمها على ألف، علينا جميعاً؟

مزَّقتُ من نسيج تنُّورتي أوصالاً، لأُضمِّد بها حلقي وذراعي وخاصرتي الجريحة. وكنتُ أصعد بشقِّ النَّفس، بعيداً عن الأطلال والدروب، كأنّني مُلاحَقة: قُبَالَتي قمَّة جبل فولبنتستا الذي رحتُ أهتدي بطيفه العملاق، كما لو أنّه نجمةٌ قطبيّة، إلّا أنّني كنتُ أنوي الوصول إلى غاب كولّا ديلّا ڤاكّا، وما زال الطريق أمامي طويلاً.

لم أعد أشعر بالألم، أو الجوع، أو البرد، اجتزتُ كاميلياتيلّو ثمَّ سكولكا في يومٍ واحدٍ من المسير. كنتُ أرى أسطح بيوت البلدات كلَّما توقَّلتُ في المرتفعات، بحثاً عن هواء، لأخرج من غابات الزان. أتحدَّث إلى

نفسي، فالكلمات تُعينني على اعتياد الوقت الذي يمضي على نحوٍ مختلفٍ بين الجبال والغيوم، وتساعدني في سماع خُوَار بقرةٍ تلد في مرعىً قريب، وعُواء ذئب، وخرير جدولٍ يجري بين الصخور في الأسفل عند فُوَّهةٍ سحيقةٍ أنقذف إليها لأرويَ ظمئي.

وكانت الأمطار تهطل عند حلول الظلام في شهر يونيو ذاك.

تبدأ بالانهمار مع غروب الشمس وتستمرُّ حتَّى الفجر، مطرٌ ناعمٌ ومتواصلٌ يصنع من إبر الأرزيّات والصنوبر وأوراق الزان كتلةً واحدةً وداكنة، ويغسل أفكاري ويبدو لي في النهاية مباركاً. وكنتُ أبحث عن حوافَّ ناتئة ألوذ تحتها أو كهوفٍ آوي إليها، فأجلس القُرْفُصَاء وأغفو وأنا أضمُّ جسدي في قميصي. وكنتُ آكل الأعشاب والأوراق الليِّنة، وأمضغ الجنادب، وأمصُّ الحلزونات النِّيْئَة. وإذا ما رأيتُ عشّاً لطائر السُّمَّنة تسلَّقتُ الشجرة وسرقتُ بيضه وشربتُهُ. وكنتُ أروي ظمئي بمياه المطر، إذ أنقضُّ على تشكُّلات الطحالب، وفي الليل أغدو تراباً غابيّاً أنا الأخرى، بذرةً يُخصِبها المطر.

صنعتُ مقلاعاً من غصن الأبنوس، كالذي كان يصنعه رافّايلي وسالڤو في صغرهما. وحاولتُ اصطياد الحجل ونقَّار الخشب، والبوم الأسمر ودجاج الماء، لكنَّ الطرائد أسرع منِّي، وما تلبث أن تطير بعيداً. وكنتُ أرى من الأعلى امتداداً وسيعاً من الغابات، ثمَّ الصخور الفضِّيَّة والجبل الفولاذيّ كأنّه من جِلْد ذئب. ومن دون أن أدري ولجتُ غاب كولّا ديلّا فاكّا، عن طريق حرشٍ من أشجار الزان الباسقة خمسين مترا والعريضة مترَيْن، وهي أشجارٌ معمَّرة منذ ثلاثمئة عام لطالما سمعتُ عنها. وكنتُ أعلم أنّ بييترو ورفاقه يكمنون فيها، ولكنْ، كيف العثور عليهم؟

وإذ، ذات صباح، مع طلوع الضوء، وجدتُ بندقيَّتَيْن مَنسيَّتَيْن في طلَل.

كان سقف الطَّلَل منهاراً، وجدرانه مبقَّعة بالدخان ومتأثِّرة بثقوب رصاصٍ ناريّ. لا بدَّ أنَّ اشتباكاً مسلَّحاً قد وقع فيه، وما زال هناك جمرٌ تحت الرماد وبعضُ أعواد الثقاب الصالحة ملفوفة في منديل. فتحتُ إحدى البندقيَّتَيْن: كانت مُلقَّمة. حملتُها على كَتِفي، وأخذتُ أعواد الثقاب، وتابعتُ الصعود.

وكانت معدتي خاويةً منذ أيَّام حتَّى كادت التشنُّجات تمزِّقني. إلى أن ظهر سربٌ من دجاج الماء في ظهيرة أحد الأيَّام، وسط فسحة الحرش. كان بينها دجاجةٌ مضطربة، ما انفكَّت ترفرف أعلى وأسفل، وتُغيِّر الغصن.

صوَّبتُ إليها.

كانت تطير يَمنةً وشِمالاً، تتحرَّك وتنقضُّ، تحطُّ وتنهض مجدَّداً، تختفي ما وراء رؤوس الشجر وتعود أشدَّ توتُّراً من قبل. وفي نهاية المطاف أقبلت باتِّجاهي، على بُعد عشرين متراً، ثمَّ عشرة، كما لو أرادت أن تتحدَّاني. فصوَّبتُ عليها من جديد. سوى أنّ ذكرى دماء تيريزا أعاقتْني. فلم أُطلق النار.

في اليوم السادس أكلتُ أوراق الزان والصنوبر. وبتُّ عاجزةً عن المشي بسبب الإنهاك الشديد، وصار بصري مشوَّشاً، وأيُّ نأمة تدوِّي في أُذُنيَّ دَوِيّاً، والشمس التي تتسرَّب بين الأغصان تسفع رأسي وتُرخي ساقَيَّ. انكببتُ على الأرض. كنتُ في حاجةٍ إلى تناول أيِّ شيء، في حين تراقصت أمام عينَيَّ رؤىً لأجبانٍ ولحومٍ من كلِّ صنفٍ ونوع. كدتُ

أفقد الوعي، مستندةً إلى جذع صنوبرة، عندما مرَّ سرب دجاج الماء نفسه من فوقي ثانيةً. فاتّكأتُ إلى مقبض البندقيّة، ونهضتُ على قدمَيَّ بمشقَّة.

انتظرتُ عودة السرب رافعةً سبطانة البندقيّة إلى الأعلى، وقد أعشاني ضوء الشمس. وعندما وصل – كان مُكوَّناً من عشرة طيور – أغمضتُ عينَيَّ. فأطلقتُ النار جزافاً: فدوّى زئيرٌ يصمُّ الآذان بين الشجر. هربت الرفيقات بعيداً برفيف جناحٍ واحد.

لكنَّ أكبرها، ربَّما أُمُّهنَّ، تلولبت على نفسها، وطارت منها ريشةٌ خفيفة. فعلتُها – قلتُ في نفسي. اجتزتُ الأشجار للوصول إلى حيث كنتُ واثقةً من أنّها سقطت، بحثتُ في كلِّ مكان، كالمجنونة، ولم أجدها. لم أكن قد أصبتُها.

وكان ماركيتّا هو الذي عثر عليَّ، بعد يومَيْن.

كنتُ وسط فسحة حرش، مغمى عليَّ، والشمس تشجُّ رأسي. كان قد اقتفى أثري، إحدى البندقيَّتَيْن له، والثانية بندقيّة يوريلّو.

31

كان المخيَّم في قلب حرشٍ كثيفٍ من الأرزيّات الباسقة، أرضه مفروشةٌ بإبر الصنوبر المتراكم طوال شتاءات كثيرة، ولم تنقعها الثلوج.

اضطررنا إلى الانعطاف عن الدرب بعد سكولكا، البلدة الأخيرة، واتَّخذنا مسلكاً حجريّاً بدا أنّه لا يفضي إلَّا إلى جدار صخرة، فإذا هو يهبط نحو جدولٍ جافٍّ. وبعد أن قطعناه صَعِدْنا في حرش زانٍ ليس له نهاية. ومن هناك مشينا يوماً كاملاً آخر. كان الباز ونسر الرخمة وطائر الحِدَأة تعرف موقع المخيَّم جيِّداً، إضافة إلى بعض الأيائل واليحامير، التي تتوه بين الصخور بحثاً عن الماء. غير أنَّ الرماة وعناصر الحرس الوطنيّ الجبليِّيْن ما كانوا ليستطيعوا الوصول إلى هناك أبداً.

احتلَّ بييترو ورفاقه مجموعةً من ثلاثة أطلال في فسحةٍ صغيرة. وكانت الأبواب المخلوعة متواجهة، وفي الوسط حلقة النار الكبيرة والسوداء.

وكان بييترو جالساً على صخرة، والبندقيّة المفكَّكة بين يَدَيْه، ينظر من خلال السبطانَتَيْن الفارغتين، عندما رآني آتيةً مع ماركيتّا والسلاح على كَتِفِي. انتفض واثباً، وجاء لملاقاتنا.

«هل أحسَنَ هذا الحيوان معاملتكِ؟» قال «أنتِ هزيلة، يا ماري، كُلي شيئاً» وما لبث أن جلب لي خبزاً وجبناً.

لم تكن النساء مخوَّلاتٍ لصحبة قطّاع الطُّرُق في العادة، إلَّا إذا كُنَّ عشيقات – رفيقات المحاربين اللائذين بالغاب، كالخالة زلزال – لكنَّ بييترو كان يعلم أنّني لن أرتضي بأداء دور العشيقة، ثمَّ إنَّ نبأ اغتيال تيريزا كان قد وصل إلى قلب السيلا، فأنا مجرمة، قتلتُ عدوَّاً، وهذا ما يجعل منِّي شخصاً جديراً بالاحترام. كان بييترو على دراية، مثل الجميع، غير أنّه لم يفاتحني بالأمر مطلقاً.

في ذلك المساء، وقبل إيقاد النار، جلسنا واحداً بجانب الآخر للاستئناس بآخِر بقايا دفء النهار، حيث كانت الشمس قد هبطت منذ قليل. يُجرَى هذا الطقس لاستجداء الحماية في خلال الليل، لكنَّ ظهري ورقبتي بعد أن وجَّهتُهما إلى الشرق باتتا أبرد من وجهي وصدري. «هكذا تتوجَّهين حتَّى عندما تغيب الشمس» قال بييترو «درجة الحرارة تنخفض، ويرتفع مستوى الرطوبة من ناحية الشرق».

وضعنا النقانق على فرع شجرة لشوائها، وقطَّعنا خبز الشيلم. وجلسنا في حلقة، حول النار، ولكلٍّ صحنه على صخرة. كنَّا ثمانية: بييترو وأنا؛ سالڤاتوري دي ماركو، الملقَّب ماركيتّا؛ سالڤاتوري شيلستينو، الملقَّب يوريلّو؛ جنّارو ليونيتّي، دراغو/التنّين؛ ڤنشنزو مارّاتسو، ديمونيو/الشيطان، والشقيقتَيْن ساڤيريو وجوزيبّي مالياري من سيرّا بيداتشي. كان جميعهم جنوداً سابقين في جيش البوربون، وقد انشقُّوا عنه للالتحاق بغاريبالدي الذي أقام إيطاليا، وفي النهاية استُدعوا إلى جيش ساڤويا الذي فرُّوا منه. وكان بييترو يترأَّسهم.

أخرج دراغو قربَتَيْن من جِلْد الماعز ممتلئَتَيْن بالنبيذ، وسرعان ما سخَّنَ الكحولُ النقاشَ، والأجسادَ أيضاً: فرديناندو يصبح أعظم ملك في العالم؛ ديمونيو رأى وعلاً بضخامة قمَّة جبل بوتّي دوناتو؛ يوريلّو عثر على

خراطيش مكوَّرة مداها تسعمئة متر، وقد أجهز بها على ذئبٍ يزن مئةً وخمسين كيلو؛ نابولي مدينةٌ زائفة ومريعة مقارنةً بكوزنتزا، وغاريبالدي أشجع قائد عسكريّ عرفه العالم أجمع، مع أنّه لم يحظَ بعُشر دهاء كاڤور؛ ڤيتّوريو إيمانويلي ساذجٌ محظوظ وضعوا بين يدَيْه بلداً ولم يفطن لذلك؛ وفي النهاية هم، تلك العصابة من قطّاع الطُّرُق والفارّين، هم الأبطال ولا أحد سواهم. «نحن الإيطاليّون الحقيقيّون» قال ماركيتّا. كنتُ وسط تلك المجموعة من الأغراب، وأشعر أنّني في مكاني، في المكان المناسب لي. كنتُ أضحك، على طرائفهم وتساليهم، وكانت ضحكاتي تحثُّهم على المتابعة. أراد ديمونيو أن ينهض فأسقَطَ السيجار مُسبِّباً استياء الآخرين، وصَعِدَ على صخرة وبسط ذراعَيْه. هبَّت الريح، فحملت معها روائح التبن والتبغ والخمر.

«انظروا هنا» قال «هكذا هي ثياب أبطال إيطاليا الحقيقيِّيْن». كان يرتدي سترة وبنطلوناً من قماشٍ أسود، وحزاماً عريضاً من جلْد الماعز، وجزمة من جِلْد البقر، ويعتمر في رأسه قبَّعة مخروطيّة، حوافُّها عريضة ومرتخية.

«انزلْ عن هذا المسرح!» صاح ماركيتّا، ورماه بحصاة.

«وأنتِ، مَنْ تفضِّلين، بين ڤيتّوريو إيمانويلي وفرانشسكو الثاني؟» سألني دراغو بين الضحكات.

«لا أحد منهما» أجبتُ.

«عليكِ أن تختاري واحداً» ألحَّ وهو يسحب رشفةً من القربة الجِلْدِيَّة «غصباً عنكِ».

«شيشيلّو».

«شي - ـشي - ـلّو» ردَّدَ دراغو. انفجر الجميع ضحكاً على طريقته الساخرة بلفظ اسم الملك السابق.

«شيشيلّو».

«فإذاً منذ اليوم ستكونين شيشيلاّ. لدى كلِّ واحدٍ منَّا لقب، ولا بدَّ أن يكون لديكِ لقبٌ أنتِ كذلك».

صفَّقَ الآخرون. «شيشيلاّ! شيشيلاّ!» شربوا النخب. وكان بييترو ينظر إليَّ بطرف العين، وضحك مع الآخرين في النهاية. وهكذا منذ تلك الليلة أصبحتُ شيشيلاّ.

ثمَّ هطل المطر، مطرٌ ناعمٌ توقَّفَ سريعاً، لكنّي لم أتمكَّن من النوم بالأحوال كلّها.

كنتُ أتقلَّب في مرقدي المصنوع من أوراق الشجر، تنفحني رائحة الآس وقد جعلتْها الرطوبة أشدَّ كثافةً. وتناهت إلى مسامعي من الحُفر الغائرة التي فوقنا نداءات البوم الأسمر والأبيض وهي تخفق بأجنحتها للانطلاق للصيد. ومن الأرض، حفيف الثعالب المختبئة بين صدوع صخرة وهي تلوذ بالفِرَار، وأنين الغزلان، الشبيه ببكاء الرضَّع. وعند توقُّف المطر، بدأ صرير الجداجد الجافّ والخشبيّ وصريف الزيزان الدافئ والمتواصل.

كان بييترو ينهض ويُحيي النار، ثمَّ أنهض عندما يعود إلى الطَّلَل. وقد تكشَّفت السماء، ولمع ضوء القمر الأحدب على البنادق، ولم أكن أودُّ البقاء بجانبه. إذ إنَّ تيريزا – شبحها – ما زالت بيننا. فأخرج للمشي في المخيَّم تحت الظلام، فكنتُ قد حفظتُ تضاريس المكان من دون ضوء: صخورٌ صلدة، طينٌ جيريّ، تربةٌ زراعيّة، وَحْلٌ مُتيبِّس،

بُسُطٌ من الأوراق العَفِنَة. لكنَّ المنظر يتغيَّر كُلِّيّاً حينما تُمطر: تبرز الروائح، تسكن الأصوات، ينقطع الصرير، ينعكس القمر بشكلٍ مائيٍّ ومتلألئ، وتخرج من آلاف الفجوات خراطين متوهِّجة وكثيرات الأرجل الخضراء، ويحوم العُثُّ حول النار كالممسوس، ويطلُّ الجُعَل من حفره. ولا يهمد الغاب إلَّا في آخِر الليل. طغى علينا هدوءٌ دام ساعتَيْن، حتَّى أقبَلَ الفجر الجديد بأنباء صباحٍ جديد: سماءٌ مخطَّطةٌ وصفيرُ نقَّار الخشب. استيقظ الآخرون، وشعرتُ أنّي مذنبة: لم أشاركهم النوم.

وذات مرَّة، قبل أن ينهض الرجال، أخذتُ سكِّين بييترو وقصصتُ شَعْري. غدا قصيراً جدّاً، كشَعْر رجل.

لا يمكن لأحد أن يبقى على حاله في الغاب. كانت الخُصلات الكستنائيّة تتساقط، وفي كلٍّ منها جزءٌ من حياةٍ ماضية: الطفولة في كازولي، الصعود إلى سطح البيت وبرج الناقوس والاختباء في القصر البلديّ؛ الشباب المهدور في النسج لمصلحة آل غولّو؛ الحبّ مع بييترو في الحظيرة؛ الابن، المُجهَض في حقل توت ماتسيي؛ أبي، جنازته؛ أُمِّي التي بعد الاتِّحاد استأنفت العمل في النسج كما لو أنّه نعمة؛ ڤنشنزا التي نظرت إليَّ في زفافي مثلما كانت تفعل في صغرها عندما تندسُّ في سريري.

جمعتُ الخُصلات، وصنعتُ منها جديلة، ودفنتُها. فلتبقَ في غاب كولّا ديلّا ڤاكّا الذي كان للمرَّة الثانية يُعمِّدني.

32

في الغاب يتوافر صبرُ الزمن المتوقِّف: الرُّتَيْلاَء موجودة في النقطة نفسها التي استقرَّت عندها في اليوم السابق، أرجلُهُا خارج الوكر لالتقاط دفء الشمس، والقُبَّرَةُ هناك من جديد. هذا هو صبر المفترس الذي ينتظر ساعاتٍ وأيَّاماً، مُتحجِّراً في مكانه، كالميت، قبل الانقضاض: وهو نفسه صبرُ الإنسان الذي يصلِّي. وهذا ما كنَّا عليه، نترقَّب اللحظة السانحة لتسديد الضربة.

ذات صباح من مطلع أغسطس، قبل أسبوع على عيد انتقال العذراء، ذهبنا أنا وبييترو للتزوُّد بالحاجيّات من صديق لنا يعمل في عزبة. كنتُ أسير قبله، وأفرض الوتيرة، وكان بييترو أكثر تمرُّساً ويسندني من الخلف. وكنَّا نمرُّ بجانب أرزيّات ناضجة، لحاؤها غليظ ينبجس منه الصمغ، والأرض مغطَّاةٌ بوحلٍ قاتم وزَلِق، وفي لحظةٍ مّا أحسستُ كما لو أنّي دستُ على ثمرة صنوبر عَفِنَة. لكنّي بعد خطوَتَيْن استشعرتُ رجَّةً بجانب ساقي تزامناً مع دَوِيّ رصاصة. كان بييترو قد فجَّرَ رأس أفعى تزحف بجواري. وكان الحيوان آنذاك على بُعد عشرة أمتار عنَّا، برأسه المنفجر وذيله الذي ما زال يهتزُّ. وثمَّة حفيف أوراق، على يميننا، ما بين الصخور الصاعدة: رفيقتها تلوذ بالفِرَار.

«أفاعٍ سوداء» قال بييترو «لو أنّها لدغتْكِ لأماتتْكِ».

«لم أرها» قلتُ وأنا أتحرَّى حولي.

«الغاب يتكلَّم من تحت النِّعَال». لا خيار بين مُهيمِنٍ ومُهيَمَنٍ عليه. «كانا يتزاوجان» أضاف وهو يشير إلى الحيوان النافق.

كان ذلك كافياً. شدَّني من ذراعي، تصدَّيتُ له، فدفعني إلى جذع زانٍ عتيق. لم أعد أودُّ التَّماس بجسده، رحتُ أُخبِّط وأُرفِّس، وأفعل بزوجي ما فعلتُهُ بالجنديّ في سجن فوميل. لكنّه كان أقوى ويُشعِرني بأنّي خاطئة. أخرج السكّين من دون أن يرخي قبضته، وغرَّها بالجذع، واستجمع برأس إصبعه صمغاً، وأحكَمَ رأسي بقوَّة، ودهن الصمغ تحت أنفي.

«تنشَّقي» كان يقول «وحاولي أن تهدئي». كان يُحدِّثني بهدوء، في أُذُنِي، ثمَّ يعود لمسح الصمغ ودَهْن غيره ثانيةً. وسرعان ما سرى المفعول، لأنّني سكنتُ وقعدتُ على الأرض.

بحث بييترو عن فمي حينها، ولم يزل ضاغطاً على عُنقي كأنّه وحشٌ جائع. كان يُقسِمُ أنّه يُحبُّني، ويُردِّد أنّه أخطأ في كلِّ شيء ويتوسَّلُ السماح عن خياناته، ويحمد الرَّبَّ لأنّه لَمَّ شملنا، ويقول إنّني المرأة الأشجع التي لم تُولَد مثيلة لها قطُّ، وأنّه الأسعد حظّاً بين الرجال لأنّه تزوَّجني؛ يقول إنّه من دوني أصابه الجنون، في حين أنَّ صوته يزداد انخفاضاً ورقَّةً وتوعُّداً. وكنتُ أعلم أنّني عليَّ أن أتمرَّد، لكنَّ الحقيقة هي أنَّ غيابه انحفر فيَّ مثل جرح، ولم أنتبه إلَّا عندئذٍ وأنا أشمُّ رائحته. كنتُ أفتقد صوته، كلماته، حماسه، شجاعته، اندفاعه. فمن دون استحسانه، ومن دون جسده – شعرتُ بذلك حينما داعبني – لم أكن أنا. «أنتِ لي» قال وأخذني إليه. «حتّى لو كنتِ في لباس رجل، لن تكوني إلَّا لي

وإلى الأبد، يا شيشيلّا» فحَّ بصوته بينما عصر نهدَيَّ بيدَيْه، والتصق بفخذَيَّ كما لو أنَّهما آخِرُ نتوءٍ صخريٍّ ما قبل الهاوية، وفتح بنطلوني، وفتَّشَ بأصابعه المرتجفة عن الشقِّ الأخير قبل السقوط. فتركتُهُ يأخذني بيدَيْن موسرَتَيْن.

وكان حينذاك إذ التقينا باكّا.

رأيتُ عند منحدرٍ صخريٍّ رأس ذئب كبير يراقبنا. أشرتُ إليه وسرعان ما قال بييترو: «إنّها أُنثى». إنمّا توجَّبَ علينا المضيُّ نحو العزبة، فاختصرنا الطريق عبْر دربٍ حجريّ. وبالصعود وصلنا إلى فسحةٍ أعلى الجُرْف: تراءى لنا، في الأسفل، في البعيد، لوحٌ فضّيٌّ من مستقنعٍ فولاذيّ. كان علينا أن نصعد لنعبر من جبلٍ إلى آخر. رأيتُ الغاب من العلا يهبط وينتهي في مرج. وكانت العزبة هناك في منتصفه.

توقَّلنا إفريزاً يخرج بنا من نطاق الشمس متَّجهين نحو الشَّمَال، وكان بييترو أمامي، فأشار إلى الأسفل حيث توقَّفنا منذ قليل لنتأمَّل المستنقع: الذئبة كانت هناك تنظر إلينا مجدَّداً. حتَّى أنا رأيتُها جيِّداً حينئذ: كان لها بقعةٌ كبيرة وبيضاء تقسم جبينها قسمَيْن، وتتَّسع على جانبَيْها، ولطخةٌ حمراء غريبة على ظهرها. يتَّضح أنّها شابَّة حتَّى من بعيد، فَفَرْوُها طويل ومتلبِّد، وأُذُناها حادَّتا الطرف، وكانت ضخمة. متربِّصة، كما لو أنّها تعرف مفاجآت الإنسان من تلك المسافة. أخذت تميل برأسها جانباً بعد ذلك، تتظاهر أنّها تتأمَّل شيئاً مّا نحو المستنقع: لقد سئمتْ من النزال عن بُعد. وفجأةً استدارت واختفت بثلاث خطوات أو أربع بين الصخور، وأنهضت وراءها أمواجاً من إبر الصنوبر.

وفي المساء رسم الضباب الخفيف خطوطاً مبيضَّةً على الجذوع.

أوقدنا النار في المخيَّم، وشوينا جبن النعاج الذي زوَّدنا به عامل العزبة. كان علينا أن نقرِّر مَنْ سنضرب. كنَّا سنطلب المال، فنحتفظ بقسمٍ منه لتمويل العصابة، ونوزِّع القسم الثاني على المزارعين في أراضي ماكيا ساكرا، كارلو مانيو، بيرتشافينيلا، ڤالّه دل إنفرنو، وعلى أولئك الذين يعملون لدى الأسياد في سيرّا بيداتشي، كازولي، ماكيا، أبريلياني، تشيليكو، روليانو، وحتَّى سان جوفانيّ إن فيوري - مناطق نفوذنا.

وعندما حان دوري لاقتراح اسم البومة المراد التسديد إليها لم يتولَّني شكٌّ.

«آل غولّو» قلتُ. كان الغاب يتحدَّث باسمي، والحرب تنزع عنِّي أيَّ ذنب.

كانت تلك عمليَّتي الأولى. وقد أُرضِيتُ بها.

أعددنا رسالة تهديد ومطالبة بألفَي دوقيّة: كانت ستُسلَّم إلى عميلٍ يشتغل في عزبةٍ ليست بعيدة عن سبيتزانو. لكنّنا كنَّا في حرب، والرغبة في الرقص تنفجر بين أيدينا.

أخرج يوريلّو القربة، ورافقه الآخرون بالنفخ على مجوز القصب، وتنغيم الأناشيد التي تُمجِّد النضال من أجل البقاء والنزاع بين الإنسان والحيوان. «اعزِفِ الآن» كنتُ أصيح «اعزفْ من أجل أولئك الذين رحلوا وأولئك الذين لا بدَّ أن يأتوا. اعزِفْ يوريلّو، اعزِفْ!»

وكنتُ أتقرَّب من بييترو، ثملةً بضوء القمر، والهواء البارد والنبيذ.

«وأنتَ يا بييترو، غَنِّ. ارقصْ بييترو، ارقصْ!»

وكان بييترو يُدوِّرني، هناك حول النار ورفاقه، وسط الفسحة الخالية، في قلب غاب كولّا ديلّا ڤاكّا.

ثمَّ أخذنا نغنِّي معاً أُغنيَّة قطّاع الطُّرُق، التي كانت خالتي زلزال تُغنِّيها ولم أنسها يوماً.

ثمانية عشر عاماً، يا ربَّاه
ما أجمل أن نعيشها.
وما أجمل أن نضحِّي
بهذه الحياة وهي في ريعانها.
الفلاَّحُ اللصُّ،
حَصَدَهُ المستبدون
مثل ساقِ نبتةٍ منتصبة
يعزلها الموتُ،
وها هو نائمٌ نومة الأطفال
مستلقياً عند أبوابكَ.
ربَّاه، وأنتَ القدير:
أسكِنْهُ سماءَ الأبطال.

كنَّا نطوف ونحن نغنِّي، احتفاءً بالحياة. وهكذا راح كلٌّ منَّا يغرق في تتبُّع أفكاره الخاصَّة على صوت الحطب المشتعل الذي يتفتَّق في النار، أو على نداء بومةٍ سمراء.

وإذ، يتنبَّهُ ماركيتّا إلى عينَيْن قادحَتَيْن في الظلمة.

فكان أن نهض فوراً وأمسك البندقيّة، قد تكون قططاً بريَّة أو قطيع

ذئاب. قيل إنّ دبّاً عملاقاً يجوب في أرجاء السيلا، ولا قدرة لأيٍّ سلاح على الفتك به. وما زالت تانك العينان تحدِّقان إلينا من الظلام.

وعندما صوَّبَ ماركيتّا، واستعدَّ لإطلاق الرصاص، أوقفتُهُ. أمسكتُ غصناً وأشعلتُهُ من النار. ودنوتُ ببطءٍ من العينَيْن بالشعلة التي في يدي.

كانت هي تلك الذئبة التي أبصرناها في ذلك اليوم، وكلَّما تقدُّمتْ إليها برز طيفها: ضخمة، ورأسها كبيرٌ ومرفوعٌ باعتزازٍ نحو القمر.

خطوتُ بضع خطوات، فإذا هي عوضاً عن التقدُّم تراجعتْ مطأطئة الرأس. فتوقَّفتُ، وكذا فعلتْ. ثمَّ تابعتُ فاستأنفتْ تراجعها، برأسٍ وذَيْلٍ مُنكَّسَيْن. لم تكن تنوي الهجوم. بدا أنّها تبحث عن رُفْقةٍ أكثر من بحثها عن غذاء. فرفعتُ الشعلة نحو السماء، وعدتُ بخطوات متباطئة نحو موقد نارنا. فتقدَّمت الذئبة نحوي على حذر.

«يا له من ذئبٍ غريب!» قال يوريلّو «كأنّه كلبٌ ضخم!».

لم يكن ثمَّة داعٍ أن نقولها جهاراً: قرَّرنا أن تبقى الذئبة معنا.

«باكّا» قلتُ «نُسمِّيها على اسم الأثر الأحمر الذي على ظهرها».

33

كانت أخبار ما يجري في البلدة ترد إلى الجبال في غضون ساعات، عبر شبكة من عمَّال العُزَب، والرعاة والعملاء الذين يساندوننا في الحرب الأهليّة.

وكان الكونت ألفونسو غولّو، زوج السيِّدة التي عملنا أنا وأُمِّي لمصلحتها عُمُراً كاملاً، قد تلقَّى الرسالة. وأبلَغَ بعد أيَّامٍ أنّه لن يدفع شيئاً، وأنّه سيدَّعي علينا لدى قائد الحرس الوطنيّ.

لم نكن ننتظر غير هذا. كان القرار حاسماً.

في الخامس عشر من أغسطس، عيد انتقال العذراء شفيعة كازولي، كنَّا سننتهز الهَرْجَ والمَرَجَ للهجوم. انطلقنا نحن الثلاثة، أنا وبييترو وماركيتّا، وتسلَّحَ كلٌّ منَّا ببندقيّةٍ ومُسدَّسٍ وسكِّين، ووصلنا في المساء إلى حقل الزيتون عند مشارف البلدة. ومثل ثلاثة أطيافٍ زحفنا تحت السور الذي يُطوِّق حديقة بيت غولّو، وتسلَّقنا وقفزنا إلى الداخل. ثمَّ اختبأنا في قلب سياج أجَمَة الدودونيا.

كان في البيت احتفال. لم يكن فيه عائلة الكونت ألفونسو، والكونتيسة التي تنهض عن المائدة وتجلس إلى البيانو لتعزف للمَدعوِّين فحسب، إنّما عائلات إخوته، وحيتان عصير عرق السوس في سولاتسي، إحدى أغنى الصناعات في المقاطعة.

وما وراء سياج الأَجَمَة، ليس هناك طريقٌ أو ساحةٌ إلَّا وتجمَّعَ فيها القرويّون للابتهال والشرب لانتقال العذراء، وباعة متجوِّلون يبيعون عجائن التين المجفَّف المصلَّبة، واللوز والعسل، وفطائر الخبز المحشوّ بالزبيب، وحلويات الموستاشولة المغطَّسة بعصير العنب غير المختمر، فيما يقذف الفتْيَةُ المفرقعات. ها هي اللحظة السانحة تتهيَّأ. فمع العَدِّ إلى ثلاثة، أطلقنا النار على النافذة معاً: ثلاث رصاصات بندقيّة بعيار أونصة، وثلاث رصاصات مسدَّس من عيار نصف أونصة. تشظَّى الزجاج، وأخذت الكونتيسة غولّو تصيح كالممسوسة، ويداها على شَعْرها، وأنظارها نحو السماء، وزوجها يركض من جانبٍ إلى آخر في البيت، وإخوته يهربون للاختباء. لكنّنا لم نكن نريد إصابة أحد، إنّما مجرَّد تحذيرٍ لمَنْ كان حتَّى تلك الساعة يُطلق الأوامر، وبات لزاماً عليه آنذاك أن يخضع ويطيع.

«هيَّا، هيَّا» قال بييترو. فلقد أنجزنا المهمَّة.

وفي لحظةٍ واحدة، تخطَّينا السياج، وصرنا في الطريق خلف المنعطف المفضي إلى خارج البلدة، وسط الأرض الجرداء التي تهبط إلى حقل الزيتون. اختصرنا المسافة بالتوغُّل في الغاب مسترشدين بالنجوم، ووصلنا إلى المخيَّم عند خيوط الفجر الأولى مع شدو الشحارير التي ترسل نداءاتها من على أغصان الشوح، وبعض السناجب تتسلَّق أحد الجذوع وتنظر حولها، والصقيع يتندَّى. كانت باكّا ساهرةً بانتظارنا، وقد شنَّفَت أُذُنَيْها وانتصب ذيلها.

وبعد بضعة أيَّام وَرَدَ الخبر إلى غاب كولّا ديلّا ڤاكّا أيضاً: الحرس الوطنيّ أحرق بيتنا في ماكيا. نجت فرانشسكا والدة بييترو بأعجوبة من

النيران، ولم تستطع إنقاذ أيِّ شيء، واضطرَّت إلى الذهاب، لتسكن عند ابنتها إيلينا وزوجها.

احترق بيتنا مع كرامتنا البائسة، ومع المدَّخرات الضحلة التي جنيناها من النسج طيلة أعوام، ومن تعفُّن رئَتَيْنا وسط الفحم. لا أدلَّة، لا دعاوى، لا محاكمة، كان عناصر الشرطة الساقوية يأتون، وفي الليل يُضرمون النار في كلِّ شيء.

«كلَّاااا» صاح بييترو ولعن «فليحترقوا بالنار!». لكنَّ ذاك ما كان سوى البداية، لأنّهم مستعدُّون لفعل كلِّ ما يلزم شرط أن ينتصروا بالحرب الأهليّة. ففكَّرتُ: هذا هو قَدَرنا نحن الإيطاليِّيْن: فإمَّا أن تكون قوَّاداً، مفترساً كالحوَّام والبوم؛ وإمَّا أن تصبح لصَّاً، منحرفاً، قاطع طريق، أو فريسة كالوعل.

«تحيا إيطاليا» قلتُ «البلد الذي يتقاتل فيه الكلُّ ضدّ الكلِّ. إن كانت هذه هي العدالة، فإنّني أُفضِّل والدي على العدالة».

في ذلك المساء، عند المغيب، كنَّا نشوي آخِرَ ما لدينا من ضلع خنزير عندما خفق طائر الحِدَأة جناحَيْه بشدَّة، وانقضَّ من مرصده على غصن الأرزيّة إليَّ، وانتشل الطبق الصفيح الذي كنتُ آكل منه.

كان ذلك الطير الجارح منذ مدَّةٍ يحوم حول مخيَّمنا، فلا بدَّ أنّه جائعٌ أو مجنون، لأنّ طيور الحِدَأة عادةً ما تلوذ إلى مأواها إبَّان هبوط الشمس. أمَّا هو، فلا. قبل أيَّامٍ أنقذ يوريلّو أرنباً قواعاً من هجوم ثعلب؛ عثر عليه نازفاً يعرج، فأخذه وآواه في علبةٍ من لحاء الزان، لكنّ الأرنب اختفى، فظنَّ يوريلّو أنّ الحِدَأة قد اصطاده، إلَّا أنّني في ذلك المساء بقيتُ بلا عشاء. ففكَّرتُ أنّ الجارح قد اختارني تحديداً، لأنّي كنتُ حائضةً في

تلك الأيَّام، فشَمَّ دم الحيض، لعلَّهُ ظنَّني سأموت أو لا أقوى على الدفاع عن نفسي. أو ربَّما كان يتحدَّاني لأنّني امرأة. بحثتُ عنه قليلاً في الظلام والبندقيّة في يدي، ولكنْ، ما كان باليد حيلة، فلقد توارى عن الأنظار.

«تعرَّضتِ للسرقة من طير» ضحك ماركيتّا. صمَّمتُ على أن يدفع الثمن، فقوانين الغاب باتت تسري في دمي.

وفي اليوم التالي استغرقتُ الوقت كلَّه وأنا أنظر إلى السماء، فوجدتُهُ في غابٍ بعيد. لا طير من نوعه كان يعيش في الجوار، ربَّما طردهم جميعاً لتستتبَّ له الهيمنة. ولا بدَّ أنّه رآني، إذ كان ينتظر أن أمرَّ ليخفقَ جناحَيْه، بعرض مترَيْن، ثمَّ حلَّقَ إلى فوق ذروة الجبل واندسَّ في صَدْع صخرة. وها هو يُلقي بنفسه من القمَّة، ويشقُّ الهواء ويختفي من جديد. لقد تحوَّلَ إلى هَوَسٍ لاهجٍ في رأسي. وكانت باكّا تولول باتِّجاه السماء.

وفي المساء التالي، تقدَّمَ مجدَّداً على بُعد أمتار عن نارنا، وحاول مجدَّداً كالمجنون أن يهبط شاقوليّاً، لينتزع منِّي القصعة. لكنّني كنتُ مستعدَّة هذه المرَّة فلم يفلح.

«إنّه ضخمٌ بالفعل» قال دراغو «لم أرَ مثيلاً له من قبل. أسود كالزفت».

كان كبيراً، وأرياشه الداكنة محزَّزة باللون الذهبيّ.

«أفترض أنّ طوله متر» قال يوريلّو «أو متر ونصف. وأجزم أنّه يزن خمسة كيلو».

لم أنم الليل من آلام الحيض. باكّا أيضاً كانت تعوي وتنفعل. وبين الحين والحين تقطع بومةٌ خطَّ الوقتَ، فأنهض لإذكاء النار، وأناوب عن

الآخرين. كانت تعاودني أحداثٌ وأماكن خلتني نسيتُها: رافّايلي يحرق ورق التصاميم؛ أُمّي عند النافذة تروم بعينَيْها الجبالَ التي كنتُ آنذاك أسكنها؛ تيريزا في زفافها، ثمَّ ملقاة على الأرض بدمائها؛ نابولي الصاخبة بقدوم غاريبالدي؛ المعلِّمة دوناتي تتجنَّب نظرتي بسبب الخزي في الشارع. وكانت باكّا تصيح أحياناً، ترفع رأسها بحثاً عنّي، ثمَّ تُنكِّسه.

نهضتُ من جديد، وذهبتُ للنبش في سترة بييترو، وأخرجتُ منها نصف سيجار. ورحتُ أُدخِّن. ثمَّ أطفأتُه، وحاولتُ أن أنام. كان لزاماً عليَّ أن أنام ساعَتَيْن على الأقلِّ.

لكنّني كنتُ على قدَمَيَّ في الرابعة، النار تخمد، والآخرون ما زالوا نياماً، يوريلّو يشخر كخنزيرٍ برِّيّ. أذكيتُ الجمر، وغسلتُ وجهي بماء البرميل. سخَّنتُ القهوة على النار، واستخدمتُ خرقةً مشحَّمةً لتزييت سبطانة البندقيّة، ثمَّ وضعتُ في جيبي قطعَتَيْن من الخبز وملأتُ المطرة. نفد صبر باكّا، ونَطَّطت أرجلها وتمطَّت. لعلَّها نامت بعض الوقت، هي على الأقلِّ.

وما انفكَّت ريح الليل الباردة تصفعني، ونحن نصعد الدرب الذي أعرفه عن ظهر قلب، أسترشد بوضعيّة النجوم الثابتة وشكلها. الأرض المتجمِّدة تطقطق. وباكّا تركض حيناً أمامي، ثمَّ تعود، وقبل أن أراها أنتبه إلى أنفاسها التي تتكثَّف بالبخار. الخريف يقترب. وكانت باكّا تتوقَّف وتنتظرني، فأشعر بأنفاسها حينذاك.

انبلج أوَّل ضوء من الفجر حيث ينفتح الجبل نحو الوادي. فبعد ذلك المسير الصاعد كلّه، أحسستُ بالحَرِّ فجأةً، كان شعاع الشمس يسفع وجهي، وغرَّدت قُبَّرَتان من قلب أَجَمَة. وصلنا إلى حيث رأينا الحِدَأة في

الأمس. جلستُ على صخرة أنتظر، والبندقيّة بين فخذَيَّ، وأكلتُ قليلاً من الخبز. عثرتْ باكّا على شيءٍ مّا، أو استشعرتْ طيران الجارح، لأنّها كفَّت عن النبش، وشنَّفت أُذُنَيْها. وبعد ثانيةٍ سمعتُ خفيق جناحيْه الهائلَيْن أنا كذلك. رفعتُ رأسي، الحِدَأة فوقنا وقد رآنا. وقفتُ على قدَمَيَّ، لكنَّ الطير قد اختفى.

وجدناه بعد ساعَتَيْن. جاءنا من الخلف، من ذروة صخرة، يهبط مسرعاً، ثابت الجناحَيْن. كان يتحدَّاني. وإذا به يُحلِّق إلى الأعلى من جديد. صوَّبتُ البندقيّة، لكنّه خرج عن مدى الرمي. أطلقتُ النار عموماً، أردتُهُ أن يسمع الدَّويَّ، ليفتقد الأمان. لم تتوقَّع باكّا الطلقة فانتفضت ونحت عن الدرب. إلَّا أنّ الطير، الذي كان في العلياء، هبط نحو الأسفل، كأنّه في سقوطٍ حُرٍّ، فظننتُ لوهلةٍ أنّني اصطدتُهُ.

«هيَّا يا باكّا، اركضي!» صحتُ. لكنّ الذئبة كانت تعلم أنّ الطلقة لم تُصِبْه، فلم تتحرَّك. ثمَّ اختفى الجارح خلف قمَّة الجبل، ولن يظهر إلَّا بعد مدَّة.

ما كان لي أن أُطلق النار. استلقيتُ على سريرٍ من الأوراق اليابسة، وشربتُ، ثمَّ أنهيتُ ما تبقَّى من خبزٍ، وباكّا تناولت منه أيضاً. غرفتُ من الماء بقعر الجزمة وأنهلتُها. واستلقينا واحدةً مواجه الأخرى، تتسرَّب شفرة ضوء من وسط الأغصان وتحطُّ على الإبر المصفرَّة. وغفونا. جفلتُ على دغدغة عند عنقي، كان عنكبوتٌ طويل الأرجل يحاول أن يلج تحت القبَّعة. لم أجد باكّا. كانت قد تسلَّقت إلى الأعلى: لا بدَّ أنّها لمحت الحِدَأة. أمسكتُ البندقيّة وبلغتُها.

كان الحِدَأة هناك – مهيباً وأسود، رابضاً على الشوح المصفرِّ –

يُحدِّق إلينا، والشمس تباشر صعودها. أبقيتُ قطعةً من الخبز من أجله، رفعتُ ذراعي، وأظهرتُها على مرآه. فخفق الطير جناحَيْه، وانقذف. كان يعلم أنّه إمَّا هناك خبزة وإمَّا بندقيّة، وهكذا غامر بكلِّ شيء من أجل كلِّ شيء.

وعندما اقترب منَّا، وثبتْ باكّا كأنّها تريد التقاطه، ورفعتُ البندقيّة التي سندتُها بيدي الأخرى. فحاد الطير، وخفق جناحَيْه ليعود إلى الأعلى، وصار في منتهى العُلُوِّ خارج مدى الرمي. أطلقتُ النار والحال هذه: طلقتان بلغ دَوِيُّهما الوادي برُمَّته. لكنّ الحِدَأة واصل تحليقه إلى أن استقرَّ على صخرةٍ مرتفعة. استقرَّ هناك ولم يتحرَّك. شقَّت باكّا الطريق. ثمَّة دربٌ حجريّ يصعد إلى الأعلى، فتوقَّلنا.

وصلنا من خلفه، فرأيناه مشرفاً على الوادي بمنقره المعقوف والأسود. ربَّما كانت الثانية ظهراً، وأمامنا ثلاث ساعات من المسير إلى المخيَّم، ليس لدينا كثيرٌ من الوقت إذا أردنا العودة قبل الظلام. تحرَّكت باكّا وأسقطت بأرجلها بضعة أغصان. فلم يتحرَّك الحِدَأة. كان يرنو إلى الوادي كما لو أنّه السيِّد. رميتُ غصناً أنا الأخرى، فلامسه. بسط جناحَيْه وهَمَّ بالطيران. بيد أنّ توازنه اختلَّ في غضون ثوانٍ، وبات يرفرف بلا طائل. كنتُ قد أصبتُهُ في الطلقة الأولى.

فأطلقتُ ثانيةً، فهوى مُستعرِضاً أرياشه الذهبيّة على السماء. قتلتُهُ. سقط أرضاً بارتطامٍ أصمّ، وما زال بعضٌ من ريشه يتراقص في الهواء.

«لقد قتلتُكَ» قلتُ «سيكون لدينا ما يُؤكَل هذا المساء».

وما إن قلتُها اجتاحني حزنٌ عظيم: فبرحيله رحل الغاب، ورحلت السماء والشمس. كنَّا قد أصبحنا رفاقاً، والآن افتقدتُهُ.

نزلنا وأخذناه.

كان ثقيلاً. أجل ربَّما، كان يزن خمسة كيلو. شققتُهُ ونظَّفتُهُ من أحشائه التي رميتُها لباكّا فالتهمتْها. غللتُ الحِدَأة بالجراب، وعدنا إلى المخيَّم مع فريستنا.

34

مكتبة
t.me/soramnqraa

بتُّ أعيش بحسب الدورات الطبيعيّة للشمس والقمر، وبحسب دورات الفصول، مثلما عاشت الخالة زلزال، ومثلما عاشت الجَدَّة تينوتسا. كنَّا في أواسط أكتوبر، والسيلا تتهيَّأ للسبات مع اقتراب الخريف. وفي جبل فولبنتيستا، كان مَنْ يسكن في القرى الجبليّة، يصعد بالطحين وأقمشة الفسطاطيّ والنبيذ، خلال الأسابيع التي تسبق البرد؛ وينزلون عنها بعربات محمَّلةٍ بجُبن البروفولا والبورّاتا والريكوتّا، والكستناء والأواني الخشبيّة وأغراض أخرى مستخرجة من الزان. ومنذ أن استوطنتُ الغاب، كان الضوء أشدَّ ما يُبهرني. إذ يتمثَّل خجولاً، مع بداية النهار، وما إن تعتلي الشمسُ سيقان الشجر حتَّى تندلع وسط السماء وتحرق كلَّ شيء. كنتُ أُراقب تلك المعجزة كلَّ صباح بعينَيْنِ مفتوحَتَيْنِ على وسعهما: ضوءٌ يتفلَّت من قبضة الظلم، ويجدِّد الهمَّة للكفاح. فيما يتعيَّن علينا نحن أن نتحيَّن الوقت المناسب، لكي نُنجز الثأر.

ما مرَّ يومٌ لم أتذكَّر فيه بيتنا، وأثاثنا وأعراضنا التي احترقت، وحياتنا التي تتعرَّض للدمار، مع أنّي كنتُ حينها أتصوَّر أنّي أعيش بسِمَات شخصٍ آخر. كنَّا سننُفِذُ العدالة نفسها التي كان ملك إيطاليا يُنفِذُها علينا: لم تكن عائلة غولّو تمتلك مصنع المنسوجات فحسب، إنّما حظائر وعُزَبٍ أيضاً: وكنَّا سنستولي على تلك.

انطلقنا في الصباح ثمانية رفاق، مدجَّجين بكلِّ ما لدينا من سلاح،

وحدَها باكّا بقيت في المخيَّم، لتحرسه. ومشينا يوماً كاملاً، باجتياز غاب الزان الباسق، ووصلنا في الثانية فجراً إلى مَحَلَّة سهل القدِّيسين/بيانو دي سانتي، خارج ماكيا. لم يكن فيها برد الجبال، ما زال هواؤها عبقاً بشذى الزُّعْرُور والخُرْشُوف البرِّيّ، والسماء الصافية تتلألأ بالنجوم. كانت تلك ليلةً جامدةً وفريدة، ليلةً لن يقع فيها ما يسرُّ إطلاقاً.

كانت حظائر الكونت غولّو من بين الأكبر في المقاطعة، إضافةً إلى حظائر مانكوزو: أربعة مبان طويلة ومنخفضة على صفٍّ واحد. طرقنا الباب الأقرب إلى الطريق الرئيس.

وبعد قليل، فتح لنا المزارع المقيم والمجهد، غابريلي ميتشيلي؛ كان ينام في الحظائر هو وأُمُّه وزوجته ومزارعان شابَّان آخران. عندما رأيتُهُ تذكَّرتُ والدي، الذي نام في حظائر موريلّي وحيداً، ولم يحظَ بسكينة العائلة حتَّى. كانت عينا المزارع ممتلئَتَيْن بالنعاس، لم يرفع ذراعَيْه على نِيَّة الاستسلام قُبَالَة البنادق المسدَّدة إليه. أدرك فوراً سبب وجودنا هناك. ومثل الفلَّاحين جميعهم، كان هو وعائلته في صفِّنا، وكانوا يعيقون الأسياد والحرس الوطنيّ على قَدْر استطاعتهم.

تبادلنا النظرات. العزبة كبيرة، ولا يستحقُّ هذا الثراء كلّه إلَّا أن يستحيل إلى نارٍ هائلة. وكبداية، اخترنا قنَّ الدجاج، العالي والضيِّق، على شكل البرج.

«هل من أحدٍ هنا؟ ها، هل من أحدٍ هنا؟» صاح بييترو.

ثمَّ أجلينا جميع مَنْ كانوا من المبنى الرئيس، حيث ينام المزارعون المقيمون. وأبقينا غابريلي معنا، وأغلقنا على الآخرين في مستودعٍ صغير بجانب الإسطبل.

هبَّ يوريلّو وديمونيو ودراغو إلى العمل فوراً داخل القنِّ، وأضرموا فيه نيراناً متفرِّقة، في حين كنتُ وماركيتّا نحتجز غابريلي في مكانٍ آمن، وبيترو يراقب المحتجزين في المستودع.

وسرعان ما احترق كلُّ شيء. كانت السخونة مريعة، لم يبقَ شيءٌ إلّا واشتعل بالضوء: الريف والمرعى القريب، والمنحدر الحصويّ، وجانبٌ من جبل فولبنتيستا. لم يكن في تلك الليلة ريح، فتصاعدت النيران نحو الأعلى: هوى السقف والدعامات بسرعة، وانفجرت الأساسات بدَوِيٍّ الرعود. وكان المزارع المقيم ينظر إلى دمار المكان الذي عمل فيه عُمُراً بأكمله، ويُحلِّفنا أن نقول، في حال أُلقي القبض علينا، إنّه فعل الممكن لتجنُّب وقوع ذلك.

«الممكن والمستحيل» قال ماركيتّا وهو يغمز بعينه. ولكنْ، لم يحترق عمل غابريلي وفلوسه التي جناها فقط، بل أعمال سيِّده وأمواله أيضاً. كانت النيران تجعلهما متساويَيْن. وغابريلي يعلم أنّه لن يخسر عمله عموماً، نظراً إلى أنّ المكان كلَّه يحتاج إلى إعادة إعمار.

وبينما كانت النيران تنتهي من إتمام عملها امتطينا الخيول، وانطلقنا مع المزارع المقيم إلى مَحَلَّة غاوديو، حيث العزبة الأساسيّة للدون ألفونسو.

دقَّ غابريلي مطرق البَوَّابَة، مرَّةً، اثنتَيْن، وثلاث. ثمَّ قرع الجرس، إلى أن تناهى صوت سائس البغال من نافذة.

«مَنْ هنا، في هذه الساعة؟» قال.

«افتحْ، يا جوزيه. أنا غابريلي».

«غابريلي؟» ردَّدَ ذاك، بصوتٍ أوصده النعاس.

«ميتشيلي. المزارع المقيم عند الدون ألفونسو».

وما إن نزل السائس وفتح، ألقينا بأنفسنا إلى الداخل بحثاً عن الدون ألفونسو وزوجته. بحثنا في الغرف كلّها، ولم نجدهما.

«إنّهما خارج البلدة» قال السائس «وَرَدَ الدون ألفونسو نبأ طارئ، فانطلقا قبل العشاء».

لم يكن هناك سوى مزارعٍ، وزوجته ساڤيريا، وابنة ألفونسو، ڤرجينيا غولّو، التي أتمَّت عامها الأوَّل منذ حين، وكانت تهنأ بنومٍ قرير في حضن ساڤيريا.

نظر إليَّ بييترو وماركيتّا. أنا المرأة الوحيدة، لذا سألاني ما الذي يجب فعله؟ رأيتُ على حائط الصالة، فوق مدفأة كبيرة، أحدَ الفرمانات التي كان الملك يُوزِّعها على البوم، ويأمر بتعليقها في كلِّ مكان.

إنَّ المدانين بجرائم السطو، الذين يعترضون القوى الحكوميّة بأيديهم المسلَّحة، جزاؤهم الإعدام بالرصاص.

ڤيتّوريو إيمانويلي الثاني، ملك إيطاليا

«سنخطف الطفلة» قلتُ.

أخرجتُ رسالة الفدية والمطالبة بستَّة آلاف دوقيّة، والإعلان بأنّنا سنواصل القتال في الحرب الأهليّة وسرقة الخَوَنَة إلى أن يتاح لنا ما وَعَدَنا به ملكُ إيطاليا: الاستخدام المدنيّ للأراضي، إلغاء الضرائب على الملح والطحين، وتقسيم الأراضي الممتلكة من قِبَل الدولة.

قرأتُها بصوتٍ جهير وعلَّقتُها بمسمارٍ بجانب فرمان الملك. ثمَّ رحلنا بعُجَالَة.

في الرابع من نوفمبر، بعد أحد عشر يوماً، دفعت عائلة غولّو ستَّة آلاف دوقيّة، وأُفرِجَ عن الطفلة من دون أن تُخدَش خدشاً واحداً.

35

في ليالي الخريف ترسل الجبالُ إلى الغاب رائحةً متجمِّدة للثلج المتساقط على قِممها، والأرض تطقطق كالزجاج، والصقيع يكسو الأجَمَات بأشكاله البيضاء. كان بييترو يصحو ويضع جذعَيْن أو ثلاثة في النار، وعندما يعاود اللهب أجيجه يفرك يدَيْه وينفخ فيهما. ثمَّ يوجِّه كفَّيْه نحو الدفء ويُدلِّك وجهه.

«ستُثلج عمَّا قريب» يقول «يلزمنا مكانٌ مغلق. علينا أن نتقسَّمَ إلى مجموعات صغيرة».

كنتُ أخشى قربه، وفي الوقت نفسه أشتهيه. ففي تلك الأشهر، بعد التقارب خلال الأيَّام الأولى، لم تتيسَّر لنا لحظاتٍ حميمة: كنَّا نتبادل اللمحات من بعيد، ويطوف أحدنا حول الآخر، لكنّنا نبقى متباعدين، مثل ذئبَيْن بوضعيّة الحذر، ويوقن أحدهما أنّ الآخر قد يهاجمه. وأحياناً عندما يبتعد الرفاق يغازلني بييترو، ويحاول أن يمسَّ جسدي مثلما فعل في فترة الخطوبة، لكنّي لم أكن أسمح له بأن يأخذ ما يريد. وقد أمست باكّا تعيش بيننا، تأكل من أيدينا وتنهل من دلوٍ ممتلئ دائماً. وكانت تختفي من حينٍ إلى حين، وقد يدوم غيابها ثلاثة أيَّام أو أربعة؛ ثمَّ تعود وفكُّها ملطَّخٌ بالدم حتَّى أُذُنَيْها إذا قتلت ثعلباً أو خنزيراً برِّيّاً، وفروها مبلَّلٌ بالماء إذا سبحت في مجرى فييغو أو كراتي لاصطياد السلمون

المرقَّط. وتجلب معها من الفرائس إهداءً للمخيَّم، لكنّها إذ تنشب فيها أنيابها في أثناء الطريق فتغدو غير صالحة للأكل.

«إنّها عاقلةٌ أكثر منكَ» كان ماركيتّا يمازح دراغو عندما تظهر باكًا بعد أيَّام وتنطٌّ كالكلاب «لو أنّها عزمت على تعلُّم القراءة لتعلَّمتْ، أمَّا أنتَ، فلا».

لم يذهب دراغو إلى أيِّ مدرسة بالفعل، ولا حتَّى يوريلّو. كان كلاهما بعد أن قاتلا في صفوف البوربون انضمَّا إلى غاريبالدي عند نهر كوراتشي، مثل بييترو، في الصيف الساخن من عام 1860. وكانا مؤمنين بالمبادئ ورشيقين كالوعول، لكنَّهما أُمِّيَّان. أمَّا ديمونيو والإخوة مالياري فبلى، حظوا بفرصة تعليم، إلَّا أنَّ لا أحد منهم يضاهي ما أنجزه بييترو، الذي حاز وسام الشجاعة من الجنرال سيرتوري، وكان برجاحة عقله وسلاطة لسانه مُقدَّراً له أن يقود.

وكان الجميع في جبال السيلا والسهول يتحدَّثون عن عصابة بييترو موناكو – العصابة الوحيدة التي يتزعَّمها قائدان، كما تقول الألسنة الحاقدة: بييترو وزوجته شيشيلّا. بتُّ أعي أنّ شهرتي تتعاظم يوماً تلو يوم. صار الناس في كالابريا وبقيّة إيطاليا يقصُّون حكايات عن امرأةٍ رهيبة وضارية تعيش في الأحراش وتقاتل الإيطاليِّيْن. كانوا يتصوَّرونني أشبَهَ بغول الغابة، نصف حيوان ونصف امرأة، كائنٌ يجلب الموت والدمار، ويبثُّ الرعب في قلوب الرماة. نَمَتِ الأساطير حول اسمي في القرى، فكلَّما ظهرنا في عزبةٍ يعمل فيها أصدقاء لا يخرج الأطفال وأُمَّهاتهنَّ إلَّا لرؤيتي.

«إنّها امرأة عاديّة» يتهامس الأولاد حين يرونني، مسرورين قليلاً ومحبطين قليلاً «قيل إنّ شيشيلّا طويلة القامة كالجبل وقويّة كالدّبّ».

فكنتُ أهزُّ رأسي وأبتسم، لكنّ نظراتهم الملأى بالإعجاب تُبيِّن لي حجم الشخص الذي أصبحتُ عليه بالفعل. وكنتُ أتساءل تُرى كيف تتصرَّف والدتي إذا ما دنا منها أحدهم في الطريق، وعاينها بنظرةٍ لم تعتدها، بسبب تلك الابنة التي لطالما كانت غريبة الأطوار، مسكونةً بروحٍ متمرِّدة كالجَدَّة تينوتسا؟

وحتَّى الصحف انشغلت بي، بي أكثر ممَّا انشغلت ببييترو، وليس الصحف الإيطاليّة فقط. أصبحتُ معروفةً من دون أن أعلم، في اللحظة ذاتها التي قرَّرتُ فيها التواري عن الأنظار، ولم أكن أعرف ما الذي بوسعي فعله بتلك الشهرة كلّها. الصحف تكتب أنّني أقود عصابة لصوصٍ شرسين وقَتَلَة جائرين لا حصر لأعدادهم. افتراء. شيءٌ وحيدٌ كان حقيقةً: كنتُ قاطعة الطُّرُق الوحيدة في إيطاليا، والنسوة الأخريات كلّهنّ هنَّ عشيقات، أمَّا أنا، فلا أُرافق أحداً. كنتُ في منصب القيادة، بجانب زوجي. وهكذا ذاع صيت شيشيلاّ بسرعةٍ في فرنسا، والنمسا، وإنكلترا.

ذات يوم جاءنا أحد العملاء بجريدَتَيْن، قرأ ماركيتّا بصوتٍ مرتفع عناوينها العريضة التي تتصدَّر الصفحات الأولى، دون أن يعرف معناها. «*Ciccilla, la bête humaine*»/«**شيشيلّا، الوحش البشريّ**»، ورفعنا الكؤوس عالياً معاً. «*The new nightmare of Italy: Ciccilla*»/«**كابوس إيطاليا الجديد: شيشيلّا**»، وشربناها. كان بييترو منعزلاً عنَّا، مغتاظاً من الأمر نوعاً مّا، وفي النهاية رفع كأسه معنا، وشرب النخب.

رافّايلي فالكونه، شقيق جان باتّيستا – الشابّ الكالابريّ الذي قدَّمَ بييترو في نابولي إلى بيزاكانه، الصديق الذي رافقه بييترو لاحقاً حتَّى

الموت في سابري – عُيِّنَ للتوِّ قائداً للحرس الوطنيّ، وما لبث أن حصل على شهرة مبيد قطّاع الطُّرُق.

«وها نحن إزاء بومةٍ امبرياليّةٍ جديدة» هتف بييترو مشمئزّاً. كان رافّايلي أُسوةً بشقيقه، لطالما اعتقد أنّ الثورة تقوم على توحيد الشعب والعمَّال والمزارعين، والتخلّي عن النبالة والأشراف الذين يمثِّلون الماضي والقرن الثامن عشر والبَلاط والفساد. لكنّه حينما تغيَّرت السلطة، غيَّرَ مبادئه كذلك على غِرار الخرفان والبوم، والحال أنّه ألحَقَ الهزيمة بعددٍ لا يستهان به من عصابات قطّاع الطُّرُق، وأعدَمَ بالرصاص عناصِرَها ومثَّلَ بجثثهم، وأحرَقَ عُزَبَ المتعاونين وزرائبهم وممتلكاتهم: عصابة بالاتسو في منطقة كوريليانو وروسّانو؛ عصابة غايتانو كوتزا في أكري؛ عصابة كامبونيتّي في لونغوبوكّو؛ عصابة لاڤاليّ في تيرّانوڤا وتارسيا؛ عصابة ريبولينو في إقليم كاسّانو؛ عصابة ڤنشنزو كيودو في سوڤريا مانّيلّي وليوناردو بونارو؛ وعصابة بييترو باولو بيلوزو وسالڤاتوري دي ماركو الملقَّب فرانكاتريبّا، في سيرّا بيداتشي. لقد قتل بلا رحمة، بلا إحساسٍ بالندم، كما أجهز على جيشٍ من اللصوص والمزارعين المقيمين والرعاة والحطّابين والفحّامين الذين كانوا يمدُّون تلك العصابات بالمؤن والسلاح والمعلومات.

حتَّى رافّايلي فالكونه كان يظهر على صفحات الجرائد، وقد جعلت منه منهجيَّته شهيراً: كان يقطع رؤوس زعماء العصابات ويدقُّها على أسنَّة الحراب. ثمَّ يأخذ الحراب، وهي ما تزال تقطر دماً، ويرفعها عند مداخل البلدات، بحيث يرى المزارعون عواقب الحرب الأهليّة. وكنَّا في طبيعة الحال نفكِّر بالأمر جميعاً، باحتماليّة أن ننتهي معلَّقين على الحراب. لكنّي كنتُ أفكِّر أيضاً بأنّ عينَيَّ لن تغمضا لا قُبالَة الأرض ولا أمام السماء؛

وأنّ المتصابين الذين قد يأتون للتلصُّص على رأسي المبتورة، كانوا سيلحظون من خلال عينَيَّ الجاحظَتَيْن أنّه إمَّا الحياة تحت وطأة العبوديّة وإمَّا النضال للحصول على الحُرِّيَّة. لكنّ الحقيقة هي أنّنا لم نكن نفكِّر إلّا بالحرب وخطَّتنا النهائيّة: السطو على بيت موريلّي، لتكون تلك عمليَّتنا الأخيرة، والعظمى. هي أنّنا كنَّا سننتصر في الحرب الأهليّة في كالابريا، ثمَّ تتبعنا بقيّة أقاليم الجنوب. كنَّا سنجبر عدوَّنا بالقوَّة أن يفي بعهود غاريبالدي. ثمَّ كنَّا سنُلقي السلاح.

ولكنْ، حان الوقت لتغيير المنطقة، فبعد اختطاف ڤرجينيا غولّو كان من الخطورة البقاء في غاب كولّا ديلّا ڤاكّا. فلقد اقتحم رماة راڤايلي فالكونه المكان بحثاً عنَّا، وقد يختبئون خلف أيِّ صخرة، وداخل أيِّ كهف.

وهكذا حضَّرنا أنفسنا لرحلةٍ طويلة لعبور جبال السيلا، خفافاً بمؤونةٍ قليلة – كنَّا سنعثر على ما نأكله خلال المسير. اجتزنا وديان نهر نيتو وغارغا، وبعد أن توقَّلنا هضبة ألتاري وسورديلّو قطعنا أحراش فوسياتا العتيقة وغابة فالّيسترو. وكنَّا عند المغيب نضرم ناراً وننام سويعات، وقبل الفجر نستأنف الرحلة بالبرد الذي يصبح قارساً.

وصلنا إلى وادي تريونتو ذات صباح مع مطلع الشمس، وتراءى أمامنا جبلُ بوتّي دوناتو بقمَّته المكلَّلة بالثلوج. كانت باكّا تفتح الطريق، ونحن نتبعها. قطعنا نحو وديان كراتي وسافوتو، على اليمين هضابٌ تغصُّ بالأخاديد والأدغال الكثيفة، وعلى الشِّمَال جبالٌ حفرتها المضائق العميقة وغرتْها الطحالب وأشجار الزان. وبعد عشرة أيَّامٍ غادرنا المناظر الواسعة في سيلا الكبرى للدخول إلى المناظر المرهَقة في سيلا الصغرى، إلى أن نهض أمامنا أخيراً طيف جبل سكورتشافوي المتوعِّد

وفي العمق منه سراب جبل غاريليونه. كان علينا أن نصل إلى هناك. قطعنا الوادي ودخلنا في قلب الليل إلى مضيق سوليو، ذلك المكان الدامس الظلام حتَّى إنّهم سمّوه مانكا دل دياڤولو/قبضة الشيطان. كنَّا سنُخيِّم هناك. تدبَّرنا أمورنا في الليل كيفما اتَّفق، وكان الثلج يهدِّد بالتساقط، فنمنا أنا وباكّا متجاورَيْن. أمَّا بييترو وماركيتّا، فسهرا للحراسة بجانب النار، فذلك المضيق قد يكون مأوى النجاة، مثلما قد يكون فخَّ الموت.

كنَّا قد قرَّرنا أن ننقسم إلى مجموعات صغيرة، فالبقاء مُوحَّدين بات مجازفةً خطيرة، كنَّا سنبني المخابئ في مرتفعات المضيق، وسنتواصل بإشارات الدخان أو رشقات الرصاص. كان بييترو سعيداً، أراد أن يبني لكلَيْنا منزلاً خشبيّاً لا ملاذاً بسيطاً: منزلاً في الغاب، يحلُّ في مخيِّلته محلَّ بيته الذي أحرقتْهُ مملكة إيطاليا.

«لطالما أردناه، منذ المرَّة الأولى التي دخلنا فيها معاً إلى الغاب» قال، وهذا غير صحيح، أو ربمَّا كان صحيحاً في وقتٍ مضى وما عاد كذلك حينذاك.

كنتُ قد رغبتُ في منزلٍ مماثل قبل أعوام، عندما كان بييترو يصحبني لرؤية المفاحم، أو عندما كان جنديّاً وأنا أسكن مع أمِّه وأخته وأحلم خلال إجازاته بمكانٍ منعزل، بعيدٍ عن كلِّ شيء، وأقضي الأُمسيَّات على أغصان ما اعتبرتُها صنوبرتي المفضَّلة؛ لكنّي آنذاك وقد أرغمتْنا الظروف ما عدتُ راغبة. أدرك بييترو الأمر، كان يتفحَّصني من بعيد بملامح محطَّمة، كلَّما عاد خاوي اليدَيْن من البحث عن المكان المناسب للبناء، ووجدني جالسةً أُدخِّن، معانِقةً باكّا.

وددتُ لو أهرب مع الذئبة على أن أنام معه: أُمنيَّتي الكبرى، في تلك

الأيَّام الباردة التي كنَّا فيها بمجموعاتٍ صغيرة نُجهِّز المخابئ في مضائق قبضة الشيطان، هي أن أتوه في الغابْ دون أن أترك أثراً.

لكنّ بييترو وجد المكان.

«مثاليّ» قال في الظهيرة.

كان سعيداً مثلما حين كان فتىً.

«سيكون ذاك منزلنا الجديد، حيث البدايات الجديدة» كان مقتنعاً بما يقول وحاول نقل فرحته إليَّ، ولكنّ الابتسامة سرعان ما انطفأت في وجهه.

للوصول إلى هناك ينبغي التسلُّق قرابة عشرة أمتار بقوّة الذراعَيْن على أحد جدران المضيق الممتلئة بالأحجار الناتئة كالعتبات الصغيرة. وفي الأعلى فسحةٌ رحبة ومحجوبة، في منتصف السفح، تهيمن على الغابة جنوباً؛ وفي الأيَّام الصافية يُرى المضيق وكتلة أسبرومونتي الجبليّة من ورائه. وفي محيط الفسحة بسقت شجيرات الصنوبر الأرزيّ، كثيفةً ومتشابكة، تصلح مخبأً، وتُسرِّب ضوء الشمس حتَّى منتصف النهار. وبعدئذ يغوص المضيق في الظلام، لتنبثق من غوره العميق ريحٌ زمهرير ستأتي بالثلج باكراً.

36

منذ عهدٍ بعيد، شاد أحدهم في وسط تلك الفسحة فرنَ الطُّوب لصهر الحجر الجيريّ وصناعة القِرمِيْد. أمسى المِرْجَل حطاماً آنذاك، وقد اكتشفه بيترو عن طريق المصادفة، حيث أخفتْهُ الطحالب وعيدان الأَجَمَات، وهو فتحةٌ بقطر مترٍ واحد محفورة في الأرض ومُلبَّسة بحجارةٍ مسطَّحة. وفي الجوار هناك ما يبدو أنّه مخبأٌ لحطَّاب شجر الغابات، مستترٌ بين أغصان الزان. وقد استحال المخبأ أنقاضاً، فالسقف منهار، ولا بدَّ من إخلائه من أغصان تلك الشجرة المسكينة، وهذا ما كان سيصبح بيتنا. أمَّا السفح الترابيّ الجنوبيّ، المائل نحو المنحدر، فهو الجانب المشمس: كنَّا سنبني مزرعتنا الخاصَّة هناك.

«البطاطس في هذا الجانب لا تتجمَّد حتَّى في أوج الشتاء» قال بييترو.

كنَّا في الصباح نذهب مع بقيّة أفراد العصابة، لننصب الفخاخ للخنازير البرِّيَّة، والمصائد على الأشجار للقيقان. وفي الظهيرة نبقى في فسحتنا نقطع الصنوبر الأرزيّ الباهت والباسق، بالفأس والمنشار ذي القبضتَيْن. إذ كنَّا نسابق الشتاء. بييترو يقطع الفروع، ويقسِّم الجذوع بضرباتٍ شديدة، فيما أُكوِّم الأغصان والأخشاب تحت أعتابٍ صخريّة.

تناقصت ساعات النهار على حين غِرَّة، فأمسينا نواصل العمل حتَّى

الغروب بينما أطهو طحين القمح وأسلق البطاطس. لم يكن هناك عُزَبٌ في الأرجاء، ما أرغمنا على تدبُّر غذائنا بأنفسنا؛ ليس في متناول اليد سوى كمِّيَّةٍ كبيرة من توت العُلَّيْق. وما زالت أسراب القُبَّرَة والزَّقْزَاق تُؤنسنا حتَّى وقتٍ متأخِّر، لكنّها كانت ستهاجر نحو الدفء عمَّا قريب؛ فأعماق المضيق المظلمة منذ الشتاء الماضي زاخرةٌ بركامٍ ثلجيٍّ ما فتئ يتوعَّدنا.

عثر بييترو على كوخٍ خشبيٍّ مهدَّمٍ صوب الوادي، من الوارد أنّه استُخدِمَ مستودعاً للآلات الزراعيّة. فكَّكنا الكوخ، واستخرجنا دعاماته. تركناها تجفُّ تحت الشمس، ثمَّ ثبَّتناها بالمسامير وشيَّدنا بها سقف الملجأ. وفصَّلَ بييترو من الجذوع المقطَّعة في الأسبوع الفائت ألواحاً من عشرين سنتمتراً، وصنع منها الأرضيّة. وفي النهاية حفرنا حفرةً تؤدِّي إلى مِرْجَل الطوب: كنَّا سنجعل منه مدفأتنا، بحيث نضمن الدفء العميم في أعتى هجمات البرد. ومن أوراق الزان الحمراء والعريضة، صنعتُ المراقد فوق طبقةٍ من إبر الصنوبر، لتعزلها عن الأرضيّة. وكنَّا سنُحاذي مراقدنا بالجدار المُطلِّ على جهة الشَّمَال، صوب جبل غاريليوني.

وكان بييترو يغنِّي في أثناء تشييد السقف.

لم أسمعْهُ يُغنِّي من قبل، كان له صوتٌ قويٌّ وصدَّاح. وددتُ أن أقول له شيئاً مّا، لكنّي كنتُ ألتزم الصمت وأستمع إليه. يغنِّي أناشيد الجنود الذاهبين إلى الجبهات، وتهاليلَ تمجِّد الغاب والجبال، وأغاني العصابات. ربَّما في لحظاتٍ كتلك كان ينسى الحرب الأهليّة، وبيته المهدوم، وأصدقاءه الموتى، والخيانات، وحسرات الندم. فكَّرتُ أنّ السعادة الوحيدة المتاحة لنا، ربَّما، تراودنا عندما نبني بيتاً معاً، ونشيِّد شيئاً للغد. ثمَّ بدأت الثلوج تتساقط.

واصلنا عمليّات السطو، والسرقة والخطف في أسابيع البرد القارس. فالتمركز في المضيق سمح لنا بالتصرُّف في بلدات سيلا الصغرى والعودة إلى المخبأ بلا خوفٍ من انكشاف أمرنا. استمرَّ الثلج بالتساقط طيلة أسابيع، وبدا أنّه سيستمرُّ إلى الأبد، كان في غضون سويعاتٍ يمحو آثارنا، ويُصعِّب تحرُّكات الرماة أكثر فأكثر.

كان بييترو ودراغو يبتعدان بحثاً عن الأيائل والخنازير. وقد حدث ذات مرَّة أنّهما اجتازا وادي تاتشينا طوال يومٍ من المسير، واصطدما بفرنشسكو لاڤوراته، أحد عناصر الحرس الوطنيّ المتنقِّل، وهو جاسوس لمصلحة مبيد قطّاع الطُّرُق. ترصَّدهما لاڤوراته طويلاً، كما لو أنّه ألفى نفسه في مواجهة دبِّ السيلا، ثمَّ أطلق النار كالمجنون. أُصيب دراغو بكَتفَيْه. وسرعان ما هرب الجاسوس في عمق الغاب ليستدعيَ المؤازرة. قطّاع الطُّرُق لا يُسدِّدون غيلةً في ظهور خصومهم، إلّا إذا تعرَّضوا لكمينٍ وتشابكوا معهم، لكنّ بييترو لم يكن لديه خيار، لو سمح له بالفِرَار لقُضِيَ علينا نهائيّاً: صوَّبَ عليه وأطلق النار. ثمَّ رميا جثَّته في نهر كراتي.

أمَّا ماركيتّا ويوريلّو، فحاولا اختطاف البارون دراميس، المتعاون مع عائلة موريلّي، لكنّهما أخفقا. وفي المقابل نجحا في القبض على ماليارِي، متملِّك الأراضي المصادرة، وإخفائه في إحدى مغارات وادي نهر ساڤوتو. دفعت عائلته فديةً من خمسة آلاف دوقيّة، وأُفرِجَ عنه. وكذا فعلا بالكونت لونغو من سيرّا بيداتشي والبارون شيبيوني جوديتشيسا من سپتسانو غرانده.

«إنّنا نجمع ثروة» قال يوريلّو ذات مساء وهو يحصي الذهب. وهذا صحيح، كان في حوزتنا مبلغٌ يسمح لنا بإعانة مزارعي المنطقة كلِّهم لسنوات.

بعد عمليَّات الاختطاف، عندما تركد المياه، كنَّا ننتهز الشتاء والثلج للنزول إلى العزب بصررٍ ممتلئة، واثقين من عدم وجود الأسياد بطبيعة الحال. وكان الفلاَّحون والمزارعون المقيمون والأطفال والنساء يستقبلوننا بحفاوة، ويقيمون احتفالاً، فنأكل جبن الريكوتّا ولحم الخروف حول النار الموقدة. ثمَّ نُوزِّع عليهم الذهب والدوقيّات، ونمضي بعيداً. «وصل يسوع الطفل» كان الأولاد يقولون عندما يروننا نظهر فجأةً.

وكنَّا بين الحين والحين، في المساء، بعد غاراتنا على أراضي الأثرياء، نجتمع كلُّنا حيث أقمنا أنا وبييترو الملجأ.

«سيعود الربيع حتماً» كنتُ أقول «وسيكون أجمل من سابقيه، لأنَّنا سنكون أحراراً».

ولا بدَّ من وجود مَنْ ينتحب ويشكو دائماً، فأزداد إلحاحاً: «ما همَّنا إن متنا! ما همَّنا، إذا شعر الآلاف أنفسهم أحراراً بفضلنا!». فنقرع الكؤوس نخباً من مشروبٍ روحيٍّ أهداه لنا عاملٌ في عزبة، ونتبادل قصَّ الحكايات، فيما ينفخ يوريلّو بالقربة ألحانه. وكانت القصص المفضَّلة هي قصص المصارعين القدماء، العبيد الذين مثلنا تحرَّروا؛ كنَّا نشعر في قلوبنا أنّنا ننتمي إلى السلالة ذاتها.

وذات مساء قصَّ بييترو حكاية صديقه جان باتّيستا فالكونه، شقيق مبيد العصابات. فلقد أمضيا معاً ليلةً كاملة، في أثناء العبور من جنوا إلى سابري على متن المركب البريديّ *كالياري*، يُدخِّنان السيجار ويتحدَّثان عن سبارتاكوس، العبد الذي أفلح في قطع إيطاليا برُمَّتها لتوحيد الفلاَّحين والرعاة والعبيد في جيشٍ هزَمَ به روما. وهكذا قصَّها بييترو علينا.

كان سبارتاكوس المنحدر من تراقيا جنديَّاً رومانيَّاً قبل أن يفرَّ، قُبِضَ عليه وأُحيل إلى مرتبة العبوديّة، لينتهيَ به المطاف مصارعاً في الحلبات لتسلية نبلاء روما. وفي أحد الأيَّام، قبل إحدى المبارزات، قاد سبارتاكوس مجموعة من ستِّين مصارعاً: اقتحموا مطابخ الحلبة، واستحوذوا على سكاكين، وسواطير وأسلحة بدائيّة، وسرقوا عربةً ودروع الفرسان، وهربوا.

«بالمَذَار والمناجل في مواجهة الأسياد» قال بييترو «أفهمتُم؟». وصل المصارعون إلى كاپوا، حيث نهبوا قصور الأغنياء، والتجؤوا بسفوح بركان الفيزوف. «بين أوراق الكروم». طوَّقهم الرومان في بقعة من الكروم البرِّيَّة، وأغلقوا منافذ الهروب كلَّها. لكنّ العبيد هبطوا على امتداد جدارٍ صخريّ بوساطة الحبال التي علَّقوها على أغصان الكروم، فحاصروا الرومانَ بدورهم. «مزَّقوهم إِرْباً» قال بييترو. قُتِلَ كثيرٌ من رفاق سبارتاكوس في الاشتباكات، وهرب الآخرون «إلى عمق الغابات، مثلنا تماماً».

كان باستطاعتهم الانسحاب، إذ باتوا أحراراً والحال هذه، لكنّهم أبوا جميعاً. التفُّوا حول سبارتاكوس، الذي تسلَّمَ القيادة بالاشتراك مع العبد كريكسوس والعبد أوناميوس. «وحينها حدثت المعجزة، المنَّة، مثلما حدث لنا». تقاطر للانضمام إليهم عفويّاً فلَّاحون ورعاة وعبيد، لا تجذبهم الثروات، بل التعطُّش للعدالة والحُرِّيَّة في وجه بطش روما وقمعها. أكثَرَ المتمرِّدون غزواتهم على قصور الحُكَّام والأثرياء، ثمَّ قسَّموا الغنائم على الفلَّاحين والرعاة، وكانوا بالذهب والفضَّة يشترون أسلحة جديدة. بلغت أعدادهم مئة وعشرين ألفاً. وبدا أنّ المستحيل يتحقَّق: عبدٌ ينجح في إخضاع إمبراطوريّة. «التشوُّق للحُرِّيَّة يُغيِّر العالم ...» علَّقَ ماركيتّا في أثناء حكاية بييترو.

ولكنْ، بعد فترة، قُتِلَ أوناميوس في معركة، وراح كريكسوس يسطو لمجرَّد المتعة. وحينذاك افترق عن سبارتاكوس، كانا يُخطِّطان للاستيلاء على إيطاليا من جبهَتَيْن متعاكسَتَيْن: هبط كريكسوس إلى إقليم باري مع ثلاثين ألف رجل، لكنّه سقط في إحدى المعارك؛ في حين اتَّجه سبارتاكوس إلى الشَّمَال. وقد هزم الرومانَ مرَّتَيْن عند سلسلة الأبنين التوسكانيّة، انتقاماً لكريكسوس، ثمَّ واصل زحفه نحو الشَّمَال، منتصراً على كلِّ مَنْ يعترض طريقه. وفي تلك اللحظة، مرَّةً أخرى، كان بوسعه أن يُبحر إلى تراقيا، للعودة إلى دياره بوصفه رجلاً حُرَّاً، لكنَّه أبى للمرَّة الثانية.مكتبة سُر مَن قرأ

«كان لديه حُلْمٌ بصنع أمرٍ عظيم، في غاية العظمة: دولةٌ من الرجال الأحرار». وهكذا عاد إلى الجنوب وذهب لملاقاة الرومان. لكنَّ مجلس الشيوخ كان قد كلَّفَ الحاكم ماركوس ليسينيوس كراسوس مهمَّة سحق التمرُّد، وأمدَّه بأربعين ألف محاربٍ تحت إمرته. «مثل رافّايلي فالكونه، مبيد رجال عصاباتنا» سخر بييترو.

خسر كراسوس في البداية، ثمَّ استطاع صدَّ سبارتاكوس، وردَّه إلى بيتيليا بوليكاسترو، في منطقة السيلا، التي ستشهد الموقعة النهائيّة. وكان سبارتاكوس، قبل المعركة، قد ذبح حصانه وقال: «إن انتصرتُ، ظفرتُ بقَدْر ما أشاء من الجياد، وإن هُزِمتُ، فلا نفع لي به!». ثمَّ انغمس في المَعْمَعَة على قدمَيْه، يتقدَّم صفوف مقاتليه، ويبحث عن نزالٍ مباشرٍ مع كراسوس. لكنَّ القائد الرومانيّ كان يتحصَّن بخطوط جيشه الخلفيّة. حاصر الأعداءُ سبارتاكوس، فحاربهم بشراسة الذئاب، وسقط في النهاية قتيلاً، متلقِّياً الطعنات من كلِّ جانب.

إلَّا أنّ أحداً لم يتمكَّن من العثور على جسده قطُّ. «بتروا رأسه،

وحملوها إلى روما كتذكارٍ للانتصار. ومَنْ يدري ما إن كنَّا نحن الثوَّار سنلقى النهاية نفسها؟» قال بييترو.

كنَّا نعرف جميعاً أنّ المجريات ستأخذنا إلى نهايةٍ مشابهة نحن أيضاً. لكنّنا رفعنا الكؤوس عند ختام حكاية سبارتاكوس، وشربنا النخب إلى السماء التي بدأت تتكشَّف.

37

في ذلك الشتاء كانوا يقطعون أشجار غاباتنا، ينقسمون إلى فِرَقٍ، ويهمُّون بالتقطيع طيلة أسابيع، ليلاً نهاراً، غير مبالين بالثلج، والصقيع، والبرد والظلام. أحراش الزان، والصنوبريّات، والشوح. كانوا سيُحوِّلون السيلا والأسبرومونتي والبولّينو إلى عوارض خشبيّة من أجل الطُّرُق الحديديّة التي يُدشِّنونها في الشَّمَال.

أمَّا لدينا، فمشروع السكَّة الحديد، التي لطالما حلم والدي برؤيتها، توقَّفَ عند مرحلته الأولى وما كان ليُنجَزَ أبداً. وذلك في حين أنَّ رجال الشَّمَال كانوا يأتون إلينا، ويقذفون إلى الوادي آلاف الجذوع، بتغطيةٍ عسكريّة من قِبَلِ الجنود. أغمض البوم أعينهم، مرَّةً أخرى، وسمحوا لهم باقتلاع أشجارنا وتعرية أرضنا.

كنَّا نمشي عشر ساعات والثلجُ يصل إلى حدود رُكَبِنا، ونبلغ سفوح الغاب، ونجثم لمراقبتهم وهُم يدمِّرون عالمنا. وكان من الصعب في إزاء تلك المشاهد أن نُصدِّق بأن ينهض العالم من جديد في اليوم التالي، مفعماً بنورٍ جديدٍ كُلِّيّاً. كانوا يختارون شجرة زان، ويُحدِّدون علامة القَصِّ، ثمَّ يباشرون الضرب، أربعة رجال، من جانبَيْن متعاكسَيْن، بفؤوسٍ ثقيلة، قبل البدء باستعمال بالمنشار ذي القبضَتَيْن. وكانوا يُثبِّتون حبال الجَرِّ، ويواصلون النشر إلى حَدِّ الميلان. وفي تلك اللحظة تهوي الشجرة بِدَوِيٍّ مريع يصمُّ الآذان، تملأ أصداؤه الغاب بأكمله، وتفرُّ الطيور على

إثره هلعةً، وتنتحب من الذعر. ثمَّ يطرق رجال الشِّمَال مسماراً ذا حلقةٍ على رأس الجذع، ويسحبونه إلى الوادي بالأسلاك الفولاذيّة. لقد هدموا كلَّ شيء، أشجارٌ شابَّةٌ ونباتاتٌ عتيقةٌ تتساقط كالعمالقة الجرحى. وكنَّا نشاهد عاجزين: لأنَّهم كُثرٌ ويعملون، في الآن نفسه، في مواقع متعدِّدة في السيلا.

جازفْنا بإطلاق النار مرَّةً واحدة لا غير، حين تساقطت ثلوجٌ كثيفةٌ بحيث امَّحت بصماتنا على الفور. توزَّعنا على شكل دائرة، لكي يسعنا رميهم من الاتِّجاهات كلّها، صوَّبنا وأطلقنا الرصاص معاً إلى أن فرغت بنادقنا. كانوا يتهاوون واحداً تلو آخر، مثل أشجار الزان التي يقطعونها تماماً. ثمَّ تفرَّقنا، كلٌّ في اتِّجاه، واجتمعنا ثانيةً في المخيَّم في اليوم التالي.

صحبتُ باكّا للمشي إلى صنوبرتي، تلك التي أنقذتْني في أشهُرِ الوحدة. كنتُ أعلم أنّ موضعها المتقدِّم على الوادي يُصعِّب عليهم قطعها، لكنّي آثرتُ التأكُّد بنفسي، مدفوعةً بقوَّةٍ باطنيّة.

وصلنا من الدرب الذي في قمَّة الجُرْف، واجتاحتني غُصَّةٌ في الصدر: حدَّدوا علامة القَصِّ على شجرتي المنحنية، من الجانب المطلِّ على المنحدر بالضبط، وكانت الحبال مشدودةً بحيث يتجنَّبون إيقاعها في الفراغ. هناك ثلاثة رجال مزوَّدون بالمنشار ويتناوبون. الأوغاد، يريدون نهب ملاذي - قلتُ في نفسي - ليصنعوا منه عوارض من أجل قطاراتهم اللعينة.

فاختبأنا أنا وباكّا بعيداً، خلف شجرة زانٍ تُلامس أغصانها الأرض. وكان جذع صنوبرتي الأرزيّة منشوراً إلى أكثر من نصفه، وقد دقُّوا أسافين

الأبنوس في الشرخ، ومع ذلك لا يبدو أنّها تريد أن تميل، على الرغم من ربطها بحبالٍ مثبَّتةٍ بصخرة. سيسمحون بحدوث أيِّ شيء ما عدا أن تسقط الشجرة في الهاوية بعد قطعها، فعندئذٍ سيكون من المستحيل عليهم أن يسحبوها إلى الأعلى.

كنّا في العصر تقريباً. وكنتُ قد تعلّمتُ أن أُوقدَ النار على الثلج، وذلك بالعثور على أغصان صغيرة بحجم أعواد الثقاب ترتكز عليها أغصانٌ أكبر تدريجيّاً، بحيث يتشكّل منها هرم، وبذا نترك مجالاً في الداخل لإشعال ورقة يابسة. جلسنا أنا وباكّا ننتظر مغيب الشمس، لتحين ساعة انصراف الحطّابين والجنود. كانت شجرتي هناك، مشدودةً إلى الصخرة التي نظرتْ إليها طوال حياتها: كأنّها مريضٌ مربوطٌ لكيلا يُلقي بنفسه من الجُرْف. وعندما أمسينا وحدنا اقتربنا. هبّت ريحٌ شديدة، تصفر وسط الأغصان، وتنفخها باتّجاه الوادي. كان الشرخ في قاعدة الجذع عميقاً للغاية، أعمق من خطِّ القَصِّ، ومن الإعجاز أنَّ الشجرة ما زالت واقفة على أقدامها، والريح تزداد قوَّةً، وتندفع على رشقات غاضبة تشدُّ الحبال إلى حدودها القصوى.

لامستُ لحاءها الثخين وتشجَّعتُ. ألقيتُ عليها تحيّة الوداع، وأمسكتُ السكِّين وقطعتُ الحبال. فأصدرت صوتَ تمزيق بليغاً، وفي لحظةٍ واحدة أثنت الريحُ الشجرةَ المعوجَّةَ ودحرجتها نحو الوادي السحيق. لم أكن سأتسلّق أغصانها بعدُ، لكنَّ الغزاةَ ما كانوا ليستخدموها نهائيّاً. كانت ستبقى في الغابة إلى الأبد، مستلقيةً في قاع تلك الهوَّة.

قبل انتهاء موجة البرد وردنا نبأ يفيد بأنّ الجنرال سيرتوري انتُخِبَ رئيساً لِلَّجنة البرلمانيّة المسؤولة عن ملفِّ اللصوصيّة، وقيل إنّه سيصبح عاجلاً المفوَّضَ الشاملَ على كاتانزارو بصلاحيّاتٍ واسعة ومطلقة في

الحرب على قطّاع الطُّرُق. مسألة أسابيع، أو أشهر، كان سيأتي في الربيع إذاً، وربمّا في مطلع الصيف، ليُنجز مهمّته: أن يقتلنا.

بات بيترو مكسوراً وغاضباً مثلما لم يره أحدٌ من قبل، لأنّ سيرتوري بمنزلة أبيه الروحيّ، وقد أيقن حينها بأنَّه سيلقى مصرعه على يدَيْه بالضبط، لتنتهي بذلك الحرب الأهليّة. تكالبت الأقدار عليه تحديداً أكثر ممَّا تكالبت علينا.

وهكذا في تلك الأيَّام، في ذروة التعاسة، عاد بيترو يُفرِّغ ما في نفسه عليَّ مثلما فعل في مساءٍ من زمنٍ مضى. وكم خشيتُ تلك العودة منذئذ، كما لو أنّه داءٌ لا أودُّ التفكير فيه. كان يكتفي بشرارةٍ صغيرة، ليذريَ كلَّ شيء في الهواء. يبحث عن الخمر ويشرب، يُبقي باكّا خارج منزلنا الخشبيّ، ويفضي به الغيظ في كلِّ أُمسيَّةٍ إلى ضربي، مستخدماً في كلِّ مرَّةٍ حُجَّةً مختلفة. «أنتِ امرأةٌ غير نافعة» يقول «لا تصلحين لشيء». وإن كنتُ في البدء أنتفض لكرامتي، بتُّ مع الوقت أُصدِّق كلامه. «لستِ مثل آنيتا، أو مثل إنريكيتا»؛ وكلَّما تمادى في الشرب غدا شرِّيراً: «هاتان امرأتان حقيقيَّتان فعلاً، قدَّمتا كلَّ ما ينبغي لزوجَيْهما»، يقول ويضربني على ذراعيَّ «أمَّا أنتِ، فلا تجيدين سوى البكاء»، ويضربني على ساقَيَّ «لم تتمكَّني من صنع شيء أفضل من أُمِّكِ. لستِ سوى نسَّاجة، نسَّاجة بائسة».

وكانت باكّا في الخارج تُولول إلى القمر، في حين ينتهي بيترو من تفريغ غضبه مُلقىً على الأرض، ثمَّ يفقد وعيه. أنا أيضاً كنتُ أبقى مستلقية وأبكي، في ذلك المجال الفارغ والبعيد الذي لجأتُ إليه. كانت كلماته خيانةً للعهود كلِّها، خيانةً لي كذلك. فإن أهانني أصبحتُ نكرة، كنتُ أختفي باختفائه. وفي الصباح لا أتملَّك الشجاعة للنظر حتَّى

في عينَي باكّا، الذئبة التي تُدرك ما حلَّ بي، فتدنو لتلعق يدَيَّ. فيخجل بييترو من نفسه، ومن الحال التي تردَّى إليها، فيغسل وجهه ولا يتكلَّم.

كان هو بييترو ولم يعد هو في الوقت ذاته. رُدِّي – أقول لنفسي. وفي النهاية أردُّ، مؤمِّلةً في أنّ الردَّ سيمحو العار. لكنّ بييترو كان غليظ المَنْكِبَيْن والساعدَيْن مثل جذوع الأشجار التي قطَّعَها طوال حياته، وقد خشنت يداه بجروح الحرب، وقسا لسانه أكثر. ثمَّ إنّه حين يثمل لا يشعر بالألم. ذات مرَّة اغترفتُ خشبةً من النار، حامية الحَدِّ. وقد خلع حزامه، أراد أن يجلدَني به، في ذروة التعاسة. أصبتُهُ على ذراعه بالجمرة، فصرخ، لكنّه أمسكها ورماها بعيداً. كانت باكّا في داخل الملجأ تعوي، مقشعرَّة الفرو ومنتصبة الأُذُنَيْن. لم يتراجع بييترو، فوثبت على عنقه. ارتمى أرضاً تحت ثقل الذئبة، وربَّما رغبتْ في قتله أيضاً. فحملتُ الجمرة، وقرَّبتُها إلى وجهه، إلى عينَيْه السكرانَتَيْن، وهدَّدتُهُ بالموت.

«أنتَ مُقرِف» قلتُ له «لو أنّكَ رأيتَ نفسكَ لشعرتَ بالاشمئزاز».

«هذا ما اخترتِه أنتِ» صاح «هيَّا، احرقيني. احرقي المجنون الذي يقاتل أباه الروحيَّ في هذه الحرب المجنونة».

تضاءلتْ شجاعتي في النهاية. وراح بييترو يبكي، بل وحتَّى باكّا أرخت قبضتها عنه. وفي الصباح التالي، بوجهٍ متورِّم، طلب منِّي الصفح. أصفحت عنه ماريّا بعد أيَّامٍ من العذاب. إلَّا أنَّ شيشيلّا ما كانت لتصفح عنه أبداً: لأنَّ الكدمات تزول بعد حين، أمَّا الإهانات، فتبقى.

38

خلال ذلك الخريف بدؤوا بسلب احتياطيّات الذهب من بنك نابولي، الذي كان سيُسدِّد بها الدَّيْنَ الذي اشترطته المملكة البيمونتيّة من أجل تمويل الحرب ضدَّ الجنوب. أقرّوا بعُجَالَة قانوناً حول «النظام المفروض»، والذي يقضي بأنّ عملة بنك نابولي، الدوقيّة، قابلة للتحويل إلى ذهب؛ في حين لا ينطبق هذا على الليرة، عملة المصرف الوطنيّ الإيطاليّ. وفي الأثناء كان المصرف الوطنيّ الإيطاليّ يبيع لمصارف الجنوب سندات ائتمان، وفي المقابل يحصل على الدوقيّات، ثمَّ يسخِّر هذه الدوقيّات نفسها لشراء احتياطيّات الذهب من بنك نابولي. هي حيلةٌ إذن، كان الجنوب في طريقه إلى الإفلاس، وستفرغ مصارفه كافَّة من الذهب قريباً، وستكتظُّ خزائنها بورقٍ بلا قيمة.

وعليه كنَّا لا نقبل مدفوعات الفدية إلَّا بالدوقيّة، ومَنْ يدفع بالليرة نضاعف عليه الطلب. كنَّا نُجمِّع ثروة طائلة.

وكنَّا أيضاً ننحو إلى عمليّات الاحتجاز لجَرِّ الرماة إلى كمائننا. فبعد الإفراج عن المحتجزين، تزدحم الغابات بالجنود، ونحن لهم بالمرصاد.

وكنَّا نتحرَّك في الليل، بلا ضوء ما عدا ضوء القمر، ونتمركز على مرتفعات جبل سكورتشافوي. وكان الرماة يصلون بعد أيَّامٍ من السير، مُجهَدين، ويُحدِثون الجلبة، غير مُنظَّمين يختبئون خلف الصخور،

والجذوع وأجَمَات الأبنوس. «مَنْ هو قائدهم؟» يقول بييترو مُتبصِّراً في تحرُّكاتهم التي يعوزها الانضباط. «لو كان غاريبالدي على رأسهم لأعدمهم بسبب انعدام كفاءتهم».

فنتوزَّع على مسافة مئة متر، تفصل بين أحدنا والآخر. يطلق بييترو رصاصَتَيْن، فنستدرج الرماةَ إلى مجموعة من الصنوبريّات الأرزيّة السامقة بارتفاع عشرين متراً. فيربضون خلف الجذوع الأعرض، أو على الأغصان الأمتن. ثمَّ يطلق ماركيتّا الرصاص من هناك. وكذا أفعل أنا من نقطتي البعيدة، ويوريلّو من نقطته الأبعد. فينظر الجنود حولهم، ويشعرون بالضياع، وينفعلون ويتمسَّكون بمقابض بنادقهم. لكنّنا مستعدّون لهم أساساً. وبعد قليل، يباشر أحدهم بإطلاق النار، وعادةً ما يكون شابَّاً غِرَّاً، فيتبعه الآخرون.

«طليان!» يصيحون وهُم يهدرون ذخيرتهم متوجِّهين نحو الغاب. «طلياااااان!»

كانوا ينادوننا بهذه الطريقة، من باب الإهانة، بالمُسمَّى الذي أرادوا فرضه علينا بالإكراه. وكنَّا نبقى مختبئين على بضع عشرات من الأمتار، فيما يُفرِّغون مخازنهم جزافاً، دون أن يعرفوا إلى أين يُسدِّدون، فنتركهم يتابعون على ذلك النحو.

«طلياااااان!»

وهكذا كان لدينا وقتٌ للركوع، ورشم الصليب، والتصويب بإسناد المَرْفِق على الركبة والضغط على الزناد بكيل اللعنات، وكلٌّ واحدٍ منَّا يصيب الجنديَّ الماثل قُبَالَته.

هي أشبَهُ بالرماية، نستهدف الرجال الواقفين على الأرض أوَّلاً، ونتفرَّغ للرابضين على الأغصان لاحقاً.

بُمْ. بُمْ. بُمْ.

كانوا يتساقطون بأذرعٍ مُلوِّحة، متفكِّكين، يفتقدون إلى شموخ الحِدَأة الذي كان خصمي في الغاب. أمَّا أولئك الذين لا تصيبهم نيراننا، فيحاولون الثبات في أماكنهم. بُمْ، بُمْ، بُمْ، يسقطون واحداً تلو الآخر كذلك، وهم يصيحون نحو السماء، كالكلمة الأخيرة، تعبير الانتماء إلى الوطن:

«طليااااااان!»

لكنّهم كانوا كُثراً، أعدادهم غفيرة، ولا بدَّ من وجود مَنْ يلوذ بالفِرَار. فنتركهم ينصرفون، لأنّنا على ثقةٍ بأنّهم لن يعودوا إلى تلك الأرجاء قبل مضيٍّ بعض الوقت.

في تلك الأشهر طلب منّا كثيرون الانخراط في العصابة، ومن بينهم أنطونيو موناكو، من أبناء عمومة بييترو. بتنا نشكِّل كتيبةً، قوامها عشرات من الرجال.

كان أنطونيو أصغر من بييترو، ويماثله من حيث البنية والطِّبَاع: طويلٌ، قويٌّ ومتهوِّر. لكنّه كان أكثر منه شراسةً، وأقلَّ منه ثرثرةً وذكاءً، لا يدَّخر فرصةً لاستخدام البندقيّة مزدوجة السبطانة. وحاول على الفور أن يصبح الذراع الأيمن لابن عمِّه، لكنَّ الآخرين أفهموه استحالة الأمر قبل أن أُفْهِمَهُ إيَّاه بنفسي.

«شيشيلّا هي شيشيلّا» قالوا له «لا تمُسُّ. وإن جرَّبتَ فسوف تريكَ العاقبة بنفسها».

كنَّا منذ زمنٍ نُخطِّط لضرب البوم في مقتل من خلال اختطاف دوناتو

وڤنشنزو موريلّي؛ كانوا سيُحقِّقون مطالبنا كلَّها، لن يكون لديهم خيار، إذ غدت أعدادنا كبيرة، وإن نجحنا في الأمر فزنا الحرب الأهليّة، كنَّا واثقين من هذا. فخارج كالابريا كان هناك كارمينه كروكّو، نينكو نانكو، جوزيبّي كاروزو، نيكولا سومّا وعصاباتٌ أخرى تقاتل في بازيليكاتا. وكان الرقيب الرومانيّ السابق في جيش البوربون، بيتسيكيكيو وبابا تشيرو أناكياريكو يقاتلان في كابيتاناتا وإقليم باري. ناهيكَ بفِرَق عصابة فرا دياڤولو، وأنطونيو كوتسولينو، ولويجي آوريكيو في تيرّا دي لاڤورو. إلَّا أنّه على المقلب الآخر هنالك جيشٌ يتألَّف من مئة وعشرين ألف جنديّ يتراوحون ما بين رماةٍ وضبَّاطٍ وحرسٍ ملكيٍّ وحرسٍ وطنيّ، جيشٌ ليس له سوى طموحٍ واحدٍ وهو أن يرى رؤوسنا مرفوعة على الحراب.

ذات صباح من شهر أغسطس ذاك سمعنا أصوات خطى، وأغصان تتكسَّر وهمهمات تقترب من كوخنا. وسرعان ما امتشقنا أنا وبييترو السلاح. بدأت باكّا عُواءها عند حافَّة المنحدر، ولم تكفّ إلَّا عندما أصبحت الأصوات عاطفيّةً ومبتهجة.

تسلَّقَ ماركيتّا أوَّلاً، متبوعاً بيوريلّو، ورجلٍ آخر طويل ومكتنز، وشَعْره الطويل مربوط عند رقبته. وما إن رآه بييترو، حتَّى رمى البندقيّة وركض لملاقاته، عانقه وتبادلا التربيت على الظهر بمودَّة.

«ما الذي تفعله هنا، أيُّها النابوليُّ المشاكس؟!» سأله بييترو مبتهجاً، وممسكاً وجهه باليدَيْن.

«هذا هو الشيء الوحيد الذي بوسعي فعله» أجاب الرجل «أريد أن أقاتل معكم!»

ربَّما ما كنتُ لأقدر على معرفة هويَّته. ليس من صوته على الأقلّ، أو وجهه، أو عينَيْه. لكنَّ بييترو التفت نحوي.

«تعالي يا شيشيلّا! ارمي السلاح، ماذا تفعلين عندكِ؟»

«ماري ...» ابتسم الرجل.

ولم أعرفه إلّا حينذاك. إنّه رافّايلي، شقيقي. مرَّت ثلاثة عشر عاماً على آخر مرَّة رأيتُهُ فيها، فبدا لي وجوده في ذلك المكان غير واقعيّ. لكنَّ العالم في لحظةٍ واحدة عاد مسالماً، كما لو أنّ شيئاً لم يتغيَّر، كما لو أنّنا ما زلنا في بيتا، أطفالاً، نُطيِّرُ تصاميم الكونتيسة غولّو. تعانقنا طويلاً، ما كنتُ لأتركه ينصرف أبداً. كانت رائحته من عطر رجلٍ طيِّب، وما كنتُ في تلك الأيّام بأمسِّ الحاجة إلّا إلى ذلك. بدا كأنّه جاء خصوصاً لمنحي الطمأنينة بعد ضربات بييترو.

«ماما تتمنَّى لكِ الخير» قال «وڤنشنزا وسالڤو يتحدَّثان عنكِ على الدوام». وأخيراً لم يعد الغاب وحده قد تحوَّل إلى بيتٍ لي، إنّما بيتي آنذاك قد دخل إلى الغاب.

«إمَّا العصبة وإمَّا الغربة!» قال رافّايلي وشدَّ على بندقيَّته.

وبعد، في الخامس عشر من أغسطس 1863، سُنَّ قانونٌ عسكريٌّ خاصٌّ، عُرِفَ بقانون پيكا، عُطِّلَ على إثره العملُ بالميثاق الألبرتيّ، وجُرِّدَ كلُّ مَنْ يقاتل في الحرب الأهليّة من حقوقه المدنيّة. لم نعد مواطنين كالآخرين، هُدِرَت دماؤنا، وبِتْنا مطلوبين، وصار بإمكان مَنْ يجدنا أيّاً كان أن يقتلنا بكلِّ بساطة، وبإمكانه أن يبيعنا أو أن يمُزِّقنا إِرْباً. ولم تعد المحاكم المدنيّة هي المَعنيَّة بأمرنا، إنّما تلك العسكريّة: لا قضاة بعدُ، إنّما جنرالات جيش ساڤويا.

كانت نهايتنا وشيكة، وكنَّا نعلم ذلك. علينا الاستعجال باختطاف موريلّي، لنستردَّ ما كان لنا. هذه إمكانيَّتنا الأخيرة.

ولكنْ، قبل ذلك، تهيَّأت لنا فرصةٌ لاختطافٍ من نوعٍ آخر، اختطاف رموز، ولا مجال لتضييعها. كنّا سنحتجزهم في أكري، كبرى البلدات الواقعة في الجهة المغايرة للسيلا، في وادي موكونه، تحت ظلِّ جبل نوتشه.

انطلقنا في الليل، قبل أسبوعَيْن من اليوم المحدَّد، لندرس تحرُّكات كلٍّ منهم بإتقان. وفي فجرٍ شديد البرودة توقَّفنا في فسحة حرش، وأخذنا القربة وأقداحاً من تنك، واجترعنا بعضاً من المشروب الروحيّ. كان في جَعْبَة ماركيتّا قليلٌ من الخبز المتيبِّس، ودراغو قطعةُ خنزير مقدَّد وحِزٌّ من جبن الغنم. أنهينا طعامنا، كان علينا أن نتقاسم ما لدينا.

«إلّا أنَّ الشيء الأهمَّ هو معي» قلتُ وأشرتُ إلى كتفيّ. تولّيتُ حمل الذهب بنفسي، في صرَّتَيْن مغطَّاتَيْن بأوراق الزان. فبعد إنفاذ قانون «النظام المفروض» حوّلنا الدوقيّات التي حصلنا عليها من عمليّات الاحتجاز إلى ذهب: فأصبح عندنا كنز. «ها هو معي» أقول.

«بإمكاننا ألّا نتناول الطعام أيضاً» ضحك يوريلّو «فمتى كان هناك ذهب كان كلُّ شيء». شربنا نخب الأيّام القادمة، واستأنفا المسير.

رصدنا البومَ خلال أسبوعَيْن، متنكِّرين بأزياء رعاة وفحَّامين. وفي يوم أحدٍ من أواخر أغسطس بدأنا التنفيذ، السكِّينُ في الحزام والبندقيّةُ على الكتف. تقسَّمنا على مجموعَتَيْن، وتوارينا في موضعَيْن مختلفَيْن في أكري. وكنَّا نراقب من كلا الجهتَيْن نبعة بومبيو عن كثب، الموجودة عند تخوم البلدة، المكان الذي ينتعش به البوم كلَّ يوم أحد قبل التنزُّه في وسط البلدة. وما هي لحظة واحدة إلّا وربَّطناهم جميعاً: أنجلو فالكونه الشقيق الأكبر لرافائيلي مبيد العصابات؛ الأسقف دي سيموني، والقَسَّيْن

اللذَيْن يتنزَّهان برُفْقته. ثمَّ أربعة آخرين أصغر سنَّاً: ميكيلي فالكونه حفيد رافّايلي؛ كارلو بافيّ ابن البارونة فيرّاري؛ دومينيكو زانفيني كاتب العدل والمحامي الشرعيّ لعائلة موريلّي، وأنجلو فيراودو الغاريبالديّ السابق الذي أصبح بومة.

وكان عند النبعة ثلاث حمير وثلاث بغال يُستخدمون لنقل الماء إلى البلدة. أركبنا الأكبرَ سنَّاً عليها، وهربنا نحو أقصر الطُّرُق التي تؤدِّي إلى السيلا من جهة سان زكريا. ما كان أحدٌ ليعثر علينا.

39

في اليوم التالي من الاختطاف عُيِّنَ الجنرال سيرتوري ملازماً عامّاً للأقاليم الكالابريّة، ومهمَّته هي القضاء على اللصوص قضاءً مبرماً، مهما كلَّفَت الوسيلة، وبعدم التورُّع بأيِّ قانون. وقد وصلنا المنشورُ بوساطة صديقٍ لنا من العاملين في عزبة، إذ انتزعه من جدار أحد المقاهي.

إلى قطَّاع الطُّرُق وذويهم.

لقد جئتُ إلى الأراضي الكالابريّة لاستئصال اللصوصيّة من هذه الأرياف التي باركتْها السماوات وأتعسها البشر. وإنّ الحبَّ الذي أكنُّهُ لإيطاليا، والودَّ الذي أكنُّهُ للكالابريِّيْن هما اللذان دفعاني لقبول هذه المهمَّة الشاقَّة والخطيرة.

وإنّني أعتبر أنّ اللصوصيّة هي أَشَرُّ المصائب التي تتأذّى منها طبقات المجتمع كلّها، ولا سيَّما الفقراء. ولو شاء الكالابريّون، ولا سيَّما الفقراء، الإصغاء إلى صوتي وهو صوت صديقٍ، وأخٍ، وأبٍ، لتعاونوا جميعاً معي بغية استئصال اللصوصيّة، وما تبقّى من اللصوصيّة أثرٌ في كالابريا كلّها في غضون أيَّامٍ قصيرة.

إنّني أتوجَّه على الخصوص إلى أهالي قطَّاع الطُّرُق، وإلى قطَّاع الطُّرُق أنفسهم، الذين لا أُضمر لهم الكراهية إنّما الإشفاق العميق. وغالباً

ما أقول في نفسي، والألم يعتصر قلبي: أَلَا ليتني أستطيع التكلُّم إلى اللصوص وذويهم واحداً واحد، لعلِّي أُسْمِعَهُم صوتَ الحقيقة، صوتَ المحبَّة، فكانوا بالتأكيد سيلقون السلاح حال سماع كلماتي. ولأنَّ قلبي تلميذ الإنجيل، فلسوف تُفرِحَه عودة غنمةٍ تائهةٍ إلى الحظيرة، أكثر من المئات التي لم تخرج منها. بإمكان قاطع الطُّرُق المُحمَّل بأكبر الجرائم أن يمتثل أمامي كما يمتثل أمام أب. وسوف أبذل الجهود كلَّها للحصول على تخفيضات العقاب التي يسمح بها القانون.

وخلافاً لذلك، إن كانوا لا يُصغون إلى صوت المحبَّة، فإنّني والسلطات العسكريّة والمدنيّة كافَّة سنكون مضطرِّين إزاء اللصوص وذويهم إلى استعمال الأسلحة المروِّعة التي يضعها القانون تحت إمرتنا.

فمن أجل كرامة كالابريا وسعادتها، ولا سيَّما من أجل مصلحة الفقراء، لا بدَّ أن تتوقَّف اللصوصيّة «بالحبِّ أو بالفتك».

كاتانزارو، 1 سبتمبر 1863

الملازم العامّ

قائد الفرقة العسكريّة في الأقاليم الكالابريّة

جوزيبّي سيرتوري

صَدَّقَ على التعميم

العمدة

موريلّي

خرج بييترو عن طوره؛ لأنَّ سيرتوري، الذي يعرفه جيِّداً، وبتلك

الكلمات المعلَّقة في عموم كالابريا كلّها، كان يتوجَّهُ إليه تحديداً، إلى ربيبه الذي لمع بين الألف مقاتل، وقلَّدَه وسام الشجاعة.

«كأب! كأخ!» ضجَّ بييترو «كيف يجرؤ على التحدُّث عن محبَّة الفقراء، وهو لا يعرف عن الفقراء شيئاً؟! إنّه خائنٌ ليس إلَّا! انتهازيّ!».

وكاد في سورة غضبه أن يُطلق النار على الرهائن، المقيَّدين والمعصوبين في زريبة، يشتكون ويطلبون الماء والطعام. وكان العُجَّز - الأسقف، والقَسَّان وأنجلو فالكونه - قد بانت عليهم أولى علامات الإذعان، لم ينم منهم أحد؛ ولقد دخلتُ عليهم، فوجدتُ الأسقف مقلوباً على الأرض. وخارت قوى أنجلو فالكونه كذلك: كان مغبرَّ الوجه، ويتنفَّس بمشقَّة.

بعد أن قرأ بييترو المنشور، دخل مُشهِراً البندقيّة، وأنهَضَ فالكونه تحديداً على ساقَيْه المرتجفَتَيْن، وصوَّبَ السلاح على عُنقه.

«سأقتلكَ» قال، بمحض الغلِّ، بمحض الانتقام.

نظرتُ في عينَيْه، كانتا تقدحان باللمعان نفسه الذي صاحَبَ تفريغ غضبه عليَّ في تلك الليالي. وكان من الممكن أن يقتله حقّاً.

طَفِقَ فالكونه يبكي، ويرتجف كُلِّيّاً، ووجهه ملطَّخٌ بالمخاط، يتمتم بألَّا يقتله، ويتوسَّل الرحمة، والغفران ممَّا فعله بنا، ومن كلِّ ما سرقه منَّا. كان بييترو يمسك شَعْره بيد، ويشدُّ بالأخرى على البندقيّة، ويضغط بها تحت ذقنه.

«كلَّا، كلَّاااا» يصيح «لا تقتلني، لا تقتلني، أرجوكَ ... أُحلِّفكَ».

انخفض بييترو ونظر في عينَيْه مباشرةً.

«سأقتلكَ» ردَّدَ غير مرَّة، ببرود.

صار فالكونه يئنُّ ويشتكي: «كلَّا ... أتوسَّل إليكَ، كلَّا».

دنا منه بييترو أكثر، حتَّى تلامَسَ الأنفان.

«هل أنتَ مستعدٌّ؟» قال «واحد ... اثنان ...»

شعر ذاك باقتراب أجله.

«بُمْ!» صرخ عليه بييترو في وجهه، مثلما فعل بي في تلك الظهيرة منذ زمنٍ مضى، عندما أراني مسدَّس الخدمة في الغابة.

«بُمْ!» لكنَّه لم يكبس الزناد.

استوى فالكونه بالأرض: بدا أنّه ميت حقّاً. لكنّه بدأ يجهش بصوتٍ منخفض، مثل طفل.

«اربطوه» قال بييترو «ولا تضعوه أمام عينَيَّ!»

في تلك الأُمسيَّات، كان العملاء والأصحاب يأتوننا بالصفحات الأولى من جريدة الإندبندتي، التي أوكل غاريبالدي إدارتها إلى صديقه، الكاتب الفرنسيّ ألكسندر دوما. اتَّسعت رقعة شهرتنا بسبب عمليّة الاختطاف في أكري. ثمَّ قيل عنِّي إنّني أشهر امرأة في إيطاليا، فالجميع من الشَّمَال إلى الجنوب أصبح يعرف مَنْ هي شيشيلاّ. وقد كتب دوما قصَّتي على سبع حلقات، يروي فيها حياتي وحياة بييترو في قلب الغابات. كنَّا وحوشاً نهاجم المتنفِّذين دون أدنى شفقة، وكان لي أفاعٍ عوضاً عن الشَّعْر، وأنيابٌ فاتكة عوضاً عن الأسنان، ومخالب عوضاً عن اليدَيْن، وذَنَبٌ طويلٌ ومفلوق.

وكان رفاقنا يضحكون ويشربون النخب، في حين كنتُ أُحسُّ

بأنفاس أعدائنا على عُنقي، وكنتُ أعرف أنّ مقاومتنا كانت ستُمحى بجرَّة قلم، وأنّ إيطاليا لن تتذكّرنا إلَّا بائسين ومنحرفين يسرقون الأسياد، وأنّ الحرب الأهليّة ستؤُول في طَيِّ النسيان. ومع ذلك كان لتلك الصفحات فائدة: خلقت حولنا شهرة المجرمين القساة، الأمر الذي أرعب عوائل الرهائن.

وهكذا، بعد أسابيع، ومع مطلع الخريف الذي يُحمِّر أوراق الزان، ويُولِّد تعاسةً فريدةً من الحياة التي خلّفناها وراءنا إلى غير رجعة، دُفِعَت الفدية، وأُفرِجَ عن البوم الذي عاد حُرّاً طليقاً.

لكنّنا، والحال هذه، بات لزاماً علينا أن نغادر قبضة الشيطان، لم يعد بوسعنا البقاء فيها، بعد الاختطاف ومجيء سيرتوري العازم على مطاردتنا بجيشٍ لم ترَ إيطاليا مثيلا لضخامة تعداده. فأحرقتُ الكوخ الخشبيّ مثلما فعل الرفاق الآخرون قبلي، كلٌّ بملجئه، وتفرّقنا.

رافّايلي، ماركيتّا، يوريلّو، أنطونيو، دراغو، ديمونيو، الشقيقان مالياري والآخرون جميعاً، سيسلكون من وادي تريونتو، مروراً تحت جبل بوتيّ دوناتو، حيث سيتفرَّقون مرَّةً أخرى. أنا وبييترو وباكّا سنصعد عبر المضيق، نحو أخاديد وادي سافوتو.

وكنَّا سنتلاقى في بيتٍ مهدوم داخل غابة فالّيسترو.

أخذنا صرر الذهب وبضعة أشياء أخرى واستهلَّينا المسير. كانت الليلة الأولى باردة، أوقدنا ناراً، وأعددتُ مرقداً من إبر الصنوبر والأوراق، وانكمشنا على أنفسنا في العراء. وانطلقنا قبل بزوغ الفجر، وولجنا غاب غاريليوني قُبَيلَ الضحى، تحت ضوءٍ شمسيٍّ طفيف. شرعت باكّا ترفع رأسها وتعوي، مقشعرَّة الفرو، ورحنا نُهدِّئ من روعها: «استرخي، يا باكّا،

استرخي، لم يحدث شيء»، ونُطبطب على ظهرها. لكنّها ما انفكَّت تُصوِّب إلى الأعلى وتعوي.

وإذ، ونحن خارجان من فسحة جرداء، ألفينا نَفْسَيْنا قُبَالَة منحدر جبل سكورتشافوي الشامخ. لا بدَّ أنّنا تهنا، فأشجار الصنوبر قد حجبتْهُ عنَّا من جهة الغاب، وما كان ينبغي أن نصل هكذا إلى مَنْكِبَيْه.

كان سفحه عموديّاً ومرعباً، قاتماً، كأنّه جدارٌ، يهدِّد بالسقوط على رؤوسنا. وللوصول إلى أخاديد وادي سافوتو يجب أن نحاذي مداره كلَّه أو أن نصعد عليه، لتوفير ثلاثة أيَّام من المسير. لكنَّ صعوده كان بالنسبة إليَّ مستحيلاً: فالجدار شديد الوعورة.

وفجأةً، انقذفت رصاصة من قلب الغاب، بقوَّةٍ عاتية، دوَّى أزيزها بالسفح، وارتدَّ إلينا. بُمْ. التفتت باكّا جفلاً، ومدَّدت خطمها وأُذُنَيْها.

ثمَّ انقذفت رصاصةٌ أخرى، أشرس من سابقتها. بُمْ. ثمَّ أخرى. بُمْ.

لقَّمَ بييترو بندقيَّته وكذا فعلتُ، مع أنّ الأمر لا يحتاج إلى تفكير.

لم نكن نراهم، لأنّهم متوارون في الغاب. لكنّهم كانوا هناك.

ولا بدَّ أنّهم كثر، كثرٌ جدَّاً، فعندما تهبُّ الريح نحونا تحمل معها خبْطَ الخطى الثقيلة والمتساوقة.

كان سيرتوري، «أب» بييترو، آتياً للقبض علينا.

همَّت باكّا بالركض على امتداد الدرب الحجريّ المحاذي لسفح الجبل، لا يمكنها الصعود معنا، كنَّا سنلقاها في فالّيسترو.

ليس لدينا بدائل: علينا أن نصعد، وبعُجَالَة.

وكان جبل سكورتشافوي هناك، عملاقاً، في مواجهتنا.

40

كان ذلك الجبل برهاناً على وجود قانونٍ مختلف. فإذا الغابُ وسماؤه تعبيرٌ عن الكفاح، فإنّ ذلك السفح العموديّ يمثِّل الفَناء. كان بييترو يعرف سكورتشافوي جيِّداً كما يعرف أنحاء السيلا كافَّة، ويعلم أنّه ليس ببعيدٍ عن هناك ثمَّة إفريز خلف أحد المرتفعات. وفي تلك النقطة ينفتح صَدْعٌ طويلٌ وضيِّق، بممشى بين سفحيْن صخريَّيْن يرتقي إلى الأعلى، حتَّى القمَّة. كنَّا نبتغي الصعود إلى هناك.

جئنا راكضَيْن، وقد اجتزنا الهضبة الملتفَّة بمنعرجٍ كبير، عندما هَمَّ الرماة بالزحف باتِّجاهنا. أخرج بييترو حبال القُنَّب، وسارع إلى ربطها بلفِّها مرَّتَيْن حول خصره وفخذَيْه وكَتِفَيْه، ثمَّ فعل بي الشيء ذاته، وصنع عقدةً تحت صرر الذهب لتثبيتها. ومن دون أن يلتفت إلى الخلف شرع بالتسلُّق على سفح الممشى، وخلال لمحة عين صار يعلوني عشرين متراً.

كان يصعد كالعناكب، بسرعةٍ وخطواتٍ مدروسة. أرسى الحبلَ بنتوءٍ صخريّ، وأشار إليَّ بالمجيء إلى الأعلى، إذ كان سحبه موثوقاً بسرجي عبْر حبلٍ غليظ.

دوَّت أصداء طلقة في الغاب.

كانوا لا يروننا، لأنّنا خلف السفح، فيُطلقون النار عشوائيَّاً، لكنَّهم

يتقدَّمون. كنَّا على دراية أنّ بينهم رجالاً من جبال الألب لا يعرفون جبالنا، لكنَّهم يُتقنون التسلُّق.

كان الممشى عموديَّاً وقاتماً.

ضمَّ بييترو الحبل وشدَّهُ، ورحتُ أتشبَّث حيث بدا لي أنّه تشبَّثَ. ما يهمُّ هو أن أُحافظ دوماً على ثلاث نقاط ارتكاز، ويجب ألَّا أنسى الثالثة أبداً، وهي القَدَم التي تنهض.

بدأتُ بالتسلُّق وأنا أسحب جسمي نحو الأعلى، مَوطئاً تلو مَوطئ، وركيزة تلو ركيزة.

كان الصَّدْع من الداخل أشدَّ ظلمةً، والصخر أبرد. حتَّى السماء، البعيدة ما وراء السفوح التي ترتقي في اليمين وفي الشِّمال، كانت مغطَّاة بنتوءات صخريّة، ولا يصل منها سوى انعكاس ضوءٍ ساطع. وإذا بدت الأشياء متَّسقةً من الأسفل أو من البعيد، غدت متنافرةً في الممشى. استأنف بييترو الصعود بحثاً عن نتوءٍ يُثبِّتُ عنده الحبل.

كزرتُ أسناني وأنهضتُ نفسي، مجهدةً ومغشية البصر. ومن دون أن أعيَ وصلتُ إلى النقطة التي كان قد حطَّ فيها.

«تشبَّثي بهذا النتوء!» صاح.

كان قد صَعِدَ كثيراً في الأثناء، وصل إلى منتصف الجدار تقريباً، على ارتفاع خمسين متراً عن الأرض.

لا يفوقه شيء سوى الجُلْمُود الضخم الذي يحجب الرؤية، وعجزتُ عن تصوُّر أنّنا سنتمكَّن من الالتفاف حوله.

تشبَّثتُ بالصخرة جيِّداً، وانتبهتُ أنّ أصابعي تصلَّبت، وأصبحت بنفسجيّة. حاولتُ أن أُغلقها وأفتحها ثانيةً، لكنّها لم تستجب.

«لا تنظري إلى الأسفل» صاح بييترو. فنظرتُ إلى الأعلى، بينما كان يتقدَّم بمسارٍ مائل. «تعالي. ببطء. لا تستخدمي ذراعَيْكِ أكثر ممَّا ينبغي».

بحثتُ عن الموطئ الأوَّل بالقَدَم اليمنى، ثمَّ الموطئ الذي يعلوه بالقَدَم اليسرى. كان عليَّ ألَّا أُتعِبَ يديَّ، أعرف أنّ العضلات قد ترتخي سريعاً، ويجدر بي أن أُحاول الاعتماد على ساقَيَّ. ليس قُبَالَتي سوى صخرة صلدة؛ وفوقي، ما بين الشروخ تعصف ريحٌ عاتية، وتحتي في الوادي، يتناهى إلى مسمعي عند ذلك الارتفاع خريرُ مياه نهر سافوتو.

وفجأةً تنطلق رصاصتان في غاية القوّة نحونا.

بُمْ. بُمْ.

نظر بييترو إلى الأسفل عندئذ.

«هؤلاء الأوغاد يجيدون التسلُّق» قال.

أدركتُ أنّهم اجتازوا الغاب والدرب الحجريّ، وربَّما كانوا يسيرون نحو الإفريز. وإذا قطعوه، فهذا يعني أنّهم سيصلون إلى حيث صَعدْنا، ستّين متراً تحتنا. وكانوا سيصطادوننا صيد الحمام، وسنموت معلَّقين بالحبال – إن لم تنقطع – أو متدحرجين نحو الهاوية. وإذا تحقَّقت الحالة الأولى توجَّبَ عليهم الصعود للاستيلاء على الذهب الذي أحمله على كَتِفَيَّ.

صاح بي بييترو ثانيةً ألَّا أنظر إلى الأسفل. فرفعتُ أبصاري صوب الصخرة، الرماديّة اللامعة، الوعرة والملساء. ثمَّة مجرى ماء ينسكب

من القمَّة، ويبلِّل الصخرة حتَّى الإفريز، ويهبط على شكل شلَّالٍ صغير. نمَتِ الطحالب الخضراء والبنفسجيّة في الشروخ. وكان عليَّ أن أمرَّ من الجانب الآخر للمياه شرط ألَّا أنزلق على الصخرة المبلَّلة. هذا ما دفع بييترو للصعود بمسارٍ مائل. كانت غايتي أن أصل إلى حيث ثَبَّتَ الحبل، قرابة الخمسة عشر متراً فوق رأسي. وعليه ينبغي لي أن أعبر المنطقة المبلَّلة، في حين أنّ أصابعي فقدت حساسيَّتها. هل كان الحبل سيحتمل الضغط إن سقطتُ؟ هناك شقٌّ بجانب الشلَّال الصغير، لا يفوق عرضه شبراً، ممتدٌّ عمودياً حتَّى القمَّة. هل استند إليه بييترو؟ لم أكن أرى شيئاً.

مددتُ ساقي، واتَّكأتُ بقدمي اليسرى في داخل الشقِّ.

وحدث الأمر خلال لحظةٍ واحدة.

انزلق حذائي على الماء، فاختلَّ توازني إلى الخلف. فلتت يداي، وانفصلتُ عن الجدار.

طرتُ حوالي خمسة عشر متراً، وأحسستُ بخضَّةٍ مروِّعة كأنَّها انفجار، على صدري وظهري، وحيث ينعقد الحبل على كَتِفَيَّ.

ثمَّ جرَّتْني قوَّةٌ عنيفة نحو اليمين، فتشقلبتُ كُلِّيَّاً، ورحتُ أتأرجح مثل رقَّاص الساعة.

«دعي عنكِ هذا» صاح بييترو «توقَّفي! لا تتحرَّكي!»

كنتُ بالكاد أفهم ما يقول. لكنَّ السقطة جعلت عضلاتي ترتخي، وما عادت ساقاي ترتجفان. انطلقت رصاصة بندقيّة من تحت، وارتكبتُ خطأ النظر إلى الأسفل.

كنتُ معلَّقةً على بُعد عشرين متراً من نتوءٍ صخريّ، لكنَّ ما تحتي كان فراغاً يفوق الخمسين متر.

كنتُ أرى الإفريز والمسلك الحجريّ، والغاب في الأسفل، والنهر في العمق، يجري مثل ثعبانٍ داكن اللون.

كنتُ مشلولةً، لا أستطيع الحركة، فالرهبة جمَّدتْني.

انقذفت طلقةٌ ثانية، فثالثة.

وما زال بييترو يصيح، لكنّني لا أسمعه. لم أعد أسمع شيئاً، إنمّا أردتُ أن ينتهي هذا كلَّه، أردتُ أن أموت. أغمضتُ عينَيَّ، واسترخيتُ.

أحسستُ بخضَّة، ثمّ بأخرى. استطاع بييترو أن ينزل حتَّى المستوى الذي ربط عنده الحبل، وكان آنذاك يسحبني إلى الأعلى بقوَّة ذراعه. وهكذا من دون أن أعي، وصلتُ أنا أيضاً إلى المستوى.

وكان الرماة في الأسفل يجتازون الركام الصخريّ.

كانوا سيصلون عاجلاً إلى الإفريز، ويباشرون الصعود. ما زال أمامنا قرابة الثلاثين متراً، ثمَّ نبلغ القمَّة، ونتّخذ المسلك الحجريّ الذي يهبط إلى الغاب من جهة الجبل المعرَّضة للشمس.

نظرتُ إلى الأعلى.

كان حبل بييترو موصولاً بشيءٍ بدا كأنّه مسمار، خمسة عشر متراً فوق رؤوسنا. لكنّني عجزتُ عن الحركة، من جديد.

«نكاد نفعلها، يا ماريّا. استعجلي».

كان سيصعد ويسحبني حتَّى المسمار، ويربطني هناك ريثما يبلغ القمَّة. لكنّني لم أكن أتجاوب.

«ماريّا، ماريّا!» كان يناديني «استيقظي، وإلَّا قتلونا!»

استطعتُ أن أنهض على قدَمَيَّ، وبدأ بييترو بالصعود.

وكانت أصوات الجنود تُحشَر في المضيق وتُدوِّي.

وصل بييترو إلى المسمار بحركاتٍ قليلة. غرس قدمَيْه، واستطاع أن يسحبني بآخِرِ قواه المتبقِّية.

صرتُ أتدلَّى من المسمار حينها، وقدماي ترتكزان على نتوءٍ صخريّ.

وفي غضون ثوانٍ توقَّل الأمتار العشرة الأخيرة وبلغ القمَّة.

وسرعان ما صرتُ هناك أنا أيضاً.

لقد نجونا. لم نخسر الحرب بعد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

41

التقينا بالآخرين في العزبة المهدَّمة في غابة فالّيسترو، وباكّا معهم أيضاً. كانت في حالٍ يُرثى لها، تعرَّضت لاعتداء في أثناء الطريق، أسفر عن جروحٍ نازفة في الصدر وأُذُنٍ مجذوذة. وكانت تئنُّ من الألم، مثلما كنتُ أعرج وبمشقَّةٍ أقف على قدَمَيَّ، لكنّها لم تطأطئ رأسها قطُّ بحثاً عن مداعبة. عالجتُها بكمّادات صمغ الصنوبر الأرزيّ ونقيع فُطْر الغرقون الأبيض، من أجل تعقيمها. كانت باكّا عطشى أكثر من أيِّ شيء آخر، تتركني أُملِّس صدرها وأُذُنها، مستلقيةً مع أنّها متيقّظة، بارزة الأنياب. وبينما كنتُ أُداعبها أسألها: «هل كانوا كثرا؟» فتنظر إليَّ، وتستوعب أنَّ بي شيئاً ليس على ما يرام. وهكذا، تُخفِض خطمها وتحدِّق إليَّ، مثلما كانت قنشنزينا تفعل في صغرها، وتلعق يدَيَّ، وذراعَيّ، ووجنَتَيَّ. كنتُ في حاجةٍ إلى التأكُّد من أنّني ما زلتُ على قيد الحياة.

وكان بييترو يجول في أنحاء العزبة متوتِّراً.

«لقد خاننا أحدهم» فححتُ وأنا أجترع القطرة الأخيرة من المشروب «لا يمكن للرماة أن يعرفوا موضعنا دون أن يخبرهم به أحد. لقد ضممنا رجالاً إلى العصابة أكثر من اللازم».

كان بييترو يسمعني ويفرك يدَيْه ولحيته. يراقب الرفاق، ولا بدَّ أنَّ أحداً يراقبنا. كان غاضباً، وكنتُ أتحاشاه، وتتوسَّطنا باكّا دائماً، فإذا دنا عوت وهدَّدت بالهجوم عليه.

قرَّرنا حينذاك أنّنا سنرحل عن كالابريا مع قدوم الشتاء.

كنَّا في أواسط نوفمبر، ومن الغرابة أنّ الثلج في ذلك العام لم يتساقط بعد. ومن الخطورة البقاء عالقين في ملجأ أو كهف. من الضروريّ أن نُشتِّي في إقليم دوترانتو.

شرعنا بالمسير في نهاية الشهر، متوتِّرين مثلما لم نكن عليه من قبل.

قطعنا السيلا الكبرى كلّها، ودخلنا في بولّينو. ووصلنا إلى مقاطعة بازيليكاتا بعد أربعة أيّام، وعبرنا نهر كراتي إلى دوريا، وانعطفنا نحو بوليكورو. كان علينا أن نسير حتَّى غراڤينه، ففي جبل إمبراتوره لدينا أحد المعارف الذي نُعوِّل عليه في إيجاد ملاذٍ آمن، لعلَّنا نقضي الشتاء فيه.

ولكنْ، قبل بلوغ بوليكورو، بعد عشرة أيَّام من المشي، لاقانا عميل كارميني كروكّو القائد العامّ لعصابات بازيليكالاتا، وحذَّرنا أنّ سيرتوري دفع جنوده إلى برنالدا، بغية الإيعاز إليهم بالزحف إلى كالابريا.

كانوا يلتفُّون علينا من الجهة المعاكسة.

«خَوَنَة» همستُ بغيظ «لقد أُخبِروا، هذا مؤكَّد. أفشى أحدُنا تحرُّكاتِنا». كنتُ أنظر إلى دراغو، ديمونيو والشقيقان مالياري، والشكُّ يساورني في واحدٍ منهم.

نمنا ليلَتَيْن في تلك العزبة، ونحن نشعر أنّنا أرانب في مَرمَى الثعلب، مطاردين، إلى أن حسمنا أمرنا في النهاية.

في صباح اليوم الثالث استدعينا الرجال كلَّهم إلى اجتماع. هو الحلُّ الأنسب، تشاورنا فيه أنا وبيترو طوال الليلة الماضية.

«ستتفرّق» قال بييترو. حاول ديمونيو أن يقول شيئاً، فأسكتوه على الفور.

كانت الفكرة هي أن نخلِّف وراءنا مَنْ غدر بنا.

تعافت باكّا، مع أنّها ظلّت واجفة، تعوي وتولول إلى النجوم.

كنّا أنا وبييترو، وماركيتّا، ويوريلّو، وأنطونيو ورافّايلي سنعود إلى كالابريا، لنحتفل بعيد الميلاد مع عوائلنا، إذ كنّا نشعر بدنوِّ النهاية، فأردنا أن نرى أهلنا. أمّا الآخرون – دراغو، ديمونيو، الشقيقان مالياري، وأولئك الذي انضمُّوا خلال الأشهر تباعاً – فليتّخذوا الطريق التي يشاؤون.

كان ماركيتّا ويوريلّو يعرفان مكاناً يبدو أنّه مثاليّ. هو برجٌ سابقٌ لجامعي الكستناء، بيتٌ مهدَّم، عشٌّ نسرٍ على سفح صخرةٍ بجوار منحدرات يوميتشيلّو، يبعد عن كاوزلي وماكيا ساعة ونصف من المسير لا غير.

كان المكان حصناً منيعاً، يعجز مَنْ لا يعرفه أن يعثر عليه، وهو مخزن كانوا يُجفِّفون فيه الكستناء في الماضي، ويُحوِّلونها إلى يبيس قبل أن يبيعوها. وعلاوةً على كونه خير مأوى، كان المكان يُسهِّل علينا الفِرار بسهولة، وذلك لموقعه تماماً في نهاية الطريق، الدرب العشبيّ القديم الذي يفضي من بيداتشي إلى تيمبونه تينّا وتيمبونه برونو، الجبلَيْن اللذَيْن يشرفان على وادي نهر كراتي. وهناك، ما بين الجبلَيْن، ثمَّة طريقٌ إلى البحر، تلك التي تؤدِّي إلى سيباري في خلال ستَّة أيَّامٍ أو سبعة.

أراد بييترو أن أنزل معه في غرفة التجفيف الخشبيّة القديمة، فحقَّقتُ له مراده.

كانت الغرفة دائريّة، مَوبوءة برائحةٍ ثاقبة مائلة إلى حلاوة الراتينج والكستناء. وفي جانبٍ منها، على ارتفاع متر ثمَّة حصيرة قصبيّة، وجذوع كستناء محفوفة، تسند ألواحاً كانوا في الماضي يضعون عليها أوراقاً يابسة. وتُوقَدُ تحتها نارٌ هادئة ومتواصلة، وذلك ليُخلِّصَ الدخانُ الكستناءَ من الطفيليَّات، ويجفِّفها الدفء. وعندما تيبس تباع قشورها موادَّ قابلة للاشتعال، لكنَّ غرفة التجفيف آنذاك استحالت طَلَلاً.

أعددتُ مرقد إبر الصنوبر عند أقدام الحصيرة، وأخفيتُ صرر الذهب تحت ألواح الكستناء. أمَّا ماركيتّا ويوريلّو ورافّايلي وأنطونيو، فقد أعدّوا مراقدهم في مغارَتَينْ مجاوَرَتَينْ. كان الهواء نقيَّاً، والريح قارسة وباترة. تبقَّى على الميلاد بضعة أيَّام، ولمَّا تُثْلِجْ بعد.

في الليلة ما بين 22 و23 ديسمبر، أقدَمَ رافّايلي على أمرٍ خطير: انطلق قبل الفجر إلى كازولي.

أراد أن يأتي بأُمِّي وڤنشنزا وسالڤو وأنجلينو إلى عشِّ النسر ذاك، بحيث نتغدَّى معاً. وكذلك ذهب أنطونيو للإتيان بفرانشسكا وإيلينا، كنَّا سنُقيم احتفالاً كما ينبغي قبل وصول الثلج والزمن العصيب. تزوَّدنا بالمؤن من عاملٍ في إحدى العُزَب، وصار لدينا ما يكفي من الطعام والنبيذ لغداءٍ حقيقيٍّ يليق بالميلاد. فمنذ أعوامٍ ونحن لا نلتقي بعوائلنا.

كانت الشمس تفسح المجال لسماءٍ ما تزال بيضاء، عندما وصلوا في صباح الثالث والعشرين مُنهكِينْ، من ذروة الدرب العشبيّ المؤدِّي إلى برج الكستنائيِّينْ.

أُمِّي خلف رافّايلي مباشرةً، تتَّكئ على عكَّاز. كانت تعرج، وفي وقتٍ سابقٍ كُسِرَت ساقها، ولم يكن لديها نقودٌ تدفعها لطبيب، فتفاقم

الكسر كثيراً. وكانت بذراعها الحُرَّة تحمل المعطف الذي خلعتْهُ، إذ تعرَّقتْ بسبب عناء المسير. لكنَّ أُمِّي ما تزال أُمِّي، ركضتُ لملاقاتها وعانقتُها مثلما عانقتُ صنوبرتي في ذروة الوحدة ذات يوم. بدا لي حينذاك أنَّ الأشهر والسنوات المنقضية كلّها ساقتْنا إلى ذلك العناق. أن تعيش من دون أن ترفض أيَّ شيء من الحياة، هذا ما كانت عليه والدتي. أمَّا ڤنشنزا، صغيرتي ڤنشنزينا، فكانت في الثامنة عشرة، وقد أصبحت امرأة، تتفرَّد بجمالٍ يقطع الأنفاس. ضمَّتْني والدمع يغرورق في عينَيْها، وسرعان ما وشوشتْني بصوتها الناعم والحلو: «لقد سامحناكِ، سامحناكِ منذ اليوم التالي. ليس نحن فحسب، إنّما أهل البلدة كلّهم. كان الجميع يكرهها، تيريزا». كان سالڤو منعزلاً، فإذا هو يركض لمعانقتي أيضاً، وكذا فعل أنجلينو. أصبحا رجُلَيْن كبيرَيْن وضخميْن آنذاك، ويتشابهان كثيراً، وقد ورثا عن والدي عينيْه الطيّبتيْن.

أتينا بالحصيرة من غرفة التجفيف، لنصنع منها طاولة كبيرة، وبسطنا الأرض بوسائد الأغصان وأوراق الزان.

كانت والدة بيترو قد أعدَّت الباستا بالفرن مع البيض ولحم السوبريساتا، وإيلينا حلوى التوريديل بالعسل وخمرة العنب المطبوخة. أمَّا والدتي، فلم تجلب سوى مقلِّيات البطاطس، لا سيَّما تلك التي على شكل يسوع الطفل، ولعنت نفسها، لأنّها لم تتمكّن من طَهْي شيء، إذ إنَّ رافّايلي جاءهم على غفلة عند الفجر، وأرغمهم على الخروج بأقصى سرعة.

لم تمسّ باكّا شيئاً من خيرات الله تلك كلّها. حضَّرنا لها طبقاً من البيض واللحم المقدَّد، لكنّها لم تتذوَّقه حتَّى. كانت تجول مضطربة، وعويلها يصدح إلى السماء، وتركض على الدرب المؤدِّي إلى تيمبونه برونو.

لحقتُ بها غير مرَّة وسط الأشجار، والبندقيّة في يدي. ولكنْ، لا شيء هناك ولا أحد، فبدت أنّها تتسكَّع في العدم كأنّها تائهة.

أوقدنا ناراً لإبعاد الأرواح الشرِّيرة، وأخرج يوريلّو القربة. فشربْنا، ورقصْنا وغنَّيْنا حتَّى المساء تقريباً: ڤنشنزا مع أنطونيو، وسالڤو مع إيلينا، وماما مع بيترو، وفرانشسكا مع ماركيتّا الذي جعلها تدور حتَّى أفقدها التوازن، كما لو أنّنا لم نكن في حرب، كما لو أنّ العدوَّ لم يكن على بُعد خطواتٍ عنَّا، كما لو أنّ إيطاليا بلدٌ عادل. كلُّ شيء في تلك الساعات عاد إلى مكانه الطبيعيّ، كلُّ شيء كان معلَّقاً، والعالم متألِّقاً بضوءٍ شديد البهاء، الضوء الذي يتنزَّلُ من الشمس في أثناء غروبها. إلَّا أنّ كلَّ شيء قد انتهى بعدئذ، دام زمناً طويلاً حتَّى تبدَّد. توجَّبَ على أهلنا اتِّخاذ طريق العودة قبل أن يحلَّ الظلام. وكان رافّايلي وأنطونيو سيرافقانهم إلى مشارف كازولي وماكيا.

تودَّعنا ونحن نتعهَّد بلقاءٍ قريب، مع أنّنا نعلم أنّه لن يتمَّ، وأنّه إذا انتهت الأمور على ما يرام واستطعنا الإفلات من رماة سيرتوري، فإنّنا لن نلتقيَ إلَّا عند نهاية الحرب، في بيوتنا، بالخفاء، في بعض الليالي المقمرة.

وهكذا مضت أُمِّي وڤنشنزا وسالڤو وأنجلينو صامتين على الدرب صُحْبة والدة بييترو وشقيقته، ولم تستغرق ظلال الزان سوى لحظةٍ واحدة لابتلاعهم.

وحينئذٍ نبحت باكّا لِلَفْت انتباهي وانتباه بييترو. ألقت علينا نظرة راسخة، لم تُوجِّهها إلينا من قبل. ثمَّ ركضت خلف المجموعة، دون أن تلتفت.

وسرعان ما لحقتُ بها، وناديتُها، وصحتُ عليها بأن ترجع. لكنّها

حادت عن الطريق فجأةً، وابتعدت لتختفي بسرعة في دَغَل الغاب الكثيف.

ركضتُ خلفها بينما ذهب بييترو ليبحثَ عن مصباح الزيت.

«باكّا! باكّاااا!» كنَّا نصيح «باكّا، ارجعي! باكّا! أين أنتِ؟» فلم يرجع سوى صوتنا وصداه من بين الأشجار.

بحثنا عنها طيلة ساعات بين شجر الزان، ونادينا باسمها. لكنّها لم تعد هناك. قرَّرتْ أن ترحل. وإنّي متأكِّدةٌ الآنَ من أنّها تنبَّأت بما كان سيقع.

عندما عاد أنطونيو ورافّايلي بقينا نتسامر ونشرب حول النار. كان بييترو متوتِّراً للغاية.

شعَّ ضوء البدر من سماء ديسمبر الصافية والمتجمِّدة. وكان عشُّ النسر ملجأنا يهيمن على الوادي، ويجعلنا نشعر بالوحشة.

رحلت باكّا، وبينما كنَّا نشرب راودتْني هواجس الخيانة والموت. لكنَّ الثلج الذي سبقتْهُ رائحته من ناحية تيمبونه تينّا، كان مخلوقاً لدَحْر نُذُرِ الشؤم وإغفاء الهواجس.

ذهبنا للنوم بعد منتصف الليل، أنا وبييترو في غرفة التجفيف، والآخرون في المغارة. تساقطت زخَّاتٌ من مطرٍ كثيفٍ وبارد.

حاول بييترو أن يُضاجعَني، على المرقد، مخموراً، لكنّي تصدَّيتُ له بأظفاري. فاكتفى بذلك الرفض – المتكرِّر – لينفجرَ غضبه.

«لقد أنقذتُ حياتكِ، على الجبل» قال «وأنتِ ترفضينني. حياتكِ لا تساوي شيئاً من دوني».

كنتُ أرفضه منذ أسابيع، لكنّه كان موقناً حينها من أنّني كنتُ سأتركه يفعل ما طاب له، بسبب أنّه أنقذني. إلَّا أنّ إهاناته تلك كانت أصعب عليَّ من السقطة من جبل سكورتشافوي. ففي تلك الحالة، كنتُ سأتحطَّم على الأرض، وينتهي كلُّ شيء، أمَّا إهاناته، فكانت تُثقل على كاهلي، ولا تبارحني لحظةً واحدة. لقد مات جزءٌ منِّي أساساً، فلم أكن لأسمح بموت القليل الذي تبقَّى.

فجُنَّ جنونه لأجل هذا.

«أنتِ زوجتي!» صاح «أنتِ زوجتي، ويجب أن تنامي معي!»

راح يُمسكني من معصمَيَّ ويبرمهما.

وكنتُ أتلوَّى وأُرفِّس.

شعرتُ أنّ العنف كان آتياً مثل فيضانٍ ثائرٍ من شأنه أن يجرفَنا إلى الوادي معاً، أو أن يسقط علينا من الأعلى مثل انهيالٍ أو زلزال؛ كان عنفه زلزالاً كاسحاً يسحقه أوَّلاً، ومن ثمَّ يتَّجه نحوي.

أنزل بنطلونه، وأسقطني أرضاً برميةٍ مباغتة وعاتية، كأنّها الهزَّة الأولى. ثمَّ انقضَّ عليَّ وبدأ يخلع بنطلوني بغضبٍ ماحق، يُهشِّم القماش. كنتُ أقاوم، لكنَّ فيضانه أعتى. كان بيترو في المواجهة النهائيّة، يُفرِّغ عنه حياةً، ملؤها النزاعات والهزائم.

كنتُ أشتمه، وأحاول ركل ما بين ساقَيْه في حين يأخذني إليه، ولكي يُثبِّتَني كان يضربني على خاصرتيَّ وذراعَيَّ – كالهزَّة الثانية والثالثة من الزلزال – وكان الانهيال عنيداً وقاهراً.

لا مهرب لديَّ. ورغم هذا كلِّه حاولتُ النهوض، والتقاط الأنفاس، وإيجاد منفذٍ للتنفُّس والفِرَار، ولكنْ، ما من سبيلٍ لإيقاف شلَّاله، كأنَّ جسده هو الذي يتفاعل ويبتغي أن يتفرَّغَ من نفسه، ولقد فعلها حينذاك، في الذروة الأخيرة.

لم يهدأ إلَّا عندئذ، ومثل أيِّ كارثةٍ طبيعيّة خلَّفَ صمتاً خرافيَّاً: بييترو، الجبل الضخم المكوَّن من حطام، انقلب على أحد جانبَيْه.

وسرعان ما غلبه النعاس.

بات يتنفَّس بخفَّةٍ كالأطفال، بعد أن حرَّرَ ما في نفسه، غير مكترث بالضرر الذي سبَّبَه.

وإذ، في قلب الليل، مزَّقَ الدَّوِيُّ الصمتَ، وأضاء برقٌ باهرٌ غرفة التجفيف.

انتفضتُ جَفِلاً، والصفير يصمُّ أُذُنيَّ، ورائحة البارود تملأ مَنْخَرَيَّ.

حتَّى بييترو، بجانبي، أخذ يُلوِّح ذراعَيْه في الظلام كمَنْ يقيَ نفسه من ضربةٍ أحسَّ أنَّها تقترب.

هي رصاصة بندقيّة شقَّقت الهواء، أطلق أحدهم علينا النار من الخارج.

فأدركتُ على الفور أنّ الطلقة الأولى كانت لمجرَّد تأمين الإضاءة في الظلمات. ستتبعها أخرى باكراً، بعد انقضاء لحظة، لحظة تدوم طويلاً.

رأيتُ طيفاً على الباب يحمل بندقيّة.

وكان بييترو حينذاك متيقِّظاً وصاحياً كُلِّيّاً، ينظر إلى الطيف بعينَيْن جاحظَتَيْن ومذعورَتَيْن. كان كلُّ شيء في نظرته واضحاً: فهم على الفور، مثلما فهمتُ أنا، أنَّ الخيانة كانت تُرتَكَب.

كقِطٍّ برِّيٍّ حاول أن يقف على قدمَيْه، وأن يرتميَ إلى الجانب، وأن يتلولب على نفسه ليتفادَى المحتوم. لكنّني، ومن دون أن أُفكِّر، تشبَّثتُ بسفح ذلك الجبل الذي هرسني منذ قليل، واستبقيتُه في مكانه. كان جبلاً ضخماً، وآنَ له أن يحميَني.

ومثل التهشُّم المفاجئ الذي تسقط به أقوى الصنوبريّات الأرزيّة، كذلك في ليلةٍ ماطرةٍ حرَّرَ الزرياب الذي كنتُهُ جناحَيْه أخيراً وبسطهما للمرَّة الأولى. وعرفتُ منذ تلك اللحظة أنّه لن يُغلقهما أبداً.

وهكذا حدث، في ليلة 24 ديسمبر عام 1863، في مخزن الكستناء، زرعتُ بيني وبين خوفي بستاناً، كبيراً، مهيباً، جليلاً، بالتشبُّث بظهر زوجي، وباتِّخاذ جسمه درعاً.

بُمْ.

ومضة.

مباغتة، مثلما كنَّا نتوقَّعها.

طلقةٌ، قويّة، في منتهى القوَّة، ربَّما لم أسمع في مثل قوَّتها على الإطلاق.

بُمْ.

أطلق الطيف على هذا الجبل الذي استبقيتُهُ، فأضاء البرق طيفاً آخر، جانياً كما الأوَّل، ويقف خلفه.

كانوا قد خانونا، بل كانوا يخوِّنوننا. اثنان من رفاقنا قَتلا بييترو للتوِّ.

ثمَّ سقطت البندقيّة.

ثمَّ لاذ الخائنان بالفِرَار، مسرعَيْن، على الأرض المبلَّلة وعلى أوراق الشجر.

وها هو زوجي، على حين غِرَّة، ميتٌ بين ذراعَيَّ.

42

سمع رافّايلي وأنطونيو الرصاص، وخرجا هلعاً من المغارة. ظنَّا أنّ رماة سيرتوري قد وصلوا، فباشرا إطلاق النار نحو الدرب العشبيّ النازل إلى البلدة.

ولكنْ، لم يكن للرماة أثر، في حين اختفى ماركيتّا ويوريلّو.

«خَوَنَة!» صرخا معاً.

تدحرج رافّايلي وأنطونيو إلى الغاب، والليل ما يزال دامساً، وبحثا عنهما لساعات، وقد أعمى الغضب أبصارهما، وقطعا النهر، واندفعا نحو سيرّا بيداتشي، وتسلّقا القِمَم، ومشَّطا الكهوف.

أمَّا أنا، فقد بقيتُ طوال الوقت متحجِّرةً في برج الكستنائيِّيْن، وجسد زوجي بين ذراعَيَّ، أبكي الموت والغدر، والحركة التي ساعدتْني على تجاوُز خوفي. دخلت الطلقة من صدره، وخرجت من ظهره، وأصابت معصمي من حيث احتميتُ به.

مزّقتُ وِصْلةً من القميص، وصنعتُ منها ربطةً لإيقاف النزيف، ثمَّ بقيتُ هناك، قابعةً، أُراقب مثلما يتعلَّم الزرياب الصغير بسط جناحَيْه. كان الموقع الأقرب للجيش الإيطاليّ في دَيْر سان دومينيكو، حيث سجنني فوميل. وأمامنا ستُّ ساعات، أو ربَّما سبع، حدَّاً أقصى

لمغادرة عشِّ النَّسْر اللعين ذاك، قبل أن يأتي ماركيتّا ويوريلّو للقبض علينا مع بقيّة الجنود.

تمكَّنتُ من رفع بييترو بمشقَّة، وتمديده على الحصيرة، وأزلتُ عنِّي الدماء، وجلستُ في الخارج عند النار الموقدة، أنتظر أن يطلع اليوم الأوَّل من حياتي الجديدة.

عاد رافّايلي وأنطونيو مع بزوغ الفجر، مُرهَقَيْن ومَقهورَيْن.

«لا شيء» قال شقيقي «لم نعثر عليهما في أيِّ مكان».

«علينا أن نرحل» قلتُ «سيصل جنود سيرتوري عمَّا قريب».

«ماذا سنفعل؟» سألنا أنطونيو، وهو ينظر نحو برج الكستنائيِّيْن، حيث كان جسد بييترو موناكو مستلقياً.

كنَّا نعلم ما الذي ينبغي فعله، ولكنْ، من الصواب أن تخرج الأوامر من عندي، فقد أصبحتُ قائدة عصابة بييترو.

«سنحرقه» قلتُ «سنحرق كلَّ شيء».

ما كنتُ لأسمح لسيرتوري أن يستوليَ على جسده، ليجزَّ رأسه ويُنكِّلَ بها. أخذنا صرر الذهب، وأضرمنا النار في المخزن.

أقمنا في إحدى العُزَب ليلَتَيْن، لم يغمض لي جفنٌ خلالهما، إذ سكن ذهني صوتُ بييترو ووجهه. ثمَّ حصلنا على ثلاثة خيول، ووصلنا إلى غاب كورڤو، في إقليم سبيتسانو الأكبر. صار بإمكاننا أن نضرب بسرعة، وننسحب بسرعة كالحِدَأ الجبَّار.

اضطررنا إلى الكفِّ عن عمليَّات الاختطاف، لذا كنَّا نُغير على عُزَب

اليوم كلّه في السيلا: بارونات، كونتات، ونبلاء. كنَّا نضرب في الليل، مثلما فعلنا أوَّل مرَّة على بيت غولّو. نصل مدجَّجين بالسلاح حتَّى أسناننا: مسدَّسَيْن، بندقيّة وسكِّينَيْن لكلٍّ منَّا. نجبر أحد المزارعين على فتح البَوَّابة، وإرشادنا إلى غرفة نوم أسياده، فنُكبِّلهم ونسرق كلَّ ما تقع عليه أيدينا. ثمَّ نُحوِّل النقود الدوقيّة إلى ذهب، ونُوزِّعه على الفلاَّحين.

وكان خبر اقتراب جنود سيرتوري يردنا من عملائنا غالباً، وازداد الخبر إلحاحاً. فإذاً حانت لحظة الانسحاب حتَّى مطلع الربيع. لم يعد بوسعنا القتال، ليس في تلك الفترة على الأقلّ. كنَّا نوشك على خسارة الحرب، ولم نشأ إدراك الأمر. فاجترنا نهر نيتو: ففي قلب غاب كوكّوري مغاراتٌ نعرفها.

اختبأنا طيلة أسابيع، كالدِّبَبَة. يا له من صمت! صمت تتوالد فيه خيالاتٌ وآمالٌ جديدة.

انفردتُ بمغارةٍ لي وحدي، بينما تشارك رافّايلي وأنطونيو كهفاً أكبر على مقربة.

كنتُ آكل أوراق الشجر، والحشرات، وأصطاد بالمقلاع لئلَّا أُحْدِثَ دَوِيّاً بالبندقيّة. وفي الظهيرة، في ساعاتها الحارَّة، كنتُ أذهب إلى النهر، أتعرَّى وأغمر جسدي بالماء. وأجمع الفُطْر، وبين الحين والحين أصطاد أرنباً برِّيّاً وأشويه. أُوقد النار وأُصلِّي للرَّبِّ، قُبالَة مذبحٍ صغيرٍ ومُبتذَل من خشب وحجر. وأُغلق فتحة الكهف بكثيرٍ من الحجارة، ولا أترك إلَّا ثقباً. وفي الخارج تُحلِّق الصقور والحِدَأ بحُرِّيَّةٍ مطلقة.

وكانت الأيَّام تمرُّ، وأنا أدرس خطَّةً للهرب.

كنَّا سنصل إلى البحر، أعرف مكاناً بوسعنا أن نسرق منه قارباً. وكنَّا

سنصعد إلى السيلا من جديد، لنُجنِّدَ كلَّ مَنْ يطلب الانضمام للقتال معنا. وبعد أن نُشكِّل جيشاً كبيراً، مثل سبارتاكوس، كنَّا سنُباغت أعداءنا من الخلف، ونُخرِجُ سيرتوري من وكره في المقرِّ العامِّ.

وكانت باكّا تخطر في بالي. كنتُ أتخيَّل أنّها ستعود يوماً مّا. أتلصَّص من الفتحة، وأحلم أنيّ أراها قادمة، تتسلَّق الصخور ببطء، معتزَّةً، ضخمة، وفَرْوها طويلٌ وناصع. لكنّها لم تأتِ.

ذات يوم أخذتُ صرر الذهب، ورحتُ لأدفنها. السيلا مليئة بذهب اللصوص، كما يقال في البلدات. وهذا صحيح، إن كان المرء يعرف أين يُنقِّب لوجد كنوزاً.

اخترتُ أرزيّةً معوجَّة، ودفنتُ الذهب هناك، بين جذورها.

«سأعود لاسترداده» قلتُ في نفسي.

ثمَّ عثروا علينا، ووضعوا لنا نهاية. انتهى كلُّ الذي صنعناه، طوال سنوات، في القتال في الجبال، انتهى ببساطة مثلما تنتهي الأحلام مع طلوع الصبح.

في مساء 8 فبراير بدؤوا يطلقون الرصاص على المغارَتَيْن.

اعتصمنا طوال الليل، واليوم اللاحق.

اكتشفتُ أنّ رافّايلي استطاع الهرب. نجا أخي على الأقلِّ. أمَّا أنطونيو موناكو، فقد أُصيب برأسه ومات في المغارة.

وحدي أنا قاومتُ، حتَّى ليلة التاسع من فبراير.

بات أملي معلَّقاً بالثغرة التي استخدمتُها للتجسُّس على الحياة. صوَّبتُ وأصبتُ جنديَّاً.

صوَّبتُ ثانيةً، فقتلتُ جنديّاً آخر.

ثمَّ نادى قائد فيلق المشاة السابع والخمسين، النقيب باليوني، على جنديَّيْن، وأمرهما بالحَفْر فوق مغارتي، بينما كان الملازم فيرّاريس وجنوده يواصلون الرمي على الفتحة. كانوا يُطلقون النار كالمجانين، حتَّى تنفد الذخيرة، فيطلبون الإمدادات، كما لو أنّهم بقَتْلي سينتصرون الحرب.

لم يعد لديَّ طعام، لم يعد لديَّ ماء، وقد استنزفتُ الرصاص. كانوا في الخارج كثراً، كثراً جدّاً، وأنا بمفردي. فما الذي يسعني فعله؟

أحدثوا فجوةً، ولم يهبطوا، إنّما طلبوا منِّي إلقاء السلاح. كان بإمكاني أن أقتل رجلاً آخر، بالسكِّين أو بأسناني؛ ولكنْ، ما الجدوى؟ سيُجهِزُ عليَّ زميله في المكان عينه.

وهكذا ألقيتُ السلاح، ورأيتُ النور ثانيةً حجرةً تلو حجرة. كان الملازم فيرّاريس في الخارج ينظر إليَّ، مذعوراً، متوسِّطاً رفاقه.

نظرتُ إليه كذلك، نظرةً خاطفة، وأدركتُ أنّ ذلك الرجل مختلفٌ عن الآخرين: عيناه ثابتتان، صغيرتان ودامعتان، يتميَّز بهما مَنْ يعرف الجبال. عينان وحشيَّتان، مثل أعيننا.

ربَّطوني وألقوني على الأرض.

ثمَّ دخل أولئك الأوغاد إلى المغارة وراحوا يبحثون عن الذهب. حطَّموا المذبح، وكنسوا مرقد الغصينات، وحرَّكوا الحجارة. كنتُ أعلم كيف يجري الأمر: يُلقون القبض على قاطع طُرُق، يقطعون رأسه ويحملونها تذكاراً للنصر إلى أحد الضبَّاط أو الوزراء، وفي المقابل يستحوذون هم على الذهب.

رحتُ أضحك، وأنا منكمشة على نفسي أرضاً. ما كانوا ليجدوا ذهبي البتَّة. نظر إليَّ الجنود، وضربوني بمقابض بنادقهم ورؤوس جزماتهم.

ثمَّ فتح أحدهم قميصي بسبطانته.

«لديه ثديان!» صاح «لديه ثديان!»، فبدأ الجميع يتناكزون ويتصايحون ويتضاحكون.

«إنّها شيشيلاّ، شيشيلاّ الرهيبة! انتهى الأمر! قبضنا على شيشيلاّ! انتهت الحرب الأهليّة في كالابريا! انتصرنا!»

أذكر أنَّ فيرّاريس أسكتَهم. وبعدها، رَكَلَني أحدهم على رأسي، وفقدتُ الوعي.

ما أعرفه هو أنّهم اقتادوني إلى سجن كوتروني.

ما أعرفه هو أنَّ هذا اليوم هو 10 فبراير 1864 وأنّني مسجونةٌ في زنزانة ضيِّقة وقَذِرَة، جدرانها ترشح ماءً، بانتظار المحاكمة التي ستنعقد في المحكمة العسكريّة الاستثنائيّة في كاتانزارو.

لن يحاكمَني قاضٍ، إنّما جنرال.

ما أعرفه هو أنّنا خسرنا الحرب الأهليّة، وأنّ الشعب سيستغرق وقتاً طويلاً، كي يستردَّ أرضه. حسبي أنّنا أدَّيْنا دورنا. ما أعرفه هو أنّ سيرتوري شخصيّاً هو الذي سيُحاكمني.

الجزء الرابع

حُرِّيَّة

43

الأحد 14 فبراير 1864

يصادف اليوم عشيّة الاحتفال بالقدِّيس فاوستينوس. والساعة هي الحادية عشرة، يتناهى إلى مَسمَعي قرع الناقوس في السجن. والملازم فيرّاريس، مع أنّه رجلٌ ناضج، ما زال وجهه هزيلاً ومُدبَّباً كالثعلب الصغير، مثل شقيقي رافّايلي. يأتي الملازم كلَّ يوم تقريباً في الساعة التي يجلبون لي فيها قصعة طعام الجنود – خبز، مكرونة وتوابل تزداد رداءة – يوعز لزميله الشابِّ أن يدخل إليّ، ويقف للحراسة خارج الزنزانة. سمعتُهُ في الأمس يسعل، من خلف الباب. سعلةٌ قويّة، حادَّة في الصدر. لم أصمد إزاء دافع الشفقة. كان أقوى منّي، فتحدَّثتُ إليه. بينما كنتُ آخذ القصعة، اقترحتُ عليه كيف يشفى منها، متظاهرةً بالتكلُّم مع الشابِّ، لكنّ الكلام موجَّهٌ إليه. كانت والدتي تعرف علاجاً لكلِّ مرض، «ما من داءٍ إلّا وكان دواؤه في الغاب» قالت مراراً، وقد تعلَّمتْهُ من جَدَّتي، التي كانت تستخرج دواءً من كلِّ نبتة.

لم يجبْ فيرّاريس، لكنّي أعرف أنّه كان يصغي إليَّ، لأنّه طَرَقَ بكعب قَدَمه على الباب مرَّتَيْن عوضاً عن مرّة واحدة كما يفعل عادةً. فمنذ اللحظة الأولى التي نظر إليَّ فيها، عندما كشفوا فتحة المغارة عليَّ، ليغمرني الضوء، أدركتُ أنّ فيرّاريس رجلٌ عانى في حياته. بييترو كان من نوعٍ آخر من الرجال، لا يتمعَّن في المعاناة. في المرَّة الأولى التي صحبني

فيها إلى الغاب روى عليَّ قصَّةً عن العنف والحُبِّ. عندما كان صغيراً رأى والدَه يسلخ بالساطور حَمَلاً وُلِدَ ميتاً، ليُنقذ حملاً آخر لا أُمَّ له. أخاط صوف الحمل الميت على ظهر الحمل المصاب بسوء التغذية، بحيث إنّ الأُمَّ التي فقدت وليدها تعترف به ابناً لها من رائحته وتُرضعه. وفي النهاية استطاع إنقاذه. هذه هي طريقة بييترو في إبداء الحُبِّ، ثمَّ أصبحت طريقتي أيضاً. وهذا ما جعلني أقول لفيرّاريس المسكين أن يُحمِّيَ حجرةً، ويلفَّها بغطاءٍ يحتوي بداخله على غصينات النعناع ويضعَها على صدره قبل أن ينام. وبالمقابل طلبتُ منه شموعاً، فالظلام هنا شامل. شموعٌ، وقلم رصاص وورق لكتابة هذه الأسطر قبل أن أُعدَم.

الاثنين 15 فبراير 1864

أنا ماريّا، ماريّا فحسب. شيشيلّا ماتت في المغارة حيث هُزِمنا في الحرب الأهليّة. انتهى الأمر، وشعرتُ بالارتياح. فعدم الاضطرار إلى خوض القتال بعدُ يُعدُّ انتصاراً.

ذراعي تؤلمني بشدَّة. وهي مُضمَّدة ومربوطةً بحمَّالةٍ على عُنقي، لكنّني أخشى أن يكون الجرح قد تقرَّحَ في هذه الزنزانة النتنة والرطبة. هي الزنزانة رَقْم 13، يقولون إنّها الأسوأ. البارحة نظر إليَّ الملازم فيرّاريس بشكلٍ غريب. ثمَّ صَرَفَ زميله وطرح عليَّ سؤالاً أغرَبَ كثيراً، سألني إن كنتُ يا تُرى أشعر أنّني بطلة. «بطلةُ ماذا؟» أجبتُهُ. «بطلة الجنوب» قال، بلُكْنَته الشَّماليَّة. «لن نصبح وطناً مُوحَّداً أبداً» قلتُ ثمَّ ضحكتُ فانصرف. ليته بقي مدَّةً أطول، لكنْ، ربمَّا استدعاه أحدٌ مّا أو أنّ ضحكتي أهانتْهُ. ربمَّا تكون النجاة الوحيدة هي في هذه الدوخة، أقول لنفسي في هذه الساعات التي تفصلني عن المحاكمة. أُفكِّر بأمرها وأنا أسدُّ

أنفي بسبب نتانة الزنزانة. الماء يرشح على امتداد الجدران، ومن أكثر من نقطة من السقف. اضطررتُ لإزاحة الفراش أربع مرّات، لكيلا يتبلّل كُلِّيّاً. هذا مكانٌ تشمئزُّ منه حتّى الفئران.

الثلاثاء 16 فبراير 1864

استجوبوني اليومَ طيلة ساعاتٍ لا تنتهي. سألوني عن حياتي كلِّها، فأجبتُ على سبيل الاختصار بأنّي «نسّاجة، كاثوليكيّة، أُمِّيّة». ناسَبَ هذا التعريفُ أذهانَهم. فلا بدَّ لمُزارعَة تختار الصعلكة أن تكون غبيّة. كان هناك أيضاً طبيبٌ شابٌّ يمضي على خطى سيرتوري في حملته ضدّ اللصوصيّة، رجلٌ قصير القامة ومكتنز البدن، سمعتُ عنه. ظلَّ جالساً طوال الوقت إلى جانب الهيئة، يهزُّ رأسه موافقاً، ويدوِّن ملاحظاته، ويُنعم النظر إليَّ بملامحه المضحكة والنظّارة المفردة المحشورة في حدقة عينه. هذا الرجل يُدعى تشيزاري لومبروزو بشحمه ولحمه، وقد أُوفِدَ إلى الجنوب، ليُثبِتَ أنّنا مجرمون بطبيعتنا. يطلب الاطّلاع على رؤوس اللصوص المقطوعة، ليدرس التشوُّهات الخُلُقيّة التي تحثّ على تفجير الثورات. هذا أفضل بالنسبة إليَّ، فلقد وفَّروا عليَّ ثرثراتٍ لا طائل من ورائها ما داموا سيقطعون رأسي أيضاً وينقضي الأمر عاجلاً. إلّا أنّه يؤسفني أنّ رأسي سينتهي بها المطاف على مكتب الدكتور لومبروزو. أتحسَّس رأسي بين حينٍ وحين، الآن إذ ما تزال ثابتةً هنا على عُنقي، ويبدو لي الموضوع غريباً برُمّته، وحزيناً بعض الشيء. إن كنتُ سأنجو بجِلْدي، فسوف أعيش مثلما حلمتُ دوماً منذ صغري، في قلب الجبال. سأعِدُّ كوخ خالتي زلزال، وأصنع الجبن.

أمَّنتُ لنفسي محامياً أيضاً، لم أكن أعلم أنّ لي الحقَّ في تعيينه.

ولكنْ، ماذا لديَّ لأخسره؟ لن أتحسَّرَ حتَّى الرمق الأخير إلَّا على عدم إخبار سالڤو وڤنشنزينا وأُمِّي بموقع تلك الأرزيّة المعوجَّة. سيبقى ذلك الكنز يثري السيلا إلى أن يقطعوا كلَّ شجرةٍ فيها، ويتركوا الجبال عاريةً تتفتَّت تحت وطأة الريح.

إذاً، التُّهم الموجَّهة إليَّ هي خمسة، وقد تكفي التهمة الأولى بمفردها لأُدانَ بالموت، ما يعني أنّني سأُودِّع هذه الدنيا عمَّا قريب. سيرتوري، ذلك الرجل الأحول الذي كان بيترو يجلُّه ويهابه في حين لم يؤثِّر فيَّ البتَّة، قال بكلِّ وضوح إنّني قد أكون أوَّلَ امرأةٍ تُدان بالإعدام في إيطاليا الموحَّدة. «جيِّد» أجبتُ «ستكون لي أسبقيّةٌ على الأقلِّ». ألزمني المحامي بالسكوت، فألزمتُهُ بالسكوت كذلك. ما حاجتي إلى السكوت إذا كان قتلي أمراً واقعاً؟ لم يبقَ لديَّ سوى التحدُّث، والكتابة. والفضل يعود إلى المعلِّمة دوناتي، وفوسكولو ومانتزوني، وأدباء إيطاليا الموحَّدة كلّهم، وڤيردي ورائعته «نبوخذ نصر». بفضل هؤلاء لديَّ الآنَ كلماتٌ أقصُّ بها حكايتي.

إذاً، هذه هي التُّهم. أوَّلاً: لصوصيّة. ثانياً: مقتل شقيقتي تيريزا أوليڤيريو. ثالثاً: مقتل ڤنشنزو بازيلي وأنطونيو كيودو، وفي الحقيقة لم أُنفِّذه أنا إنّما بييترو وماركيتّا. رابعاً: إصابة جوفانّي بيريلّو، عنصر في الحرس الوطنيّ في روڤيتو، ولم أعتَدِ عليه أنا إنّما ديمونيو. خامساً: عصيانٌ مسلَّحٌ لحظةَ الاعتقال وقتل اثنَيْن من الجنود الرماة.

حاولتُ أن أشرح للمحامي أنَّ جزءاً من الاتّهامات باطل، لكنّي فهمتُ أنّه هو أيضاً لم يكن يُصدِّقني. لن يُحدِثَ ذلك فرقاً شاسعاً، التُّهم الأخرى صائبة، وتكفيهم ليقطعوا رأسي. عندما تحدَّثَ سيرتوري صاح أحد الصحفيِّيْن بشيءٍ مّا ضدَّ تطبيق عقوبة الإعدام، قائلاً إنّها همجيّة،

وذكر اسم كاتبٍ فرنسيّ، فيكتور هوغو، الذي يناضل من أجل إلغائها، وصاحبنا ألكسندر دوما الذي يساند القضيّة ذاتها هنا في إيطاليا. دوما نفسه الذي حوَّلنا إلى وحوشٍ متعطِّشةٍ للدماء. إلَّا أنّه محقٌّ في تأييده لتلك القضيّة. فإن كرَّست الدولة نفسها لقَطْع الرؤوس، فهذا يعني أنّها لا تساوي أكثر من جنديٍّ، أو من قاطع طريق.

السبت 20 فبراير 1864

جافاني النعاس هذه الليلة، وعادت إلى ذهني حكايةُ المحكوم بالإعدام التي رواها عليَّ يوريلّو. يقول إنّ قاضياً ذهب لدى محكومٍ بالإعدام، وعرض عليه مقابل حياته أن يعيش على قمَّة جبل، أعلى الجُرْف، فوق منحدرٍ وعر، في مكانٍ بمنتهى العُلُوِّ، ليس في مداره سوى الفراغ، أو الوحدة، أو الظلمات، أو الغيوم أو المحيط، وليس لديه متَّسعٌ إلَّا للبقاء واقفاً من دون حتَّى القدرة على الجلوس. فماذا اختار؟ اختار الحياة بطبيعة الحال.

الحياة، الحياة، الحياة مهما تكن الطريقة! يا له من جُبن. ولكنْ، لا أحد يمرُّ في ظرفي يجرؤ على نعتي بالجبانة. أنا أيضاً أرغب في الحياة، إنّما ليس على منحدر وعر. الحياة، فكَّرتُ خلال هذه الليلة، الحياة بأيِّ ثمن. ولم أنتبه أنّني بادرتُ إلى الضحك. جاء الحارس وطرق الباب الحديد، فأصدر دَوِيَّاً شديداً، خرستُ على إثره. لكنَّ تلك الفكرة ظلَّت ماثلة في ذهني حتَّى الصباح، واستمرَّت طوال النهار، وها هي الآن ما تزال هنا وتأبى الامّحاء. الحياة. عليَّ أن أحيا! وإن حييتُ، أقسِمُ بأغلظ الأيمان، أنّني سوف أحيا في سلامٍ أبد الدهر. فنحن قاتلنا للحصول على ما هو لنا وقد هُزِمنا. لكنّنا انتصرنا بالحرب الأهمّ: آمنَّا بأنّ العدالة

ممكنة. ستتوصَّل إيطاليا يوماً مّا إلى إعطاء الأرض للشعب، أعلم. وعندما تتوصَّل إلى ذلك، سيكون هذا بفضل نضالاتنا في الجبال.

الأربعاء 24 فبراير 1864

منذ أيَّام جاء الدكتور لومبروزو لعيادتي. اقتحم الزنزانة بملامحه التي توحي بأنّه متخصِّصٌ بدراسة الخنازير، وأنعم النظر إليَّ لوقتٍ لا حَدَّ له. كنتُ قابعةً على الفراش أكتب، بعد أن أزحتُهُ عن الجدار، لأنّ السقف في تلك النقطة يرشح ماءً، ما بدا له تفصيلاً في غاية الأهمِّيَّة إذ راح يقيس الحيِّز بين الفراش والجدار. حاولتُ أن أقول شيئاً، لكنَّ فيرّاريس، الذي ظلَّ عند الباب، أوقفني. وأخذ لومبروزو يأمرني بالنهوض فأنهض. يأمرني بفتح عينَيَّ على وسعهما فأفتحهما على وسعهما. بإخراج لساني فأُخرِجُهُ كلَّه. بإبراز أسناني فأُبرزها. ثمَّ جسَّ ذراعي المضمَّدة، المربوطة إلى عنقي، والمثقوبة بالطلقة التي قتلت بييترو. «جيِّد، جيِّد» يردِّد. أجلسني واستغرق نصف ساعة في جَسِّ جبيني، أنفي، صُدْغَيَّ، أُذُنيَّ، قحْف رأسي. أعتقد أنّه كان يتخيَّل رأسي موضوعةً على مكتبه. يقال إنّه يُدوِّن على كلِّ رأسٍ اسم صاحبها وكُنيته وعُمُره وجرائمه. «ستكون ملككَ قريباً» قلتُ، لكنَّ كلامي ساء له. عبس لومبروزو. أمَّا فيرّاريس، فابتسم. ومنذ ذلك اليوم صار يأتيني لزياراتٍ خاطفة. يقول لرفاقه إنّه يريد دراستي بصفتي حالةً مَرَضيّة، لكنّي أعلم أنّه مجرَّد عذر. يتكلَّم، واقفاً، ومُولِياً ظهره إلى الباب المغلق.

كنتُ على حقٍّ، إنّه ابن جبال. عيناه لمَنْ يألف الجبال ويتوه في السهول. قَدِمَ من مدينةٍ تُدعى سوندريو، قال، لكنّه هبط إلى ميلانو في 18 مارس 1848 عندما قرَّرَ الشبَّان في تلك المدينة أن يطردوا الغزاة النمساويِّيْن بمفردهم.

«يحيا الأموات!» كانت شوارع ميلانو في تلك الأيَّام تغصُّ بذلك الهتاف، هذا ما رواه عليّ. كان الشبَّان الذين بصُحْبة فيرّاريس يعلمون يقيناً أنّهم ذاهبون إلى الموت، إلَّا أنَّ هذا لم يُثبِّط عزيمتهم. كانوا مثلنا، لكنَّهم عُزَّل، لا بنادق ولا ذخائر، شبَّانٌ وشابَّاتٌ عملوا لَيْلَ نَهَار، في صهر الرصاصات وتغليف البارود. ثمَّ توجَّهوا للقدَّاس، جميعهم، لم تشهد كاتدرائيّة ميلانو حشداً غفيراً كهذا، وطلبوا المسحة المقدَّسة. ومَنْ كان لديه مال اشترى أسلحة، في حين دهم الآخرون المتاحف، وسرقوا أقواساً سهاماً سيوفاً أمواساً رماحاً حراباً خناجرَ قربيناتٍ ومركبات. كلُّ ما وجدوه. ذهبوا إلى المسرح أيضاً، إلى مسرح سكالا، وسرقوا أسلحة التمثيل، لمجرَّد إفزاع النمساوِيِّيْن. وآخرون جمعوا القرْميْد من الأسطح، والحصى من الطُّرُقات، والطوب، والمتاريس الحديد. ثمّ أقاموا الحواجز في ليلةٍ واحدة، ورفعوا عليها حتَّى آلة البيانو. ونفخوا كرةً ورقيّة بالهواء الساخن وقذفوا بها الرسائل إلى الأرياف لتجنيد الفلَّاحين. وكانوا يستخدمون تلسكوب المرصد الفَلَكيّ لمراقبة العدوِّ. كانت حرباً جنونيّة، لكنَّهم خاضوها.

«وفي النهاية ها نحن معكم» قال فيرّاريس.

«وماذا، هل كنتُم تظنُّون أنفسكم مختلفين عنَّا؟» أجبتُ.

طأطأ رأسه، كمَنْ تبيَّنَ أنّه تحدَّثَ أكثر ممَّا ينبغي. نحن وأنتم متشابهون، سوى أنّ البوم هي التي يختلف بعضها عن بعض، وددتُ أن أُخبرُه. لكنَّه كان حينذاك يخرج.

الاثنين 29 فبراير 1864

أُراقب تقدُّمَ الشتاء من هذه النافذة الصغيرة. ولحسن الحظِّ لي

صديقة هنا، شجرة كستناء الحصان الكبيرة التي تبدو لي أنّ أوراقها تحنو على قضبان الزنزانة من حين إلى آخر. تلوَّنت أوراقها، تشعر باقتراب النهاية وتريد أن تحتفل بالحياة التي عاشتها. ربَّما ينبغي لي أن أفعل مثلها، أن أزدهي بألوانٍ تثير ابتسامة الموت عندما يجيء لاصطحابي.

أتوقَّف كلَّما تخطرني هذه الأفكار، وأحاول أن أهدأ. يعتقد فيرّاريس أنّني لن أُدان بالإعدام، فهذه ستكون سابقةٌ في وطننا إيطاليا الذي وُلِدَ للتوِّ، ولن يكون الإعدام خير رسالةٍ تُوجَّهُ إلى الشعب. لكنّني موقنةٌ بأنّهم سيحكمون عليَّ، وسيُهدون رأسي للدكتور لومبروزو - هذا هو هاجسي اللاهج. أخوض صراعاً حقيقيَّاً، فهذه الأفكار تعاود هجومها ولا بدَّ أن أتصدَّى لها. وأحياناً يتعاظم في داخلي كلُّ شيء، فأظنُّ أنَّ حياةً جديدة احتمالٌ ممكن. في داخل هذه الزنزانة المقرفة أشعر بنموِّ قوَّةٍ شديدةٍ حتَّى إنّها تبثُّ الرعب في وجداني؛ فأودُّ أن أقلب العالم، وأن أُهيِّجه، وأن أُقارع بهدف تغيير الأشياء. قوَّةٌ تعشي أبصاري، وتجعلني أشعر أنّني حَيَّة. لا بدَّ أن تندلع الثورة، وإن لم تندلع فأولَى بهذا البلد أن يخضع لحريقٍ قبل أن يهبط الليل. هكذا كنتُ أُفكِّر البارحة، وأنا مستلقية على الفراش القَذِر، ثمَّ غفوتُ.

الأربعاء 2 مارس 1864

كان فيرّاريس متزوِّجاً بفتاةٍ تُدعى كاترينا. وقد ذهبا معاً إلى ميلانو للكفاح عند حاجزٍ متنقِّل، كما كانوا يسمُّونه، خلال تلك الأيَّام الخمسة ضدَّ النمساويِّيْن. «كانت قويّة» قال «لم تكن تخشى شيئاً». قال إنَّ الجميع سمّوها جيغوجين على اسم فتاة الأُغنيَّة، لأنَّها كانت مثلها تماماً، لا شيء يخيفها. تلك الأُغنيَّة، كان الرماة يُغنُّونها في جبالنا

أيضاً، وكنَّا نسمع أصداءها في أرجاء السيلا، بمثابة إنذارٍ على وصولهم الوشيك. حدَّثني أنّ الأُغنيَّة كانت شهيرةً جدَّاً، حتَّى إنّ النمساويِّيْن أنفسهم تعلَّموها: ظنُّوا أنّها من قبيل أناشيد الأطفال في حين أنّها أُغنيَّةٌ وطنيّة ضدَّهم. وعندما خاضوا المعركة النهائيّة، في ماجينتا، بعد عشرة أعوام، زحف كلا الجيشَيْن على أنغام أُغنيَّة جيغوجين.

طلبتُ منه أن يُغنِّيها لي، فرفض. ولكنّي حين تمنَّيتُ أن يبتروا ذراعي قبل رأسي، لأنيّ لم أعد أحتمل الألم، وربَّما كانت الغرغرينا تتفشَّى فيها، غنَّاها على مَسمَعي لإسعادي، بصوتٍ خفيض: «*جيغوجين الجميلة، لالارالارا، تذهب للتنزُّه مع عشيقها، لالارالارا. في سنِّ الخامسة عشرة مارستُ الحبَّ، هيَّا تقدّمي خطوة، يا بهجة قلبي. في سنِّ السادسة عشرة تزوَّجتُ، هيَّا تقدّمي خطوة، يا بهجة قلبي. في سنّ السابعة عشرة انفصلتُ، هيَّا تقدَّمي خطوة، يا بهجة قلبي*».

ضحكتُ، قلتُ إنّ زوجته لا بدَّ أنّها كانت امرأةً قويّة بالفعل. فإذا هو يذرف الدمع ولا يكفُّ عن البكاء، متحجِّراً هناك كالأغبياء. فلقد ماتت حبيبته كاترينا عند تلك الحواجز في العام 1848 ومنذ تلك اللحظة انصرف للعيش في الجبال بمفرده.

الجُمُعَة 18 مارس 1864

طلب فيرّاريس من أطبَّاء السجن أن يكتبوا رسالة لتغيير زنزانتي. قرأها عليَّ اليوم. سنرى ما الذي سيقوله المدير. ذراعي ما تزال تؤلمني بشدَّةٍ أكبر. كما أنّ المياه التي ترشح من كلِّ مكان، والرائحة الكريهة، والصراصير، تجعل النوم مستحيلاً.

إلى السيِّد مدير السجون القضائيّة في كاتانزارو

بدافع الإنسانيّة نحيط سيادتكم علماً أنَّ المحتجزة ماريّا أوليڤيريو، التي نعالجها من المضاعفات الخطيرة لجرحها الغائر في ساعدها الأيسر، لا تستطيع البقاء حبيسةً في الزنزانة التعيسة رَقْم 13، حيث تتساقط المياه وتطغى الظلمة بشكلٍ كاملٍ تقريباً. وإنَّ هذه الظروف قد تعيق إجمالاً الجهودَ لشفاء السقم الذي قد يؤثِّر على العظام. وإنَّ سيادتكم، بما تتميَّزون به من مشاعر الرأفة، لن تدَّخروا المساعي لدى القيِّمين على الأمر، ولا الإمكانيَّات المتوافرة لديكم شخصيّاً، لكي تحصل أوليڤيريو المستضعفة على تحسُّنٍ في المعاملة يشمل الزنزانة أيضاً، بحيث يتكلَّل دأبنا على معالجتها بالنتائج المَرجوَّة.

الأطبَّاء

الأحد 3 أبريل 1864

غيَّرتُ الزنزانة منذ يومَيْن. فيرّاريس رجلٌ شهم، بعينَيْه اللتَيْن تبدوان لا تكفَّان عن طرح التساؤلات، وفمه الذي لا ينطق بأيٍّ منها أبداً. بادرتُ أنا إلى طرح الأسئلة عليه، اليوم، إذ كنتُ جالسةً على فراشٍ نظيفٍ أخيراً ليس متَّسخاً ببول الكلاب، والغريب أنّه أجاب عن أسئلتي، منتصب القامة عند الباب كالعادة.

قال إنّه ينحدر من ضيعةٍ جبليّة تشبه كازولي، اسمها بويرولو. وبعد وفاة زوجته عاش قرابة عشرة أعوام في ملجأ صغير على عُلُوِّ ثلاثة آلاف متر، في طَلَلٍ عند ذُرَى جبل رون. ولكسب كفاف يومه كان يرعى الغنم ويُنتج الجبن ويعمل مصطحِباً. فسألتُهُ ما الذي يفعله المصطحِب،

فهذه المهنة ليست موجودة عندنا. فقال لي إنّه كان يرافق إلى الذّرى قلَّةً من الناس لا يهابون الأبالسة والجنّ الشرِّير: الخرائطيّون. كان يفتح لهم الطريق، ويحمل الصرر على كَتِفَيْه. كانوا يتوقّلون في جبل بيتزو برنينا، أعجبني هذا الاسم، لرسم الخرائط بالحدود الدقيقة بين الدول، في حين يتنازع الجنود في الأسفل لإزاحتها. طرحتُ عليه سؤالاً يخصُّ زوجته أيضاً، فقد أثارت تلك المرأة الشَّمَاليَّة القويّة فضولي. لكنّه لم يجبْ، تكدَّرَ مزاجه وانصرف.

عالجوا ذراعي، وبتُّ أشعر بأنّي أفضل أخيراً بعد وقتٍ طويل، وهكذا قرَّرتُ أنّي سأكون سعيدة، على الرغم من كلّ شيء، اليومَ على الأقلّ. لا أعلم إن كنتُ سأنجح في ذلك إذا فكّرتُ بما حدث. فالبقاء هنا في انتظار الحُكْم يجعلني أجنُّ. ليس لي إلّا الجلوس على أعتاب هذه اللحظة ومحاولة نسيان كلِّ شيء، حياتي، عائلتي، تيريزا، الغاب والجبل، بييترو وضرباته، الآمال، الزواج، الخيانات ... عليَّ أن أتعلَّمَ الوقوف شامخةً عند هذه النقطة بلا دوارٍ أو خوف. وأقول لنفسي إنّ كلَّ شيء مهما كان لا بدَّ أن ينتهي، سينتهي في القريب؛ وهكذا أكون سعيدة. مثل الحيوان، تنطلق لهفتي من الأرض، وتطمح إلى السماء، إلى كلِّ شيء.

الأربعاء 20 أبريل 1864

سيصدر الحُكْم في نهاية الأسبوع القادم. وأنا هنا، مُعلَّقةً بقرار قاضٍ عسكريٍّ من جيش ساڤويا. ردَّدَ فيرّاريس مراراً أنّ الحُكْم بالنسبة إليه لن يكون حُكْماً بالموت. يقول إنّني، لكوني امرأة، سأُدان بقضاء عدَّة أعوام في السجن، ثمَّ سيمكنني العودة إلى حياتي. آمل هذا، تعروني اللهفة للعودة إلى كوخ خالتي، لترتيبها كما ينبغي، والإتيان بڤنشنزا وأُمِّي واصطحابهما

في نزهة. سأعيش على الموجود، حتّى قيامة إيطاليا جديدة. أُحاول ألَّا أفكِّر في الأمر، وأن أركِّز على الربيع الذي اندلع، وكستناء الحصان المزهرة. أرى شجرتَيْن منها، من نافذة زنزانتي الجديدة، متجاورتَيْن، زاخرتَيْن بالورود الزهريّة. بفضلهما أُجرِّب التحليق، كلَّ يوم. قد يكون الأمر مدعاة للضحك، إذ ليس لديَّ ما أصنعه وأنا حبيسةٌ هنا في الداخل. أترفَّع عن الشتيمة، أتخلَّص من الشفقة والحقد. أُحبُّ الرجال الأحرار كلَّهم. ليس الرجال جميعهم، إنّما الأحرار حصراً. والنساء خصوصاً، النساء الحرائر. كانت أُمِّي تختار شجرة الشوح البيضاء. تُرى ما الذي كانت ستختاره من بين الحيوانات؟ جَدَّتي تينوتسا حِدَأة. فبعض الناس يقرِّرون الانغماس جسداً وروحاً في الثورة. نحن، على سبيل المثال، كنَّا نريد إقامة إيطاليا الموحَّدة بالفعل. «اشتراكيّة» كما كان بييترو يقول مستنسخاً كلمات صديقه بيزاكانه. إيطاليا التي يجب أن تجد وحدتها بمساواة العمّال والمزارعين والشعب، من الشَّمَال إلى الجنوب، بما نصبو إليه أنا وفيرّاريس على النحو ذاته، لا بحربٍ شائنة تعامل الطرفَ المستولى عليه مثلما تعامَلَ كريستوفر كولومبس مع الهنديِّيْن. نحن لسنا هنود أمريكا، كنَّا نريد أن نختار أن نكون إيطاليِّيْن. لكنّنا أخفقنا.

أعتقد أنّ الثورات تُخفق دائماً. لم يكن خطئي أنّني أردتُ قيام الثورة، بل إنّني حاولتُ أن أكون على مستواها. كان يجدر بي ألَّا أكترث بها، كان يجدر بي أن أقتل وأشرب الدماء، كان يجدر بي أن أكون مثلما وصفني دوما، وأن أفكِّر بنفسي فقط، بنفسي لا غير. هكذا كنتُ سأنجو. هكذا قد أكون الآن حُرَّة.

الجمعة 29 أبريل 1864

غداً يوم النطق بالحُكْم. دخل فيرّاريس ليضع الطبق، فوجد طبق

الأمس، لم أمسَسْهُ. قال لي أن أهدأ ثمَّ لمس يدي، فأشعرني بالقشعريرة. قال أيضاً إنيّ أُذكِّره بزوجته، وإنّه كان سيُسعده لو تعرَّفَ على بييترو. قال إنَّ الحياة لا يأتيها كثيرٌ من النساء مثلي ومثل كاترينا. ذكَّرْنا أنفسَنا بكلمات ذلك النائب البرلمانيّ من إقليم باري، تلك الكلمات التي كانت تتناقلها أفواه النساء كلّهنّ في إيطاليا، لا سيَّما الأُمِّيَّات: «سيِّداتي العزيزات، إنَّ الحياة لمَنْ يجسر على اغتنام فرصها. فاقتنصنَ هذه اللحظة التي تنحو فيها إيطاليا إلى مصائر فُضْلىَ». وأضاف فيرّاريس: «أنتنَّ من ذلك النوع الذي تحبُّ الحياةُ اغتنامَهُ». ثمَّ روى عليّ أنّه هو كذلك، مثل بييترو، كان متطوِّعاً مع غاريبالدي، لكنّه لم ينخرط في صفوف الألف مقاتل. كان صيّاداً ألبيّاً. خاض الحرب الثانية لطرد النمساويِّيْن من لومبارديا. لهذا السبب عاد إلى السهل بعد عشرة أعوامٍ من حياة انعزاليّة قضَّاها في الجبال. ثمَّ لخبرته في الجبال أوفدوه إلى هنا. «لمطاردة قطَّاع الطُّرُق» قال. وكان يبتسم. وبذا كَفَفْنا عن الكلام.

للمرَّة الأولى أشعر بالخوف. لا من الموت. إنّما لأنيّ محتجزة هنا، وليس بوسعي فعل شيء لتجنُّب ذلك. العجز عن فعل أيِّ شيء يجعلني هَشَّة، والهشاشة تبثُّ فيَّ الخوف. أمَّا إن بقيتُ حَيَّة، فسوف تكون أجباني أطيب الأجبان في كالابريا كلِّها، أُقسِم!

السبت 30 أبريل 1864

إدانة ماريّا أوليڤيريو، أرملة موناكو

إنَّ محكمة الحرب العسكريّة في مقاطعة كالابريا جناح 2، ومقرُّها كاتانزارو:

تدين ماريّا أوليڤيريو، أرملة موناكو، بالحُكْم بالإعدام رمياً بالرصاص في الظهر، وعلى نفقة القضاء.

وتُصرِّح بمصادرة البنادق، والمسدَّسات، والنقود وأغراض أخرى محتجزة. وفي النهاية ترسل الحُكْمَ الحاليَّ إلى الطباعة، والإشهار والتعميم وَفْقاً لما يقتضيه القانون.

30 أبريل 1864

الأحد 1 مايو 1864

سيُطلقون النار عليَّ من الخلف. لم يحدِّدوا متى. ربَّما بعد يوم، أسبوع، شهر، وربَّما أكثر. وإنَّ هذا الانتظار هو الذي يقتلني. أسمع هتافات المزارعين الغاضبة من هذه الزنزانة أيضاً: أعدموا المزارع كوبّولا في الساحة، فانتفض الشعب، ولم يتوقَّف الجيش عن القصاص بالإحراق والهدم منذ أيَّام. تُرى ما الذي سيفعله الشعب عندما تُعدَم شيشيلّا بالرصاص من الخلف؟

«مَن داس الخبز؟ مَن داس الخبز؟» تحضرني هذه المآسي التي كابدتُها في طفولتي حين كان أبي وأُمِّي يغضبان إذا ما سقطت كسرة خبز على الأرض عن طريق الخطأ. يجب تنظيف تلك الكسرة جيِّداً بممسحة، ويجب النفخ عليها، ثمَّ رشم الصليب بالأصابع. وإلَّا حلَّت بنا البلوى. مَن داس الخبز؟ أُكرِّر السؤال على نفسي الآن.

أنا في الليل، وشمعتي مضاءة، لا أقدر على النوم. أتسلَّى بلعبة الأشياء التي أتحسَّر عليها، إذ غدوتُ شبه ميتة. أتحسَّر على أنّني لم أقل

الحقيقة قطٌّ. هذا هو ما يودي إلى التهلكة، إلَّا أنّه الأمر الوحيد الذي أنقذ حياتي. لأنّني، الآن، وهنا أمام الموت، أقف وحيدةً ولا أحد أكذِبُ عليه باستثناء ذاتي. أتحسَّر على نهاية شبابي. أتحسَّر على اللحظة التي باشرتُ فيها العمل نسَّاجةً لدى آل غولّو، لأنّني انصعتُ إلى ذلك العمل ولم أتمرَّد عليه. أتحسَّر على أنّني لم أكن سعيدة. كلمة السعادة عندنا محرَّمة، لكنّني كنت أعلم أنّها موجودة، وكان ينبغي لي أن أؤمن بها. فعندما تنقصنا الشجاعة، نختلق عذراً يفيد بأنّ الكلمات ليست سوى كلمات. في حين أنّها أسلحةٌ لتغيير العالم. لو تهيَّأ لي الخروج من هنا، لكان أوَّل ما أفعله هو تسلُّق جبل بوتيّ دوناتو. كيف استطعتُ أن أهدر تلك الأيَّام كلَّها؟ أتحسَّر على أنّني كنتُ أشعر بالعار إذا أحببتُ أحداً مّا. لم أقل لأبي يوماً أنّني أُحبُّه، لم أعانق جَدَّتي تينوتسا يوماً، لم أقل «أُحبُّكِ» حتَّى لأُمِّي. قلتُها لڤنشنزا، لها وحدها، لأنّها كانت صغيرة. ولبييترو، مرَّة واحدة فقط. كنتُ أكره رسائله التي تُبشِّر بالحُبِّ في البعاد، وتفضي إلى الضرب في القرب. أتحسَّر على أنّني أردتُ أن أُتْرَكَ وشأني، وأنّني لم أؤمن بإمكانيّة إمساك الأشياء باليدَيْن. وأنّني لم أشأ إحداث عداواتٍ لي. كان من الوارد أن أكون في بيتي الآن، ولكنّي ما كنتُ لأحيا يوماً واحداً من عُمُري. فالأيَّام التي لم أخاطر بحياتي خلالها هي الأيَّام التي نسيتُها. أريد، إلى الأبد، أن أعتنيَ بالبستان الذي زرعتُهُ بين خوفي وبيني في تلك الليلة الماطرة داخل مخزن الكستناء. إلى الأبد، حتَّى بعد موتي.

الخميس 5 مايو 1864

جاءت الانتفاضات على إعدام المزارع كوبّولا بالمفاجآت. سلَّمني الملازم فيرّاريس وثيقةً بخطِّ سيرتوري الذي يطالب فيها الملكَ بمنحي العفوَ مقابل الحُكم بالأعمال الشاقَّة مدى الحياة. ليت بييترو قرأ ما

كتبه عنه هذا الرجل الزائف. بين الأعمال الشاقَّة مدى الحياة والموت، أُفضِّل الموت.

كاتانزارو، 1 مايو

إلى وزارة الحرب، تورينو

إلى الجنرال ألفونسو لامارمورا، نابولي

إنَّ أرملة زعيم العصابة بييترو موناكو، ماريّا أوليڤيريو، البالغة من العُمُر اثنَيْن وعشرين عاماً، ملتحقة بالعصابة، ومُدانَة بالإعدام من قِبَلِ هذه المحكمة العسكريّة. عُلِّقَ تنفيذ الإعدام تطبيقاً لأحكام المادَّة 531 من القانون الجزائيّ العسكريّ. أُطالب بالعفو الملكيّ، وتخفيف عقوبة الإعدام إلى أعمالٍ شاقَّة مدى الحياة، لأنّ المرأة كانت قد اقتيدت إلى صنع الشرور من قِبَلِ إجرام زوجها وهمجيَّته، ولأنّ عقوبة الإعدام نُفِّذتْ بحقِّ المزارع الهارب كوبّولا خمسة عشر يوماً مضت في هذه المدينة نفسها. فبعد أنموذج الجزاء الصارم، قد يُؤتي أنموذج الرحمة الملكيّة بنتائج حميدة. أُرفق للجنرال لامارمورا نسخة عن حُكْم المحكمة.

الجنرال سيرتوري

الأحد 8 مايو 1864

تورينو، 8 مايو

إلى قيادة الفيلق السادس في مقاطعة نابولي

تسلَّمْنا هذا الصباح أوراقاً متعلِّقة بأرملة موناكو.

وقد خفَّفَ جلالة الملك ڤيتّوريو إيمانويلي حُكْم الإعدام إلى الحُكْم بالأعمال الشاقَّة مدى الحياة. برجاء إبلاغ قيادة الفرقة العسكريّة في كاتانزارو

الوزير أ. ديلّا روبّيا

كاد فيرّاريس يخلع باب الزنزانة من فرط فرحته وهو داخل. عفا عنّي ڤيتّوريو إيمانويلي. وبالمقابل سيسوقونني إلى سجن الرجال في فينيستريلّه في مقاطعة پيمونته، يقال إنّه أقوى التحصينات مناعةً في العالم بعد السور العظيم الذي في الصين. حصنٌ حجريٌّ رهيبٌ رابضٌ فوق جبل، يستحيل الفِرار منه، ولم تطأ فيه قَدمُ امرأةٍ من قبل. سأكون الأولى. إنّه المكان الذي تُحشَر فيه الأرواح الضّالّة، أسوأ السجون صلابةً في أوروبا كلِّها، وأعتى المعتقلات من حيث التعذيب. لقد قايضوا موتي بأعمالٍ شاقَّة حتَّى آخر يومٍ من حياتي. ففي أعقاب الانتفاضات الشعبيّة يؤدِّي الملك دور الرجل العطوف، ويُنزِلُ بي عقاباً أشدَّ إيلاماً. يحيا الأموات!، أردِّد في سرِّي كلَّ ثانية، مثلما كان الشبَّان يهتفون في ميلانو. يحيا الأموات!

الثلاثاء 10 مايو 1864

سأغادر هذا السجن العسكريّ في الغد. سيسوقونني إلى حصن فينيستريلّه. لم يكن للأمر أن يشهد نهايةً أسوأ من ذلك. سيقتادني فيرّاريس بعربة الرماة حتَّى نابولي، وهناك سيُسلِّمونني بأيدي رجال الشرطة، الذين سيسوقونني بدورهم حتَّى تورينو. هذه هي فرصتي الوحيدة.

لا بدَّ أن أهرب. أن أهرب وأن أختبئ. لكي أعيش بسلامٍ، أخيراً.

44

طرق فيرّاريس الباب، بعزم.

دخل، سألتُهُ كم الساعة، لم أنم إلَّا قليلاً.

«الساعة الخامسة» قال «سنسافر طوال النهار، ولن نصل إلى نابولي إلَّا في المساء. خذي أغراضكِ».

قال ذلك جزافاً، كان يعلم أنّه ما لي من شيءٍ هناك سوى الأوراق التي رافقتْني خلال الشهرَيْن الماضيَيْن.

«خذي أوراقكِ».

أعطاني خرجاً لأضعها فيه، وبقايا شمعة وثلاثة أقلام رصاص.

«ضمِّي هذه إلى تلك». أوراقٌ أخرى، بيضاء، رزمةٌ وافرة. «ستنفعكِ في فينيستريلّه».

فكَّرتُ أنّهم لن يسمحوا لي باستخدامها، وسيأمرونني بإحراق الأوراق المكتوبة.

لكنّي قلتُ له شكراً.

وقبل أن نخرج، كبَّلَ فيرّاريس الأصفاد بمعصمي.

كان النقيب باليوني ينتظرنا في فِناء السجن. ثرثر بشيءٍ مّا، بلُكْنته الپيمونتيّة، حول العفو الممنوح. ثمَّ تفقَّدَ الأصفاد، وأشار إلى فيرّاريس بالاستعجال، فالفجر هناك، خلف سور السجن.

والعربة برلينة سوداء، رُسِمَ شعار آل سافويا على بابها، وتحته شعارٌ أصغر يرمز لفيلق الرماة. وعلى السرج جنديّان شابَّان ناعسان، يرتديان جُبَّةً سوداء، وبنطلوناً أبيض، وقبَّعة مريَّشة. وفي الأمام أربع خيول كالابريّة دهماء وضخمة.

سمح لي فيرّاريس بالصعود، وأدَّى التحيّة العسكريّة إلى باليوني، وجلس بجانبي. ثمَّ أغلق الباب.

ستستغرق الرحلة إلى نابولي حوالي يومَيْن أو ثلاثة، وربمَّا أربعة، هذا متعلِّقٌ بأحوال منطقة الأنهار ما بين كوزنتزا وباولا.

ينبغي المضيُّ على أشواطٍ طويلة في مجرى الأنهار التي لا حواجز لها، وطلب العبور أكثر من مرَّة إلى الضفَّة المعاكسة، إذ لا وجود لجسور. فإذا أمطرت وكانت الحواجز طينيّة، فمن الوارد أن نستغرق عدَّة أيَّامٍ إضافيّة. كان الطريق بين باولا وسابري جافَّاً، لكنّه متتاليةٌ من دروبٍ جبليّة ومسالك شقَّتْها السيول في الصخور. وما بعد سابري تبدأ الطريق الرسميّة، وهي الطريق العسكريّة التي تصعد وتهبط بين هضاب شيلنتو، وتفضي في النهاية إلى نابولي. أطلعني فيرّاريس على درب الرحلة، مع أنّي كنتُ أعرفه: فهو الدرب الذي قطعتُهُ لبلوغ بييترو في نابولي، والاحتفال بقدوم غاريبالدي قبل التحرير.

«هل سبق أن ذهبتِ إلى نابولي؟» سألني.

«لا» أجبتُ.

توجَّهنا من كاتانزارو إلى غاليانو، وولجنا السيلا الصغرى عبر دربٍ جبليّ عريضٍ وجافٍّ.

توغَّلنا في الغاب مصوِّبين نحو جيميليانو، وسرعان ما غمرت رؤية الزان والكستناء صدري بالسلام.

أمَّا فيرّاريس، فكان متوتِّراً بشكلٍ غريب، ما انفكَّ ينظر من النافذة صامتاً. ومن جهتي لم أكن أتحدَّث، لم يكن لديَّ رغبة، إنّما أحاول البقاء متيقِّظة لاغتنام الفرصة السانحة للفِرَار.

توقَّفنا في فسحةٍ خضراء عند ساعة الغداء، وتناولنا الخبز والجبن، وشربنا الماء المحفوظ في دنَّين مربوطَيْن على سطح العربة.

لم ينبس الشابَّان بكلمة: كانا يتَّبعان أوامر فيرّاريس، ويأكلان ما استطاعا أكله، بشراهة. لم يفكَّا قيودي، لكنّي تمكَّنتُ من إيصال اللقمة إلى فمي.

من جهةٍ أخرى، لم أكن لأنجح في الهرب والحال هذه.

تمنَّيتُ أن نبقى في الغاب، لكنّنا اتَّخذنا بعد قليلٍ طريقاً أعرض يؤدِّي إلى سوفيريا مانّيلّي. وبعدها نحونا إلى بالتزاتا، ثمَّ على الطريق نحو روليانو.

وفي الأثناء غابت الشمس، وكان المساء يهبط بصواعق زهريّة.

«سنصل إلى كوزنتزا في قلب الليل» قال فيرّاريس، في المقصورة المترنِّحة، بعد خمس ساعات أو ستٍّ من انقطاعه عن الكلام.

وما زال متوتّراً، ينظر إلى الخارج ويفرك طرف قبّعته. «سننام في ثُكْنة».

نظرتُ إلى الخارج كذلك، لقد حلَّ الظلام، وكنّا نمضي على إنارة الأضواء الأماميّة. «عليَّ أن أتوقَّف لقضاء حاجة» قلتُ.

«ليس الآن» ردَّ فيرّاريس «سنتوقَّف بعد قليل».

وبعد قليل، ما إن اجتزنا مفترق الطُّرُق، ضرب بقبضته على خلفيّة المقصورة، وأطلَّ برأسه من النافذة.

«قفْ!» صاح إلى الجنديَّيْن «سنتَّخذ طريق الغاب».

«ماذا؟» سأله أحدهم.

«ليس من طريق دونّيتشي، فلقد فات الأوان» قال فيرّاريس.

أوقفا العربة، وصهلت الخيول المنهكة.

«ماذا؟» سأله الشابُّ مجدَّداً.

«فلنسلك الدرب الجبليّ الذي يلج الغاب. من الجهة اليمنى ...» كان صوت فيرّاريس يرتعش في حَنْجَرَته «سنذهب عبْر بيانه كراتي. عبْر أبريليانو».

التفت الجنديّ نحو الغاب: «هل أنتم واثقون حضرة الملازم؟»

«سنختصر ثمانية كيلومتر».

«لكنَّ الغاب ...» حاول الشابّ أن يردّ.

«إلى الغاب، قلتُ!» أمره فيرّاريس.

عادت العربة إلى الخلف، ودخلنا في حرش الزان في منطقة بييترافيتّا.

هذه غابتي، هنا وُلِدتُ، وإلى هنا ترنو أبصار والدتي عندما كانت تفكِّر بالنجاة، وما زالت حتَّى الآن تواظب على ذلك بالتأكيد. وعلى بُعد ساعة من المشي بيتُ خالتي زلزال، أو ما بقي منه.

اجتاحني الحنين، ثمَّ الحزن. كنتُ قد قطعتُ هذا الدرب الجبليّ ألف مرَّة، وبوسعي أن أسير فيه معصوبة العينَيْن. طغت جعجعة العجلات على الأصوات الأخرى كلّها، ومع ذلك تناهت نأمةٌ إلى مَسمَعي. فهنا بومةٌ قرناء. وهناك، بجوار نبعة، ضفدعٌ ينقُّ. وفي البعيد، تجلجل أجراس الأبقار في حظيرة إحدى العُزَب؛ وثمَّة كلبٌ ينبح. ملأ صمغُ الزان العربة برائحته المائلة إلى الحلاوة، ممتزجةً بغبار الدرب والعبق الحادّ للحاء أشجار الكستناء.

وفجأةً، أمسك فيرّاريس يديَّ، المكبَّلَتَيْن معاً، وشبكهما بيدَيْه.

كان قد لمسني في مرَّة سابقة، داخل الزنزانة.

أحسستُ بقشعريرة.

ظننتُ أنّه تعبيرٌ عن الرقَّة، أو الرأفة، فسحبتُ يدَيَّ.

لكنّه أمسك بهما من جديد، بانفعالٍ هذه المرَّة.

ضمَّهما في يدَيْه قليلاً، وغمرهما، ودلَّكَ كفَّيَّ وأصابعي. ثمَّ نظر إليَّ.

نبش في جيبه، ثمَّ أخذ يُدوِّر معصمَيَّ بيدَيْه من جديد.

صدر صوتٌ معدنيّ، ثمَّ طنينٌ حادٌّ.

الأصفاد. فُكَّتْ.

أردتُ أن أقول شيئاً، لكنّه أوقفني.

«اسكتي» قال «خبِّئي الأوراق في جُبَّتكِ. سنتوقَّف بعد قليل. لقد فزنا بالحرب الأهليّة في كالابريا، وعاجلاً سننتصر في الجنوب برُمَّته، فليس من الصواب أن نتغطرس. سأقول إنّكِ تريدين قضاء حاجة. سأتركِكِ بمفردكِ، وستتوغَّلين بين الأشجار. اهبطي المنحدر إلى الأسفل، نحو غاب براتوبيانو».

أطعتُ دون أن أفوه بكلمة. بحثتُ عن عينَيْه، لكنَّ البدر، الذي كان آنذاك عالياً ومكتملاً، لم يضئ إلّا من أنفه وما تحت.

ضرب بقبضته ثانيةً.

تباطأت العربة.

«علينا أن نتوقَّف» صاح فيرّاريس، مُطِلّاً من النافذة.

ترجَّلَ الشابَّان، وغمغما بما ينمُّ عن التعب.

«السيِّدة تريد قضاء حاجة» قال فيرّاريس.

«هل يجب أن نراقبها؟» سأله أحدهما.

وعندما أجاب فيرّاريس لا داعي، قال الجنديّ:

«جيِّد. سننتهز الفرصة نحن كذلك».

اقتربا من شجرتَيْن.

وكان فيرّاريس، من الجهة الأخرى للعربة، يرافقني داخل حرش الزان.

«سأُراقبكِ» قال فيرّاريس بصوتٍ جهير «إيَّاكِ وارتكاب حماقات».

مشيتُ، ولحق بي قليلاً وسط الأشجار الغليظة. كانت ساقاي ترتجفان، وصوت الخطوات وحفيف الأوراق والأغصان يُدوِّي في أُذُنيَّ.

«إيَّاكِ وارتكاب حماقات» ردَّدَ فيرّاريس، بصوتٍ مرتفع كفاية لإسماع الجنديَّيْن «ثمَّة مسدَّسٌ مصوَّبٌ إليكِ».

توقَّفتُ واستدرتُ.

كان القمر يتغلغل بين أفرع الشجر ويضيئه كُلِّيّاً. بنطلونه الأبيض يلتمع أو يكاد، بالتباين مع جُبَّته الداكنة. والظلال تحفر وجهه عند حدقتَيْه، لتجعله يبدو عجوزاً وحزيناً للغاية. يشبه شخصيّة البولتشينيلاّ المسرحيّة، التي تظهر في الصور التي شاهدتُها في نابولي.

تقدَّمتُ خطوةً نحو حُرِّيَّتي، ثمَّ خطوةً أخرى.

التفتُّ ثانيةً، ما زال فيرّاريس هناك، واقفاً.

سمعتُ الجنديَّيْن، في البعيد، يعودان لركوب سرج العربة.

نظرتُ إلى أمامي مباشرةً. كان القمر يضيء لي الطريق.

فالتقطتُ أنفاسي، وهممتُ بالركض.

وفي البعيد، خلف ظهري، بعد قليل، دوَّت رصاصةٌ، ثمَّ صوت فيرّاريس، مُتقطِّعاً، يكسر الصمت.

«قفي! قفي! من هنا، من هنا، تعالا! استعجلا!»

لكنّي صرتُ بعيدةً جدّاً، وفي مأمن.

كنتُ حُرَّةً عند الرصاصة الخامسة التي أُطلِقَت إلى سماء الليل الكالابريّ.

استنشقتُ بعمق. وفي الأعلى هنالك سنونو شاردٌ يقطع السماء. كان الهواء في منتهى النقاوة. بنكهة الطمأنينة التي تُدفِئ قلبَ مَنْ خاض حرباً.

45

عشتُ خمسة أشهر داخل غابة فالّيسترو، إلى أن بدأت أوراق الشجر تتساقط، وهاجرت أسراب القُبَّرَة والزَّقْزَاق إلى الجنوب. كنتُ أنتظر أن تستتبَّ الأمور، لكي أعود إلى كوخ الخالة زلزال. وما لبثتُ أنظر إليه من مسافةٍ بعيدة: ما يزال هناك، سقفه مهدوم وجدرانه قائمة. كان يمثِّل حياتي على ما هي عليه. كنتُ سأُرمِّمه ذات يوم. وقد بدا لي الغاب والجبل في تلك الأشهر جديدَيْن، ليس مثلما كانا حين خضنا الحرب فيهما، إنّما عادا إلى سابق عهدي بهما عندما كنتُ صغيرة. ففي الصباح يأتي الهواء البارد بشكلٍ مفاجئ ومثل منبعٍ من الفرح. السماء فَتِيَّة، مثلما كنتُ أنا فَتِيَّة، وأقيس حظِّي بقياس السماء: فلقد عرفتُ الخيانة والجنون وما زلتُ حَيَّة. يحيا الأموات! – كنتُ أفكِّر خلال الحرب. يحيا الأموات! – أفكِّر الآن. لكنْ، ما من شيء إلَّا له فائدة، وكنتُ أشعر أنّني وُلدتُ من جديد.

انتشر خبر أنّ شيشيلاّ تمكَّنت من الفِرَار، وأنّها عادت إلى الغابات، وهكذا تقرَّبَ منِّي بعض قطّاع الطُّرُق لتشكيل عصابةٍ جديدة.

لكنّي كنتُ أهرب من كلِّ شيء.

ورغم هذا أمَّنتُ بندقيّةً لاصطياد الأيائل والخنازير البرِّيَّة، ورحتُ أطهي فرائسي بالتبخير، وأحتفظ بلحمها تحت ألواحٍ من الخشب.

وأهب أجزاء منها للباز والحِدأة السمراء، أو للحَوَّام، فهذه طيورٌ نزيهة، يسرُّني أن أتقاسم معها الغذاء. أمَّا البومة فكلَّا.

عرفتُ أنّ الرماة والحرس الوطنيّ باشروا البحث عنِّي في أرجاء السيلا، كنتُ سأستطيع الهرب إلى كابيتاناتا، في بازيليكاتا، أو نحو الشَّمَال قليلاً، إلى تيرّا دي لاڤورو أو إلى مقاطعة آبروتسي، لكنّني لن أُجبر نفسي على الفِرَار من دياري. فهذه غاباتي، وهذه جبالي، وما كنتُ لأُسلِّمها حتَّى الرمق الأخير.

وددتُ أن أرى أُمِّي وأشقَّائي، ولكنْ، لا يمكنني العودة إلى البلدة، ليس بعد، فهناك حرسٌ متربِّصون مثلما يترقَّب الثعلب مخاض الأرنبة. عاجلاً سيرحلون، حالما نفوز بالحرب في ربوع الجنوب قاطبةً.

لكنّي عدتُ إلى مخزن الكستناء، الذي أمسى حطاماً متفحِّماً. غرس أحدهم صليباً خشبيّاً في الأرض، ونقش هذه العبارة:

إلى ذكرى بييترو موناكو

اللصّ الصالح، الذي كان يُوزِّع الغنائم على المزارعين

وترك أحدهم عند أسفل الصليب وروداً برِّيَّة حمراء وصفراء، وباقةً من الخُرْشُوف اليابس.

وهنالك بطاقات شُكْر معلَّقة بمسامير غليظة. نُقِلَ ما بقي من جثمان بييترو إلى مكانٍ آخر، أو دُفِن. وأمسى المخزن مزاراً. وحيكَت أساطيرُ حول حياة بييترو.

ذهبتُ إلى الأرزيّة المعوجَّة عند نهر نيتو، استخرجتُ الكنز، وحملتُه

إلى عشِّ النَّسْر، ودفنتُهُ تحت الصليب في ظهيرةٍ ماطرة من أواخر أكتوبر. كانت الريح تجلد سفح الجبل، وينوح صفيرُها بين الصخور.

كنتُ سأعود لاسترداد الذهب يوماً مّا. أو لعلَّ أحداً يعثر عليه إذا نبش في الأرض بحثاً عن رفاة بييترو.

خلال تلك الأشهر الخمسة، سمعتُ قرع طبول الرماة ونفخ أبواقهم بين الفينة والأخرى. وقعوا تحت مَرمَاي ثلاث مرَّات، كانوا يتجوَّلون في أحراش الزان أو في الفسحات يتعقَّبون آثاري. لكنّ الحياة هي دوماً على شفير الموت، والنار الرديئة مصيرها الخمود مثل ألسنة اللهب العالية. لذا كنتُ أتجاهلهم، مؤمِّلةً في رأفة الريح، عسى أن تمدَّني بالأمطار، لكي أرويَ ظمئي.

كان ذلك ذات صباح من أواسط نوفمبر، حيث تجرَّدتِ السماء من الطيور المهاجرة، والهواء غدا مشبعاً بثلوج جبل بوتيّ دوناتو.

عاجلاً سينغمر كلُّ شيء هنا أيضاً بالبياض.

كنتُ أسعى لاصطياد وعلٍ كبير، أحد أكبر الوعول التي رأيتُها في حياتي. كنَّا نتحدَّى بعضنا بعضاً منذ أيَّام، يستدرجني لارتقاء سفوحٍ أُفقيّة وزلقة بالطحالب، والبندقيّة على كَتِفِي؛ وعندما أصل إلى القمَّة، أجده هناك بانتظاري للحظةٍ طويلة. كلانا على دراية: هذا موعدنا. كان يدعوني إلى ذروة الصخرة، ثمَّ يبتعد ويختفي في ومضة. لم أستطع أن أضعه في مَرمَى نيراني أكثر من ثانيةٍ واحدة إطلاقاً.

وصلنا في التباري إلى غابة فالّيسترو، عند مونتي ساكرو، الدَّغَل العتيق والمقدَّس، الذي فيه أشجار عملاقة ومُعمَّرة منذ مئات السنين.

رأيتُ في ذلك الصباح قرونه المتشعِّبة والغليظة أوّلاً، ثمَّ عينَيْه اللتَيْن تترصَّدانني بثقةٍ وعزيمة، من قمَّة جُرْف.

تسلَّقتُ بمجهودٍ ضئيل، بلا حبالٍ تقيني السقوط. ظلَّ الوعل هناك، بانتظاري. وفي اللحظة التي امتشقتُ فيها البندقيّة وثَبَ واختفى في الدَّغَل بأربع قفزاتٍ جانبيّة.

سوى أنّه، من ذلك الدَّغَل نفسه، من داخله المظلم، وفي اللحظة نفسها، ظهر أحد الرماة.

رآني، على مسافة خمسين خطوة، في عراء تلك الفسحة.

كنتُ حينها قُبَالَته أُصوِّب البندقيّة إليه.

كان بإمكاني أن أقنصَهُ، لكنّي آثرتُ الهرب، مثلما فعل الوعل الكبير بي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

والمهرب الوحيد هو الجُرْف.

رميتُ البندقيّة، وهممتُ بالهبوط.

نفخ الرماة بأبواقهم عندئذ للتحشيد.

تدحرجتُ إلى الأسفل بسرعةٍ جنونيّة، مثل الوعل.

أفلتت يدي اليمنى إحدى نقاط الارتكاز فجأةً، وكدتُ أطير عشرين متراً.

مزَّقتِ الصخرةُ المدبَّبة قميصي وبنطلوني ونهشت صدري وركبتَيَّ. أحسستُ بصعقةٍ موجعة، لكنّي استطعتُ التمسُّك وتفاديتُ السقوط، في حين كان دمي يبلِّل ثيابي، ويقطر داخل الجزمة.

لا راحة للأحرار، قلتُ في نفسي وأنا أحاول بلوغ الأرض خارجةً عن طوري، لا راحة للحِدَأة أو الباز: الوحيد الذي يتنعَّم بالراحة هو البوم، خلال النهار، أمَّا الشجعان، فيصطادون الحياة تحت ضوء الشمس.

بلغتُ الأرض بقفزةٍ أخيرة، وانطلقتُ راكضةً، لكنّ قواي كانت تخور.

الغاب ينفتح أمامي، غاب الصنوبر الأرزيّ العريق الذي خرجتُ منه. عليَّ أن أصل إلى هناك تحديداً، سأكون في مأمنٍ حالما أغوص فيه، وعن طريقه سأتَّجه إلى كوخ الخالة زلزال، إلى حياتي الجديدة؛ كانوا سيُعاودون البحث عنِّي، كمَنْ تلبَّسَهُ الشيطان، كالمجانين؛ كانوا سيُعاودون قَطْع الأشجار واقتلاع الجذور، لكنّهم لن يعثروا عليَّ.

لم أكن لأظهر ثانيةً.

غير أنّني آنذاك شعرتُ بتعاظم رغبتي في النظر وإن للمرَّة الأخيرة في عيون مَنْ يجبرني على الاختباء. كيف لي أن أختبئ ممَّنْ لا أراه؟

توقَّفتُ، والتفتُّ ونظرتُ إلى قمَّة الجُرْف.

كانت الشمس مرتفعة، تضيء من الخلف ظلّاً واقفاً يحدِّق إليَّ. ذلك الضوء. الضوء الذي كنتُ أُولد في رحابه كلَّ يومٍ مذ عدتُ إلى الجبل، ما كان ليؤذيَني.

شحذتُ عينَيَّ، وظلَّلتُهما بيدَيَّ.

كان فيرّاريس هناك، بجُبَّته السوداء، بلا قبَّعة، ضامر الوجه كالثعلب الصغير.

كنتُ سأعرفه من بين مئة رجل.

تبادلنا النظرات، وقامتانا ثابتتان.

أنا في الأسفل: فريسته.

وهو في الأعلى: المفترس.

لن أموت، أقسمتُ على ذلك. ليس هذه المرَّة.

ثمَّ مرَّت لحظةٌ خاطفة.

وصل من خلف فيرّاريس ثلاثة جنود ببنادق مُوجَّهة.

استدرتُ، وباشرتُ الركض نحو الأشجار مثلما لم أركضْ في حياتي.

بُمْ.

انطلقت رصاصةٌ، وحطَّمت الصمت.

بُمْ-بُمْ.

انطلقت رصاصتان، متقاربتان.

كان فيرّاريس رافعاً ذراعَيْه، يشير إلى الجنود ألَّا يطلقوا النار.

ولكنْ، فات الأوان.

«طليانيّة!» صاح واحدٌ منهم، وأنا ما زلتُ أركض يائسة، وأسمع أزيز ذلك الصوت من الأشجار إلى الجدار الصخريّ الذي خلف ظهري.

بُمْ.

إصابة.

«طليانيّةاااا!» وصلت صرخة جنديٍّ آخر.

طليانيّة، قلتُ في سرِّي، وابتسمتُ.

بُمْ. بُمْ.

وإذ ذاك، كأنَّ جُلْمُوداً يهشِّم ساقي هابطاً من عُلُوِّ ألف متر، وكأنَّ ثوراً ينطح خاصرتي.

ارتميتُ على الأرض فجأةً.

لم يتبقَّ إلى الغاب إلَّا القليل.

كنتُ أراه، ها هو هناك.

نهضتُ من جديد، ولا أدري كيف استأنفتُ الركض، ثمَّ ارتميتُ من جديد، وصرتُ حينها أستعين بذراعَيَّ، لكي أتقدَّم.

بُمْ-بُمْ.

رحتُ أركض على أربع، مثل باكّا، فلا بدَّ أن أبلغ أشجار الصنوبر الباسقة، التي فيها نجاتي، لكنَّ العناء يطيح بي أرضاً، بتُّ أُحسُّ بشهقاتي في رأسي، وأزحف والزحف يتضخَّم، أخدش التراب وأنفاسي تطنُّ في رأسي، ولا تدعني وشأني، وخاصرتي محفورة بقرون الثور، وساقي تطقطق كالغصن اليابس إذا انفلق.

بُمْ.

«طليانيّةااااا!» ما زال الجنديّ يصيح، من البعيد، بينما لا يكلُّ رفيقه عن الرمي.

بُمْ-بُمْ.

«طليانيّةااا!!»

بات ذلك الصوت أدنى من صدى.

خُيِّلَ إليَّ أنّني أسمع صوت فيرّاريس يأمرهم صارخاً، ويفرض عليهم وقف إطلاق النار، يفرض السكوت. أجل، كان هو، سمعتُهُ، كان يصرخ بذلك حقّاً.

نظرتُ إلى الوراء: لقد خلّفتُ سيلاً من دماء، على الأرض، على أرضي، خلّفتُ سيلاً من الدماء، الكثيفة كلُعاب الحلزون.

ابتسمتُ ثانيةً، وفكّرتُ بالشكل الذي نَؤُول إليه في النهاية.

بُمْ. بُمْ. بُمْ.

وصلتُ من أعلى الجُرْف ثلاث رصاصات أخرى، وكانت كما لو أنَّ جبل بوتيّ دوناتو قد هوى عليَّ بأكمله.

بُمْ. بُمْ. بُمْ.

«طليانيّةااا!!»

ربَّما – فكَّرتُ – سيتوقَّفون الآن.

ربَّما – فكَّرتُ – سيُدركون الآن أنّنا ذات يوم كنَّا أحياء.

عُيِّنَ فاوستو غولّو، حفيد الطفلة التي اختطفتْها شيشيلّا وبييترو، وزيراً للزراعة في حكومة بادوليو الثانية، وما بين صيف العام 1944 وربيع العام 1945 أصدَرَ تشريعاتٍ تسلِّم الأراضي للفلَّاحين وتُنظِّم عقود المقاسمة وعقود الإقامة في العُزَب، بما يصبُّ أكثر في مصلحة العمَّال، ليوفي بذلك بوعود غاريبالدي، بعد ثمانين عاماً. ولأنّ فاوستو غولّو اعترف بحقوقهم، سيدخل التاريخ بصفته «وزير الفلَّاحين». من منظورٍ تاريخيٍّ يبدو أنّ العمليّة الإجراميّة التي أجرتْها شيشيلّا وبييترو بحقِّ عائلة غولّو، كان لها أثرٌ بالغٌ على موقف حفيدهم.

في متحف الأنثروبولوجيا الإجراميّة في جامعة تورينو، هناك صورتان معروضتان لشيشيلّا، التُقِطتا بعد القبض عليها، وتظهر فيهما مع البندقيّة وذراعها مضمَّدة، بسبب الطلقة التي قتلت زوجها بييترو. تعود الصور لأرشيف تشيزاري لومبروزو، وهي موادُّ مرقَّمة تؤيِّد النظريّة الطبِّيَّة-الأنثروبولوجيّة عن أنّ المجرمَ «مجرمٌ بطبيعته».

تعقيبٌ من الكاتب

وُلِدت فكرة هذه الرواية قبل أعوامٍ طويلة، عندما كانت جَدَّتي في صغري تروي عليَّ عن مغامرات امرأةٍ سالفة كانت إلى جانب زوجها تقاتل في الغابات بصفتها قاطعة طُرُق.

وكانت أولى المصادر لتعقُّب حياة ماريّا أوليڤيريو هي مقالاتٍ كرَّسَها ألكسندر دوما في الإندبندنتي، الجريدة التي أدارها من العام 1860 لغاية العام 1864. وفي العام 1864 كتب دوما عنها قصَّةً بسبع حلقات، وكان لديه مشروعٌ لتأليف روايةٍ عنها، لكنّه لم يُنجزها. إلَّا أنّه في العام نفسه كتب «روبن هود. *أمير اللصوص*»، صدرت عام 1872 بعد مماته، مستوحاة من ماريّا أوليڤيريو وزوجها بيترو موناكو.

وكانت مصادري الأساسيّة هي الدراسات المعمَّقة التي أجراها بيبّينو كروتشو، وملفَّات القضايا المرفوعة ضدَّ ماريّا أوليڤيريو وعصابة موناكو، المحفوظة في أرشيف الدولة المركزيّ في روما، وأرشيف أركان الجيش في روما، وأرشيف الدولة في كوزنتزا، والتي سمحت لي بإعادة بناء الأحداث كلّها بدقَّةٍ عالية، وإنشاءٍ أمين لبعض الحوارات. وعلى الرغم من هذا، يبقى هذا الكتاب رواية.

استخلصتُ بعض المشاهد لحياة الغاريبالديِّيْن من الرسائل، واليوميّات، وشهود تلك الحِقْبَة، لا سيَّما مذكِّرات الرامي اللومبارديّ

كارلو مارغولفو وكتب إيبوليتو نييڤو. ووضعتُ الجملة الافتتاحيّة للفصل الثامن كتحيّة تقدير لمقالةٍ لألبير كامو «*Retour à Tipasa*» / *عودة إلى تيبازة*، موجودة في «*Noces, suivi de L'été*» / أعراس، *يليها* الصيف. أمَّا بعض مشاهد الغاب، فهي كتحيّة تقدير لبعض صفحات ماريو ريغوني ستيرن. وفي النهاية، أنا مَدينٌ لتومّازو، الذي اصطحبني للتجـوُّل والمبيت في بوتيّ دوناتو وجبال السيلا.

هـذه الرواية مُهداةٌ أيضاً إلى ذكرى ألسّاندرو ليوغرانده ودراساته، الذي ما كنتُ لأضجر من التحدُّث معه عن الصَّدْع بين الشَّمَال والجنوب. أنا نفسي أُمثِّل المَخرَجَ من هذا الصَّدْع، وأحمل هذا الصَّدْع في وجداني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ماريّا أوليڤيرو

ماريّا أوليڤيرو

من الرواية:

كنتُ أنظر إلى أُمِّي، منحنية على النول، تتظاهر بأنّها لا تسمع، لكنّها كانت تصغي إلى كلِّ شيء، فأُجيب في النهاية «نعم» بصوتٍ خفيض متَّسمةً ببعض الحياء، لأنّ ذلك السؤال كان آتياً من عالمٍ آخَر. تغيير مصيري، وربَّما مصير إيطاليا ... لا يحقُّ للمزارعين أنْ يطرحوا تساؤلاتٍ كتلك.

وعلى الرغم من هذا، كان السؤال يُوقِظ فيَّ شيئاً غامضاً وجبَّاراً، مثل جمرةٍ دفينةٍ توشك على الاضطرام، فأجدني ألتهم تلك الكُتُب كما لو أنّها كُتِبَت من أجلي تحديداً: «الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس» «أضرحة» لأوغو فوسكولو؛ «الخيالات» لجوفانيّ بيركيت؛ «أدلكيس» «مارس 1821» لألساندور مانزوني. ثمَّ أحفظ عن ظهر قلبٍ بعضاً من الفقرات والأبيات التي تُظلِّلها المعلِّمة دوناتي بالقلمِ الرصاص الذي كانت تمسكه بين أصابعها على الدوام:

«قَسَماً لن يتلاطم هذا الموجُ

أبداً بين ضفَّتَيْن لدودَتَيْن،

قَسَماً لن تنهض حدودٌ

بين إيطاليا وإيطاليا، أبداً!»

جوزِبِّه كاتوتسيلا: كاتب وصحفي إيطالي من مواليد عام 1976، تخرج من كلية الفلسفة في جامعة ميلانو وقدّم أطروحته عن مسألة العقل والمنطق في فلسفة نيتشه.

كتب كاتوتسيلا العديد من قصائد النثر والمجموعات القصصية والروايات الاستقصائية والمقالات الصحفية ونشر في أهم الجرائد اليومية في إيطاليا. تعنى كتاباته بالأزمات الإنسانية كالهجرة، والقضايا الوطنية الإيطالية.

حازت روايته "لا تقولي إنك خائفة" على جائزة "لوستريغا" للشباب، أهم جائزة للأدب في إيطاليا، وصدرت في اللغة العربية عن المتوسط إضافة إلى روايته "لكنك ستفعل"، أما روايتنا هذه فقد حصلت على جائزة روبنسون كأفضل رواية إيطالية للعام 2021، وكذلك في تصنيف أكبر صحيفة إيطالية "الكوريرا ديلاسيرا".

telegram @soramnqraa

هذه هي القصة الحقيقية لـ شيشيلا، التي كان اسمها ماريّا أوليڤيريو، المرأة الإيطالية الثائرة التي كانت تؤمن بالتغيير الجذري وحاربت لجعله حقيقياً. يأخذنا جوزيّه كاتوتسيلا (راوي قصة سامية يوسف) إلى الريف الإيطالي قبل أن تكون إيطاليا موحدة، حيث رأى الناس في (القمصان الحمراء) خلاصهم من الخضوع لاستغلال الأثرياء لهم، ومن الجوع ومن قسوة الفقر، الذي لا يسلب الخبز فقط بل الكرامة، والرحمة، ورابط الدم أيضاً وتصبح الخيانة والانتقام ديدن الناس ودينها. في هذا الجو ولدت ماريّا أوليڤيريو ونشأت. وفي هذه الرواية يمزج جوزيبه الحقائق التاريخية الموثقة بالأساطير والحكايات التي قيلت عن ماريّا منذ أن كانت (ماريّا) الطفلة المنكبة على القراءة، باحثة عن الحرية من خلال المعرفة، إلى أن حولها البؤس والظلم إلى شيشيلا (الثائرة أو قاطعة الطرق)، ثم رماها في دروب بؤس جديدة مطرودة بالعنف، ومصحوبة بخيبات الأمل، وبذئبة تتبعها في كل مكان: «وإن كنتُ قد استعملتُ السكّين لقصّ شَعْرِي وارتديتُ ثياباً رجاليّة، فليس لأنّي أردتُ أن أكون مثل واحدٍ منهم. لولا فعلتي هذه لما تحرَّرتُ أبداً. لولا ذلك لكنتُ سأبقى ماريّا.»

تعيش ماريّا وتموت شيشيلا تحت أعين القارئ موكلة رسالتها المليئة بالأمل والقوة إلى الريح التي تتلاشى فيها صرختها الأخيرة: «أنا طليانية».

الناشر

ISBN 979-12-80738-74-5
9 791280 738745
المتوسط